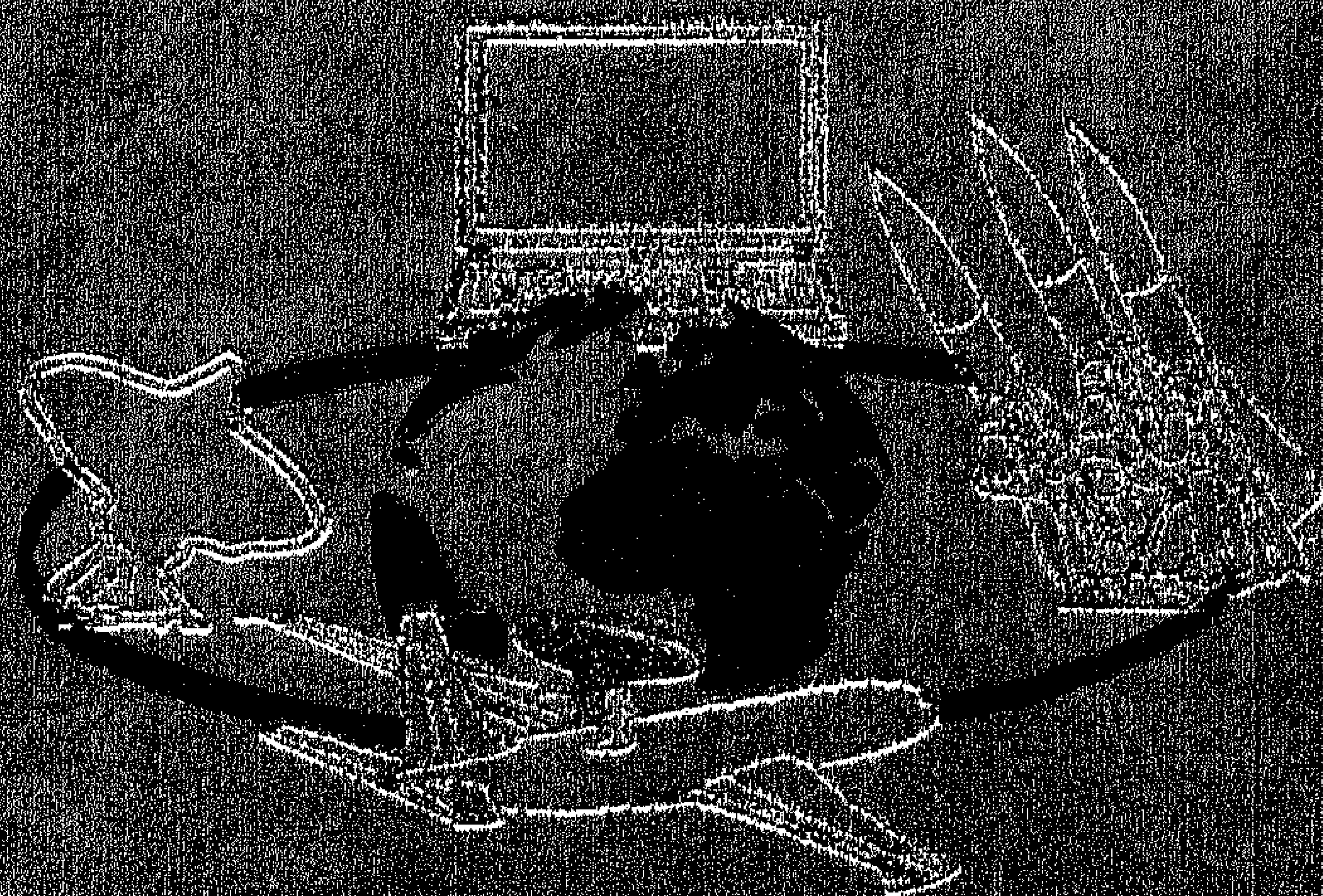
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

تليجرام

مكتبة

غواص

في بحر الكتب

قاليجراهم

جروب باهثون

غواص في بحر الكتب



موسوعَة عَالَم المخَابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

أصلُ الجَاسُوسيَّة وتَطَوُّرُها

تليجرام

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

باحثون

أسعَد مفرِّج

ولجنة من البَاحثين

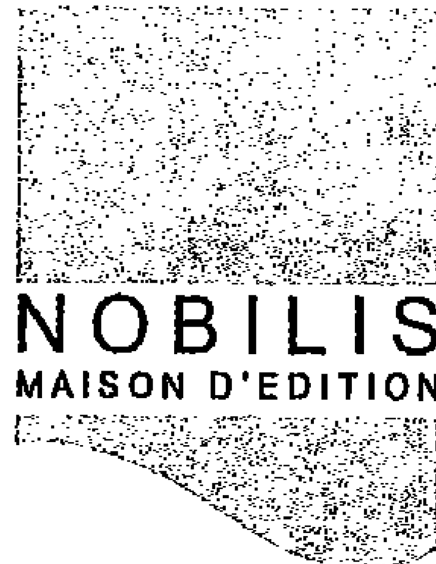
موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الخَامس

الإستخبَارات السُّوفيَاتيَّة (١)



إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارات السُّوفيَاتيَّة (١)

الجِزء : الخَامس

المؤلّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الأوبرتشنينا

الـ"أوبرتشنينا" هي أول شرطة سياسيّة في روسيا، وهي تُعتبر رائدة قديمة للـ K.G.B، أسسها عام ١٥٦٥ "إيفان الرهيب"، أو "إيفان المخيف"، أوّل دوق أعظم في موسكو يتوّج قيصرًا. وكان الأوبرتشنيكون، عناصر هذه الشرطة، يرتدون اللباس الأسود ويمتطون الجياد السوداء معلقين بالأسرجة رأس كلب ومكنسة رمزًا لحربهم ضد الخيانة. وكان أغلب الخونة من نتاج مخيلتهم ومخيلة رؤوسائهم كما كان الحال في الحقبة الستالينية. فكانوا يهاجمون مدنًا بأكملها وعلى الأخص "نوفغورود" التي قتل معظم سكانها عام ١٥٧٠ خلال حملة شنيعة دامت خمسة أسابيع. وكانت تنتاب إيفان فترات من السادية البربرية وأخرى يستغرق فيها بالصلاة والندم. وبعد أن أشاعت الذعر خلال سبع سنوات ألغيت الأوبرتشنينا عام ١٥٧٢. وبعدها بأربعة قرون كان ضحايا مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD يطلقون أحيانًا على سبيل السخرية لقب الأوبرتشينكيين على معذبيهم. وكان ستالين معجبًا بالدور "التقدمي" الذي لعبته الأوبرتشنينا في تدعيم مركزية السلطة وقضائها على أرستقراطية النبلاء الروس ولكنه لام إيفان لإضاعته وقتًا في الصلاة كان يمكن تكريسه لقتل المزيد من النبلاء[١]...

---

١ - Riasanovsky N.V., *A History of Russia*, University Press (Oxford,1948), p. 148;.
Hingley Ronald, *The Russian Secret Police*, Hutchinson (London,1970), pp. 1-4.

البريوبراجنسكي بريكاز والشُّعبَة الثالثة

المرحلة التاليـة للصـراع ضـد الجريمـة السياسـية فـي روسـيا بـدأت عندمـا أسـس "بطرس الأكبر" في نهاية القرن السابع عشر الـ"بريوبراجنسـكي بريكـاز" بسـرية تامـة، لدرجة أن تاريخ تأسيسها بقي مجهولاً. وتعطي هذه المنظمة كسابقتها الأوبرتشنينا نكهة مسبقة، وإن على نطاق أضيق، لمناخ الخوف والوشاية الذي أفرزه الرعـب السـتاليني. ويبرز بين الضحايا الذين قضوا في الزنزانات وتحت التعذيب نبلاء حاولوا الهرب من خدمة الدولة... وحتى سكارى تعسـاء اتهمـوا بتعرضـهم لشـخص القيصـير بـالمزاح[1]. وكان بطرس الأكبر لا يزال ماثلاً في الأذهان في الاتحاد السـوفياتي السـابق وخارجـه على أنه مطور للدولة الروسية وباني عاصمتها الجديدة سان بطرسبورغ التـي عرفـت في العصر السوفياتي باسم لينينغراد، وهي التي ستسمح "بفتح نافذة على أوروبا". لكنـه كان أيضًا رجلاً شديد القسوة، فابنه ووريثه القيصر البكر "ألكسـيس" أعيـد إلـى روسـيا بعد فراره إلى الخارج وعُذّب حتّى الموت...

لم تصمد البريوبراجنسكي بريكـاز طويـلاً بعـد وفـاة بطـرس الأكـبر ولاقـت نفـس مصير الأوبرتشنينا بعد إيفان الرهيب. وعلى الرغم مـن عمليـات الاضطهـاد السياسـي المتقطعة لم تجر أي محاولات لإنشاء شرطة سياسـية خاصـة إلـى أن فشـلت انتفاضـة

---

١ - Pipes Richard, *Russia under the Old Regime* (Harmondsworth, Penguin, 1974)pp. 129 -130.

ثوار كانون الأول أول حركة ثورية روسية. وبعكس أسلافهم لم يحاولوا فقط قلب القيصر بل ووضع نظام سياسي جديد، جمهوري أو ملكي دستوري، يلغي نظام الرق. وفي العام ١٨٢٦ حوّل القيصر نيكولاس الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) الشعبة الثالثة في وزارة العدل القيصرية إلى شرطته السياسية لتجنب أية انتفاضات مستقبلية.

حاولت الشعبة الثالثة بقيادة رئيسها الكونت "بنكندورف" الابتعاد عن الأساليب الوحشية المتبعة في منظمات الشرطة السياسية السابقة. وكان رمزها على غرابته منديلاً تقدمة من القيصر احتُفظ به بحرص وعناية في علبة حلى زجاجية. وبالاستناد إلى إحدى الروايات قال القيصر لبنكندورف:

"هذه هي مهمتكم: بمقدار ما ستمسحون دموعًا بهذا المنديل سيكون إخلاصكم لأهدافي كبيرًا".

وتلائم هذه الاستعارة المبتكرة الصورة الطموحة لينكولاس الذي كان يحرص على تقديم نفسه كزعيم أبوي، وإلى الصورة الأخرى التي اختارتها الشعبة الثالثة لنفسها وهي "الطبيب الأخلاقي" للأمة. لكن الاهتمام الرئيسي لهذه الشعبة انصب على مكافحة ما سيسميه الـ K.G.B في ما بعد "الإيديولوجيات الهدامة" أي بمعنى آخر المعارضة السياسية في جميع أشكالها. وكانت، على غرار الـ K.G.B، مقتنعة بضرورة السيطرة على الرأي العام. وكان بنكندورف يحضر سنويًا "تقريرًا عن الرأي العام" سمي لاحقًا "الوضع الأخلاقي والسياسي في روسيا". ويعلن البيان المحرر عام ١٨٢٧ "أن الرأي العام بالنسبة إلى الحكومة هو بأهمية الخارطة الطوبوغرافية بالنسبة لهيئة أركان الجيش في خضم المعركة".

إلى جانب شبكة واسعة من المخبرين كان رئيس الشعبة الثالثة مسؤولاً عن فيلق من رجال الشرطة مؤلف من عدة آلاف ومكلف بالسهر على أمن الدولة، وكان أفراده

يتميزون بستراتهم الزرقاء وقفازاتهم البيضاء. ولكن على الرغم من هذا كانت الشعبة الثالثة مجرد منظمة صغيرة بالمقارنة مع الـ K.G.B، فقد ازداد عدد أعضاء مجلس قيادتها تدريجيًا من ستة عشر إلى أربعين عند وفاة نيكولاس الأول عام ١٨٥٥. ولم يعرف عنهم وحشية أسلافهم. ويقول "ألكسندر هيرزن" المعارض السياسي الأول من الجيل اللاحق لثوار كانون الأول ـ ديسمبر بأنه "مستعد للتسليم بأن بنكندورف، على رأس هذه الشرطة الرهيبة والموضوعة فوق سلطة القانون مع صلاحية التدخل في كل شيء، كان بإمكانه أن يلحق المزيد من الأذى، لكنه بالمقابل لم يقم بأي شيء إيجابي وحسن، إذ كان يفتقد الإدارة الكافية والحيوية المطلوبة لكل ذلك". وعندما دُعي هيرزن للمثول أمامه عام ١٨٤٠ وجد "أنّ وجهه يعبّر عن الضجر وقسماته تعبة وبشاشته مصطنعة كتلك التي يدعيها غالبًا الأشخاص غير المبالين والخاملين"[1].

خلف بنكندورف في منصبه عند وفاته عام ١٨٤٤ الكونت "ألكسيس أورلوف" شقيق أحد ثوار كانون الأول ـ ديسمبر الشهيرين الجنرال "ميخائيل أورلوف". ويقول باحثون[2]: "يصعب علينا أن نتصور، مئة عام بعد ذلك، أن يسمح ستالين لأحد أقرباء تروتسكي أو بوخارين بالانخراط في مفوضية الشعب في وزارة الداخلية NKVD أو بأن يصبح رئيسًا لها"...

بلغ عدد الأشخاص الذين حكم عليهم بالنفي إلى سيبيريا أو بالأشغال الشاقة في الحقبة الممتدة من عام ١٨٢٣ إلى عام ١٨٦١ الـ ٢٩٠ ألف شخص، خمسة بالمئة

---

١ - Herzen Alexander, *My Past and thoughts,* trad. par Constance Garnet, Ed. Chatto and Windus (Londres,1968) vol. II. pp. 441-442.

٢ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتية في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسران، دار الحقيقة (بيروت، ١٩٩١) ص٢٣.

منهم فقط ارتكبوا جنحًا سياسية، أما العدد الأكبر فكان يتألف من وطنيين بولونديّين رافضين لهيمنة القيصر. إذ إنّ المعارضة السياسية في روسيا كانت مقتصرة على أقلية من المستنيرين داخل الطبقة العليا المتنورة للمجتمع. لكن الجرم السياسي اكتسى طابعًا رسميًا في عهد نيكولاس الأول. إذ إنّ القانون الجزائي الصادر عام ١٨٤٥ كان يدعو إلى تطبيق عقوبات تعسفية في حق "كل شخص يُتهم بكتابة أو طباعة أو نشر مؤلفات أو رسومات تدعو لعدم احترام سلطة القيصر أو تشكك في خصاله الشخصية وفي حكومته". ويعتبر ريتشارد بابيس أن "أهمية هذا القانون بالنسبة للنظام الاستبدادي (التوتاليتاري) تعادل أهمية شرعة حقوق الإنسان بالنسبة للحرية". وإذا استثنينا المرحلة الزمنية الممتدة من فشل الثورة عام ١٩٠٥ حتى استلام البولشفيك السلطة في تشرين الأول ١٩١٧ فإن إعادة النظر في النظام السياسي القائم اعتبرت دائمًا جريمة ما بين عامي ١٨٤٥ و ١٩٨٨. ويقضي القانون الجزائي الصادر عام ١٩٦٠ بفرض عقوبات تصل إلى سبع سنوات سجن قد تعقبها خمس سنوات نفي على كل من يقوم "بتحرك أو دعاية سياسية تهدف إلى هدم أو إضعاف السلطة السوفياتية". لقد أورث النظام القيصري إلى البولشفية نظامًا قانونيًا وثقافة سياسية تحصر كل الحقوق بيد الدولة[١].

وتتباهى الشعبة الثالثة بكون روسيا بقيت "خامدة وراقدة" إبان العام ١٨٤٨ الذي شهد التهاب أوروبا الغربية بالحركات الثورية. بيد أن الغليان الشعبي الذي ساد الأرياف إثر قرار القيصر نيكولاس الثاني (١٨٥٥ ـ ١٨٨١) بإلغاء الرق عام ١٨٦١ أقنع جيلاً من الأرستقراطيين المقربين من الشعب بأن الفلاحين أصبحوا مهيئين أخيرًا للثورة. لكن بعد فشل "حملة الجهاد نحو الشعب" عام ١٨٧٧ التي جاب خلالها البلاد

---

١ - Pipes, Russia, Op. pp. 294-295.

تقدميون مثاليون محاولين من دون جدوى دفع الفلاحين للثورة ضد القيصر، قررت فئة من الفلاحين خائبي الأمل اعتماد الإرهاب...

إعتبر مناصرو الإرهاب أن اغتيال النظام سيؤدي إلى زعزعته وإعطاء الدليل الحسي والمقنع للفلاحين على هشاشته. وقد اجتمعت النواة الأكثر صلابة للإرهابيين ابتداءًا من العام ١٨٧٩ ضمن "جمعية الأرض والحرية" وكانت تضم ٣٠ عضوًا فقط. لكن سنوات ثلاثًا من الاعتداءات بالقنابل والاغتيالات بين عامي ١٨٧٨ و ١٨٨١ أوصلت النظام إلى حافة الذعر وأظهرت مليًا عجز الشعبة الثالثة. ففي العام ١٨٧٨ طُعن الجنرال "مزنتوف" في وضح النهار في أحد شوارع سان بطرسبرغ الرئيسيّة، وكان يشغل منصب رئيس الشرطة والمفتش الأول للشعبة الثالثة. وكان الليوتنانت كولونيل "ماكاروف" بصحبته، وكان قليل الاحتراس لدرجة أنه بالكاد استطاع أن يضرب القاتل بمظلته... وقد هرب الأخير. وبعد عدة اغتيالات أخرى وبعض الاعتداءات ضد القيصر، الذي أصدرت "جمعية الأرض والحرية" الإعدام بحقه، فُتح التحقيق حول عمل الشعبة الثالثة فأظهر عجزًا فاضحًا لدرجة أن القيصر ألكسندر "كان يفتقد الأمن حتى داخل قصره"[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٢١ ـ ٢٤.

شُرطة الدولة، أو دائرَة الشُّرطة ثمَّ الأوخرانا

في آب ـ أغسطس ١٨٨٠ألغيت الشعبة الثالثة بعد أن فقدت كل ثقة واستعيض عنها بدائرة جديدة لشرطة الدولة، ثم أعيدت تسميتها عام ١٨٨٣ دائرة الشرطة وعهدت إليها جميع جوانب أمن الدولة. وكانت الجرائم السياسية من اختصاص دائرة خاصة من أقسام الشرطة ومن شبكة إقليمية من الفصائل الأمنية أنشئت عام ١٨٨١ وفي ما بعد عرف تنظيم الشرطة السياسية تحت اسم الـ"أوخرانا". لكن إعادة التنظيم هذه لم تحل دون اغتيال القيصر "ألكسندر الثاني" عام ١٨٨١ بواسطة قنبلة يدوية من صنع محلي.

كانت الأوخرانا فريدة من نوعها في أوروبا لجهة كثرة صلاحياتها واتساع رقعة نشاطها. كانت بقية أجهزة الشرطة تخضع وتمتثل للقانون، بينما الأوخرانا نفسها كانت تُعتبر تجسيدًا للقانون. ففي ما يختص الجرائم السياسية تستطيع أن تفتش وتسجن وتنفي من دون الرجوع إلى أحد... وقد كتب "بيوتر ستروف"، وهو ماركسي اعتنق الليبرالية، عام ١٩٠٣:

"إن الفرق الأساسي بين روسيا وبقية الدول الأوروبية يكمن في السلطة المطلقة للشرطة السياسية التي على أساسها يستمر النظام القيصري".

ولكن بالرغم من ذلك، فإن روسيا لم تصبح بالمطلق دولة بوليسية. فالبنسبة للمقاييس السوفياتية، تمارس الأوخرانا صلاحياتها الواسعة بقدر من الاعتدال. فحتى

خلال موجات القمع التي سادت سنوات ثمانينـات القرن التاسع عشر، لم ينفذ سوى سبعة عشر حكمًا بالإعدام لجرائم سياسية كالاغتيالات ومحاولات الاغتيال. وكـان من بين الإرهابيين الذين أرسلوا إلى المشنقة ألكسندر أوليـانوف المحكوم عليه بـالإعدام لاشتراكه في الاعتداء الفاشل على شخص القيصر ألكسندر الثالث يوم الأول من آذار ـ مارس ١٨٨٧ المصـادف للذكرى السادسـة لاغتيـال ألكسندر الثـاني. فأقسم أخـوه "فلاديمير" البالغ من العمر يومها سبعة عشر عامًا، والذي عُرف في ما بعد تحـت اسم لينين... بالانتقام له. وأُحصي عام ١٩٠١ نحو ٤١١٣ روسيًا منفيين داخل بلدهم لأجل جرائم سياسية من بينهم مئة وثمانون في الأشغال الشاقة[١].

كان اليهود الجماعة الأكثر عرضة للاضطهاد في الإمبراطوريـة الروسية. وكـان العداء للسامية المنتشـر بين الشـعب وحمـلات التصفيـة بتشـجيع من الدولـة والقوانين بالإضافـة إلـى مختلف أنـواع التمييز فـي عهد ألكسـندر الثـالث (١٨٨١ ــ ١٨٩٤) ونيكولاس الثاني (١٨٩٤ ـ ١٩١٧) دافعًا قويًا للملايين منهم للهجرة وخصوصًا باتجـاه الولايات المتحدة. وكان أركان النظام بدءًا من القيصر وحتى أدنـى عضـو فـي هرميـة الدولة يوجهون الغضب الشـعبي نحـو اليهـود. وتعتـبر عمليـة الطـرد الفجائيـة لحوالـي ثلاثين ألف يهودي من سكان موسكو يـوم عيـد الفصـح عـام ١٨٩١ سـابقة لعمليـات الإبعاد الجماعية التي نفذها ستالين وعلـى نطـاق أوسـع بكثير ضـد الأقليـات العرقيـة. وبالرغم من أن الأوخرانا ليست وراء موقف الدولة المعادي للسـامية إلا أنهـا سـاهمت في ترجمته والتعبير عنه. فـ"كومساروف"، وهـو موظـف فـي الأوخرانـا، حصـل علـى مكافأة رسمية مقدارها عشرة آلاف روبـل لأنـه تسـبب باضطرابـات ضـد اليهـود عن

---

١ ـ Pipes, *Russia,* ch. XI; Hingley, *Secret Police,* ch. IV.

طريق مناشير معادية طبعت في مطابع دائرة الشرطة[1]. وكان "أ.ت. فاسيلييف"، آخر رئيس للأوخرانا، يسعده أن ينعت "بالمفتري الدنيء" وتحول إلى محور مقالات نشرت في الصحف الغربية اتهمت الحكومة القيصرية والأوخرانا بالتواطؤ على تصفية اليهود. ويدّعي أ. ت. فاسيلييف في مذكراته أن "أساس المرض" يكمن في "عجز اليهود المؤسف عن ممارسة أي عمل إنتاجي وسليم"[2]. ويقول: "إضطرت الحكومة من أجل حماية الشعب الروسي وخصوصًا فئة الفلاحين منه، إلى اتخاذ إجراءات معادية ضد اليهود. لقد كان هنالك نوع من الاضطهاد ضد اليهود في روسيا ولكنه للأسف لم يكن فعالاً كفاية. لقد حاولت الحكومة جاهدة أن تحمي الفلاحين من استغلال اليهود البشع لهم ولكنها لم تنجح كثيرًا".

وتفسر معاداة الدولة للسامية كيف أن الماركسية انتشرت بين اليهود وبسرعة أكبر من انتشارها بين الأقليات العرقية الأخرى للأمبراطورية الروسية. فأول حزب ماركسي على أساس شعبي كان حزب البوند اليهودي الذي أنشئ عام ١٨٩٧. وكان يوجد الكثير من اليهود بين مؤسسي الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي لعمال روسيا وهو التجمع الماركسي الأهم عام ١٨٩٨، ومؤسسي الحزب الاشتراكي الثوري الذي حل محل الشعبيين عام ١٩٠٢. ولقد ساهم الوجود المتنامي لليهود في الحركات الثورية في تغذية الشعور المعادي للسامية عند الأوخرانا[3].

---

١ ـ Hingley, *Secret Police*, pp. 92-93.

٢ ـ Vassiliev A T., *The Ochrana*, Harrap (Londres,1930) ch. 6.

٣ ـ Rogger Hans, *Russia in the Age of Modernisation and Revolution 1881-1917*, Longman (Londres,1983), pp. 199-206; Hingley, *Secret Police*, pp. 92-94.

وبالرغم من أن العديد من البولشفيك القدامى كانوا من أصل يهودي إلا أن العداء للسامية سيظهر من جديد في عهد ستالين ولكن بشكل مستتر. ويقول باحثون إنّه إذا كان الـ K.G.B لم يقم بحملات لتصفية اليهود على غرار الأوخرانا إلا أنه بقي الجناح الأكثر عدائية للسامية في المؤسسة السياسية السوفياتية. فإذا كانت الدوائر القيادية في غالبيتها مغلقة أمام اليهود فإن وزارة الخارجية واللجنة المركزية كانتا تقبلان عادة ترشيح أشخاص من أصل "نصف يهودي" أما الـ K.G.B فكان يرفض ذلك بشدة. وخلف الهواجس المتجددة دائمًا من المؤامرات الصهيونية والإيديولوجيات الهدامة نجد بقايا الأوهام المعادية للسامية التي عممتها الأوخرانا. ففي كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٥ أعلن "ل.ب. زامويسكي"، المدير المساعد لإدارة الاستخبارات التابعة للمديرية العامة الأولى P.D.G، وهو رجل مشهور بذكائه وآرائه القيمة، وبكل جدية في ممثلية الـ K.G.B في لندن وبحضور "غورديفسكي" أن الماسونيين، الذين يعتبر أن طقوسهم من أصل يهودي، يلعبون دورًا في المؤامرة الصهيونية الكبرى.

لا تشير الكتب والمحاضرات في الـ K.G.B بالطبع إلى أي نوع من الاستمرارية بين نظرتها لمعالجة موضوع المجرمين السياسيين والمنشقين اليهود وتلك السائدة أيام الأوخرانا، بيد أن الأولوية لعمل الأوخرانا في الخارج كانت مراقبة المهاجرين الروس. واليوم يقوم بالمهمة نفسها الضباط المسؤولون عن التجسس المضاد والأمن داخل كل ممثلية للـ K.G.B (ضبّاط صف الـ K.R).

بدأت هجرة المنشقين السياسيين مع نفي "هيرزن" عام ١٨٤٧ وتكثفت مع جيل "الشعبيّين" في سنوات سبعينات القرن التاسع عشر. وقدر عدد المهاجرين الثوريين في ظل نيكولاس الثاني بحوالي الخمسة آلاف. وكانوا

يحاولون شتى الوسائل لقلب النظام بدءًا بالقنابل وانتهاء بالأبحاث في صالات القراءة للمتحف البريطاني[1].

كانت الوكالة الخارجية للأوخرانا مسؤولة عن مراقبة المهاجرين. وكان مركزها الرئيسي كائنًا في السفارة الروسية في باريس أهم محور لتجمع المهاجرين. وبالاستناد إلى تقارير الأمن الفرنسي، بدأت الوكالة الخارجية عملها في باريس بشكل محدود عام ١٨٨٢ ثم أصبحت أكثر فعالية عام ١٨٨٤ تحت إدارة "بيوتر راتشكوفسكي" الرهيب. وكان هذا الأخير موظفًا صغيرًا أيام المد الشعبي عندما أوقفته الشعبة الثالثة عام ١٨٧٩ بسبب ميوله الثورية، وأعطي الخيار بين النفي إلى سيبيريا أو العمل في الشرطة السياسية. فاختار راتشكوفسكي الحل الثاني وأصبح ضابط الاستخبارات الأكثر نفوذًا في الخارج في تاريخ النظام القيصري. وعلى العكس من مقيمي الـ K.G.B في باريس فقد كان راتشكوفسكي من نجوم المجتمع المخملي الباريسي وأصاب ثورة كبيرة بفضل مضاربته في البورصة، وكان يستقبل الناس بكل أبهة في داره في "سان ـ كلو"، وكان العديد من مدراء الأمن والوزراء والرؤساء مقربين إليه.

وقد كتب عنه صحافي في جريدة الـ"إيكو دو باري" عام ١٩٠١:

"إذا التقيتم به صدفة بين الناس فلن يخامركم الشك مطلقًا بأن هذا الرجل يمارس مهامًا مخيفة... إذ يبدو عليه مظهر الإنسان البشوش المرح المحب للحياة... نقطة ضعفه الظاهرة هي حبه للنساء الباريسيات، لكن لا يوجد رجل أبرع منه في العواصم الأوروبية العشر"[2].

---

١ - Hingley, *Secret Police*, p. 79.

٢ - Cohn Norman, *Warrant for Genocide*, Eyre and Spottisswoode (Londres,1967) pp. 67 -79; Hingley, *Secret Police*, pp. 80-81.

كان راتشكوفسكي وخلفاؤه على رأس الوكالة الخارجية يتمتعون بنفس وضعية المدراء ونوابهم في الأوخرانا في سان بطرسبرغ وبحرية نشاط واسعة. وكانت تمارس الوكالة على غرار الأوخرانا داخل روسيا مراقبة خارجية عن طريق رجال تحري بلباس مدني، وبوابين وغيرهم، واختراق داخلي بواسطة مخبرين كانوا أساسًا ثوريين، لجماعات المهاجرين الروس. ولم يكن الأمن الفرنسي ليعترض على عمليات الوكالة على الأراضي الفرنسية بل كان معجبًا بطريقة تمدد جهاز استخباراتها. وعشية الحرب العالمية الأولى ختم تقرير للأمن الفرنسي قائلاً: "لا يوجد أي سبب موضوعي لكي ننكر فائدة عمل الشرطة السياسية الروسية في باريس لمراقبة نشاطات الثوريين الروس أكان عملها هذا رسميًا أم لا".

وكانت الوكالة الخارجية تبالغ بأهمية الخطر الثوري وذلك لكي تأمن جانب السلطات الفرنسية. فقد قدر الأمن الفرنسي عام ١٩١٤ عدد الثوار الروس في باريس بأكثر من أربعين ألفًا، وهذا الرقم يفوق عشرة أضعاف عددهم الحقيقي في أوروبا الغربية كلها.

ساهمت موجة الاغتيالات التي ارتكبها الفوضويون في ازدياد رغبة أجهزة الشرطة في أوروبا للتعاون مع الوكالة الخارجية. ومن بين أهم ضحايا هذه الاغتيالات كان الرئيس "سادي كارنو" في فرنسا (١٨٩٤)، ورئيس الحكومة الإسبانية "كانوفاس دل كاستيللو" (١٨٩٧)، والإمبراطورة "إليزابيت" النمساوية (١٨٩٨)، وملك إيطاليا "أمبرتو" (١٩٠٠)، ورئيس الولايات المتحدة "ماكينلي" (١٩٠١)، وعدد من الشخصيات الروسية الرفيعة مثل: "بوغوليبوف" وزير التربية (١٩٠١)، و"سيبياغين" وزير الداخلية وبالتالي المسؤول عن الأوخرانا (١٩٠٢) ، و"بليفي" خليفة سيبياغين (١٩٠٤)، والدوق الأعظم "سرج الكسندروفيتش" الحاكم العام لموسكو (١٩٠٦)،

و"ستوليبين" رئيس الوزراء ووزير الداخلية (١٩١١). وعقد مؤتمر دولي لوكالات الأمن في روما عام ١٨٩٨ واتخذ قرارًا يدعو "السلطات المركزية المسؤولة، كل في بلدها عن مراقبة الفوضويين، إلى التشاور في ما بينها وتبادل كافة المعلومات الضرورية".

كانت الوكالة الخارجية تدير، انطلاقًا من باريس، مجموعات صغيرة من العملاء لمراقبة المهاجرين الروس في بريطانيا والمانيا وإيطاليا بدءًا من العام ١٩١٢.

وفي سويسرا التي ازداد عدد المهاجرين الروس إليها جندت الوكالة ثلاثة شرطيين سويسريين كانوا يزودونها بمعلومات مستقاة مباشرة من ملفات الشرطة بالإضافة إلى كل ما يرد إلى السلطات السويسرية حول الموضوع.

وكانت مراقبة المهاجرين في بلجيكا واسكندنافيا تتم بواسطة أفراد من الشرطة المحلية وعناصر الوكالة المرسلين من باريس في مهمات خاصة.

ولكن في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى انهالت على الوكالة الخارجية احتجاجات نابعة من نواب اشتراكيين وراديكاليين ضد نشاطاتها على الأراضي الفرنسية. فارتأت السفارة الروسية عام ١٩١٣ أن تعلن إغلاق الوكالة وأنيطت خدماتها رسميًا بوكالة خاصة تدعى "مكتب بينت وسامبان"، وكان مديره "هنري بينت" عميلاً فرنسيًا قديمًا خدم في الوكالة الخارجية. أي أن هذه الأخيرة استمرت بنشاطها ولكن بسرية أكثر من الماضي. لكن إغلاقها الرسمي وإن كان صوريًا، حد من التنسيق الكبير الذي كانت تقيمه مع الأمن الفرنسي مما دفع هذا الأخير عام ١٩١٤ للتعبير عن أسفه لكون "الحكومة الفرنسية تفتقد المعلومات الدقيقة التي كانت تحصل عليها سابقًا بالنسبة للنشاطات الخطيرة لبعض المهاجرين الأجانب في فرنسا".

لم يكن عمل الوكالة الخارجية يقتصر على جمع المعلومات بل كانت تبادر أيضًا إلى اتخاذ "إجراءات نشطة"، حسب التعبير المستعمل لاحقًا لدى الـ K.G.B، تهدف إلى التأثير على الحكومات الأجنبية والرأي العام بالإضافة إلى "عمليات خاصة" تستدعي اللجوء لمختلف أساليب العنف. ففي العام ١٨٨٦ قام عملاء الوكالة بتفجير مطبعة جريدة "إرادة الشعب" بواسطة قنبلة ونجحوا بالإيحاء بأن الفاعلين ثوريون ناقمون.

وفي العام ١٨٩٠ "كشف" راتشكوفسكي أن بعض المهاجرين الروس في باريس يقومون بصنع القنابل. وعلى أثر ذلك جرت محاكمة مثيرة في باريس وصدرت بحق المتورطين أحكام بالسجن، غيابيًا بحق المدعو لانديزن لوجوده في الخارج، وأخرى بالنفي. وبعد ذلك أوقفت الأوخرانا في روسيا ثلاثة وستين ثوريًا متهمين بالتواطؤ مع متآمري باريس. وفي الحقيقة كانت المؤامرة من إعداد راتشكوفسكي فأوحى بها إلى "لانديزن"، العميل المحرض للوكالة الخارجية، كما أنه مول إنتاج القنابل بفضل أموال من الوكالة.

تمكن راتشكوفسكي خلال ثمانية عشر عامًا قضاها في باريس (من ١٨٨٤ إلى ١٩٠٢) من إخفاء اشتراكه في هذه القضية بالإضافة إلى قضايا أخرى من نفس النوع. لكن هذا الحظ لم يحالف خليفته "راتاييف". فقد استدعي إلى روسيا بعد أن اكتشف الأمن الفرنسي اشتراكه في الاعتداء الفاشل على الأمير "تروبتزكوي" ووقوفه وراء إلقاء قنبلة على مظاهرة فرنسية قامت احتجاجًا على قمع القيصر لثورة ١٩٠٥ مما تسبب بجرح اثنين من الحرس الجمهوري. إلا أنه في العام ١٩٠٩ كشف صحافي ثوري يدعى "فلاديمير بورتسيف" الدور الذي لعبه راتشكوفسكي في قضية القنابل عام ١٨٩٠. كما ادعى أيضًا بأن العميل المحرض لانديزن، الذي هرب عام ١٨٩٠، لم يكن سوى "هاريتنغ" المسؤول عن الوكالة الخارجية في باريس في ذلك الوقت.

فاستنتج الأمن الفرنسي أنّ الفرار المستعجل واختفاء هاريتنغ يؤكدان ما ذهب إليه بورتسيف. ومما يثير الاستغراب أن الأمن الفرنسي لم يكن يهتم كثيرًا لهكذا أحداث. لكن العجب يزول عندما ندرك أن المعلومات القيمة جدًا المقدمة من قبل الوكالة كافية لكي يغض الطرف.

وكان راتشكوفسكي بارعًا بالتزوير كبراعته في استخدام العملاء المحرضين. فهو على الأرجح مؤلف الكتاب الشهير "بروتوكولات حكماء صهيون" الذي يدعو إلى الاعتقاد بوجود مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم. إلا أن هذا الكتاب كان تأثيره محدودًا قبل الحرب العالمية الأولى. فنيكولاس الثاني اعتقد في البداية أن الكتاب يقدم تفسيرًا لثورة ١٩٠٥ ولكنه عندما اقتنع بعدم أصالته احتج لهذا "التلويث لقضية نبيلة هي العداء للسامية". لكن في فترة ما بين الحربين العالميتين ظهر الكتاب من جديد وكان من أهم النصوص المعادية للسامية في الدعاية النازية والفاشية. فأصبح من أكثر الكتب خطورة في القرن العشرين.

لم يكن راتشكوفسكي ليكتفي بعمليات التجسس "والإجراءات النشطة" بل حاول أيضًا أن يؤثر في مسار السياسة الخارجية الروسية. فبعد وصوله إلى باريس عام ١٨٨٤ عمل بجدية لإقامة حلف مع فرنسا المعزولة دبلوماسيًا منذ هزيمتها عام ١٨٧٠. وعمل باستمرار كوسيط سري في المفاوضات لإقامة هذا الحلف بين عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٤. ومن أجل تعديله عام ١٨٩٩. وأقام علاقات وثيقة مع "تيوفيل دلكاسيه" الذي كان بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٥ وزيرًا للخارجية، أي أكثر من شغل هذا المنصب طوال السنوات الستين للجمهورية الثالثة. فعندما رتب زيارته الخاصة لسان بطرسبرغ من أجل تعديل اتفاقية الحلف عام ١٨٩٩ وزيارة القيصر للرئيس لوبي عام ١٩٠١ ثم زيارة هذا الأخير إلى روسيا في السنة التالية، كان دلكاسيه ينسق

مباشرة مع راتشكوفسكي دون المرور بالسفير الفرنسي الماركيز "دو مونتيبللو". وقد أوضح وزير الخارجية الروسي الكونت "مورايوف" الأمر للماركيز المسكين بهذه العبارات: "لدينا كامل الثقة براتشكوفسكي ويبدو أن الحكومة الفرنسية تشاطرنا الرأي".

لكن راتشكوفسكي استدعي في النهاية من باريس عام ١٩٠٢. ولا علاقة لسقوطه بتدخله المتنامي على خط الدبلوماسية الفرنسية - الروسية، بل هو نتيجة للإهانة التي ألحقها بزوجة القيصر عندما أعلن لها أن "الدكتور" الفرنسي الذي يعالجها محتال ولا يتمتع بأي كفاءة[١]..

أسهمت الأوخرانا إسهامًا أساسيًا في السياسة الخارجية القيصرية عبر دورها الرائد في حل الرموز وفكها عن طريق اعتراضها لرسائل الحكومات الأجنبية. كان لدى روسيا في القرن الثامن عشر، مثل أغلب القوى الكبرى قبل مرحلة الثورة الفرنسية، مكاتب سوداء أو "غرف سوداء" تسمح باعتراض المراسلات الخاصة والدبلوماسية سريًا. وقد أعيق نسبيًا تطور هذه الغرف في أوروبا الغربية بفضل الاحتجاجات الشعبية والنيابية. ففي بريطانيا مثلاً ألغيت دائرة الشيفرة عام ١٨٤٤ بسبب الفضيحة التي أثيرت في مجلس العموم بعد فتح رسائل المناضل الوطني الإيطالي في المنفى "غوسيب مازيني"، وبقيت ملغاة إلى أن حلت الحرب العالمية الأولى[٢]. أما في روسيا حيث يسود الحكم المطلق فلا يستطيع أي احتجاج نيابي أن يعيق تطور الشيفرة. وكان لدى الأوخرانا غرف سوداء في مراكز بريد كل من سان

---

١ - Andrew Christopher, *Théophile Delcassé and the Making of the Entente Cordiale,* Macmillan (Londres,1968) pp. 130-131, 239, 241

٢ - Andrew Christopher, *Secret Service: The Making of the British Intelligence Community,* Heinemann (Londres,1985) pp. 3, 85sq.

بطرسبرغ، موسكو، فرصوفيا، أوديسا، كييف، خاركوف، ريغا، فيلنا، تومسك وتيفليس. وكان فاسيلييف، آخر رئيس للأوخرانا، يلح بكل عفة على أن الغرف السوداء تعمل لمحاربة النشاطات الهدامة والمجرمة: "إن الرقابة لم تتعرض يومًا للمواطنين الشرفاء لأن الشؤون الشخصية ليست من اختصاصها مبدئيًا"[١]. وقد كان فتح الرسائل مصدرًا للمعلومات وللنميمة أيضًا. فعن طريق حل رموز مراسلات متروبوليت أركوتسك افتضح أمر علاقته مع رئيسة دير[٢]...

وكان محلل الرموز الأهم في الأوخرانا "زيبين إيفان" يتصف، بالعبقرية. فبالاستناد إلى "ب. زافارزين" رئيس الأوخرانا في موسكو "كان زيبين مهووسًا في عمله، يحل من أول نظرة الرموز السهلة، أما الأكثر تعقيدًا فكانت تغرقه في شبه حالة هذيان لا يخرج منها إلا بعد عثوره على الحل".

كان محللو الأوخرانا في البداية يعطون الأولوية للمراسلات بالشيفرة الخاصة بالثوار أكان في داخل روسيا أم خارجها. ثم توسع اهتمام الأوخرانا ليشمل البرقيات الدبلوماسية المرسلة والمتلقاة من قبل السفارات في سان بطرسبرغ. وكانت عملية اعتراض البرقيات منذ العام ١٧٤٠ تقريبًا، مصدرًا غير منتظم للمعلومات. ففي العام ١٨٠٠ كتب وزير الخارجية "ن. ب. بانين" إلى سفيره في برلين: "تمتلك الشيفرة الخاصة لمراسلات ملك بروسيا مع القائم بأعماله هنا، فإذا كنت تشك بصدق نوايا هوغويتز، وزير الخارجية البروسي، ما عليك إلا أن تجد عذرًا يدفعه لإرسال برقية

---

١ - Vassiliev, *Ochrana*, ch. 5.

٢ - Hingley, *Secret Police*, p. 114.

حول المسألة التي تهمنا. ما إن تحل رموز برقيته أو برقية الملك أعلمك بمحتواها فورًا"[1].

في بداية القرن التاسع عشر ازداد الاعتماد على ناقلي البريد بدل المحطات من أجل تأمين الاتصالات الدبلوماسية. وقد أدى ذلك إلى التقلص التدريجي لعدد البرقيات المعترضة من قبل المكاتب السوداء. إلا أن تطور التلغراف الكهربائي في نهاية القرن سهل كثيرًا عملية إرسال البرقيات الدبلوماسية وكذلك اعتراضها. وفي فرنسا، عند نهاية القرن التاسع عشر، كان يجري فك رموز الرسائل الدبلوماسية في المكاتب السوداء لدى وزارة الخارجية والأمن. كذلك كانت الأوخرانا تتقاسم عمليات فك رموز الرسائل الدبلوماسية مع "المكتب الأسود" في وزارة الخارجية. وقد أعيد تنظيم هذا الأخير ورفع مستواه تحت إدارة ألكسندر سافينسكي بين عامي ١٩٠١ و ١٩١٠. ولكن بالرغم من ذلك بقيت الأوخرانا الشريك الأساسي لوزارة الخارجية في مسائل فك الرموز. ولم يكن هذا النشاط يعتمد فقط على مهارة مفككي الرموز بل أيضًا على المساعدة التي تقدمها نشاطات التجسس. وكانت الأوخرانا السبّاقة بين أجهزة الاستخبارات الحديثة في تركيزها على سرقة الرموز السرية للسفارات وترجمتها الواضحة للبرقيات الدبلوماسية ترجمة تضاهي النص الأصلي المرموز. وسار الـ K.G.B على خطاها في ما بعد.

وقد اكتشف السير شارل هاردينج السفير البريطاني في سان ـ بطرسبرغ بين عامي ١٩٠٤ و١٩٠٦ أن أحد خدم السفارة عرض عليه مبلغ ألف جنيه استرليني لقاء قيامه بسرقة أحد الرموز السرية الدبلوماسية. وفي حزيران ـ يونيو ١٩٠٤ أطلع

---

١ - Kahn David, *The Codebreakers*, Macmillan (New York, 1967) pp. 614-621.

السفير وزير الخارجية على "مفاجأة مزعجة" حصلت معه عندما أسرّ له أحد رجال السياسة الروس المعروفين: "لا أرى أي مانع في نقلك كتابة لحديثنا لكن لا تستعمل التلغراف لذلك لأن جميع برقياتكم تخضع للتحليل!". واكتشف هاردينج بعد ثلاثة أشهر أن راتشكوفسكي أنشأ دائرة سرية في وزارة الداخلية، المسؤولة عن الأوخرانا، "بهدف الوصول إلى محفوظات البعثات الأجنبية في سان بطرسبرغ"، فحاولت السفارة البريطانية تعزيز إجراءاتها الأمنية لكن من دون جدوى. وفي شباط ـ فبراير ١٩٠٦ أعلن "سيسيل سبرينغ" رايس سكرتير السفارة "منذ فترة اختفت وثائق من مكاتبي... الشرطة تدفع المال للحاجب ولبعض الأشخاص المرتبطين بالسفارة لكي يزودوها بالوثائق والأوراق". وقال إنّ لديه الدليل على "أن العملية ضد السفارة البريطانية قد أعدّها "كوميساروف"، وهو عضو في الأوخرانا كان قد رقي حديثًا لنجاحاته في الدعاية المعادية للسامية. وتنفيذًا لتعليمات هذا الأخير كان مبعوثون من الشرطة يمضون سهرتهم أمام السفارة منتظرين من يسلمهم الوثائق المسروقة". ولكن بالرغم من وضع خزانة حديدية جديدة وأقفال على الغرف الحاوية وثائق والتشديد على الدبلوماسيين بالحفاظ على مفاتيح السفارة فإن السرقات استمرت. واكتشف سبرينغ رايس بعد شهرين أنه "تم الوصول إلى محفوظات السفارة ونقلت إلى العميل كوميساروف حيث تم تصويرها". وقد كان الجاني المفترض خادمًا مرتشيًا من السفارة أخذ بصمات للأقفال الجديدة على الشمع وأمنت له الأوخرانا على أثر ذلك نسخة ثانية من المفاتيح.

وأعلنت السفارات الأميركية والسويدية والبلجيكية أنها تعرضت لنفس الحوادث.

منذ بداية القرن وربما من قبل ذلك التاريخ كانت المعلومات الدبلوماسية المأخوذة بواسطة عملية حل الشيفرة وسرقة وثائق السفارات تؤثر كثيرًا على السياسة الخارجية

للقيصر. فمنذ سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠١ كانت روسيا تكثف جهودها من أجل إقناع ألمانيا بإبرام اتفاق سري، حول مناطق نفوذهما في الإمبراطورية العثمانية، يعترف بطموحات روسيا القديمة في البوسفور. لكنها تخلت عن هذا المشروع في نهاية عام ١٩٠١ بعد أن أعلم الكونت "لامسدورف" وزير الخارجية سفيره في برلين أنه وبعد فك رموز البرقيات الألمانية تبين أن حكومة هذا البلد ليست جادة فعلاً في إبرام الاتفاق. وكانت روسيا طوال عهد نيكولاس الثاني أهم قوة أوروبية في مجال حل الرموز الدبلوماسية. ولم يكن لدى بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة ومعظم دول الصف الثاني وكالات لفك الرموز. إلا أن الوضع تغير مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. فقد كان حل الشيفرة في النمسا مثلاً يقتصر على الاتصالات العسكرية. أما المنافس الجدي الوحيد لروسيا في هذا المجال فكانت حليفتها فرنسا. وخلال السنوات العشرين التي سبقت الحرب العالمية الأولى سجلت المكاتب السوداء في الـ"كي دورساي" والأمن العام نجاحًا كبيرًا في تحليل الرموز والشيفرة الخاصة بمعظم القوى العظمى. وفي الوقت الذي تمكنت فيه روسيا من فك بعض رموز الدبلوماسية الفرنسية والشيفرة فإن هذا النجاح لم يحالف فرنسا. إلا أنها تمكنت من فك رموز وشيفرة الوكالة الخارجية.

خلال صيف ١٩٠٥ ومع تزامن انتهاء الحرب الروسية ـ اليابانية والأزمة الفرنسية الالمانية في المغرب حلّت مرحلة قصيرة من التعاون بين فرنسا وروسيا في مجال قراءة الشيفرة. وفي شهر حزيران نقل السفير الروسي بأمر من حكومته إلى موريس روفيه رئيس الوزراء، نسخة من برقية المانية مفككة الرموز تتعلق بالأزمة المغربية. أعطى روفيه أهمية كبيرة للبرقية وأمر بالمقابل الأمن العام أن يرسل إلى الوكالة الخارجية كل المراسلات الدبلوماسية مع اليابان التي يتم تفكيك رموزها في

"المكتب الأسود" للأمن. وكانت البرقيات التي يرسلها مدير الوكالة الخارجية مانويلوف (كان ينقل البرقيات اليابانية المفككة) تخضع هي نفسها للتفكيك في المكتب الأسـود فـي الكي دورساي. ولكن بما أن هذا الأخير لم يكن على علم بالأمر الذي أعطاه روفيه فقد استنتج وجود ثغرة خطيرة في سرية حل الشيفرة. وأمر مفككي الرموز في الكي دورساي بوقف تعاونهم مع زملائهم في الأمن. وعلى أثر سوء التفاهم المضحك الذي تسبب به التعاون الفرنسي الروسي القصير في مجال الشيفرة بقيت المكاتب السوداء في الكي دوروسيه والأمن تعمل لستة أشهر بشكل منفصل وتقوم أحيانًا بتحليل نفس البرقيات من دون أن تتبادل النتائج. وعلى ما يبدو لم يتكرر التعاون الفرنسي الروسي في هذا المجال في ما بعد.

وكان للفوضى المتقطعة التي أصابت عمل الشيفرة الفرنسية أثر بالغ السلبية على نشاط مفككي الرموز الروس. فقد استمرت روسيا حتى عشية الحرب العالمية الأولى تفكك رموز قسم كبير - وإن كان يصعب تحديد حجمه - من البريد الدبلوماسي لكافة الدول الكبرى، إلا واحدة. وهذا الاستثناء كان ألمانيا وذلك بدءًا من العام ١٩١٢. فالتغيرات التي لحقت بنظام الرموز والشيفرة الألماني قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بسنتين أعجزت مفككي الرموز الروس. وكانت هذه التغييرات نتيجة مباشرة لسوء تصرف الفرنسيين خلال الأزمة الفرنسية الألمانية في أغادير عام ١٩١١. ففي تلك المناسبة اكتشف وزير الخارجية الفرنسي "غوستاف دوسلف" أنه بالاستناد إلى البرقيات الألمانية المفككة في مكتبه الأسود فإن رئيس الوزراء "جوزيف كايو" قد تفاوض مع ألمانيا من دون علمه. لذا نظم دو سلف والمقربون منه حملة تتهم كايو بالخيانة. فغضب هذا الأخير واتخذ قرارًا مذهلاً استدعى فيه القائم بالأعمال الألماني وطلب رؤية النص الأصلي للبرقيات المتعلقة به لمقارنتها بالترجمة المحلولة الرموز.

واعترف كايو لاحقًا لرئيس الجمهورية "لقد أخطأت ولكن كان عليّ أن أدافع عن نفسي".

وكما كان متوقعًا قام الألمان بتغيير شيفرتهم فتسبب ذلك بمشكلة مستعصية للفرنسيين وحلفائهم الروس.

وكانت عملية تجميع وتحليل المعلومات الخارجية في روسيا تشكو من المنافسة بين الدوائر المختلفة كما يحصل في فرنسا. كان التجسس الحربي يتبع الفصيلة الأولى في هيئة الأركان العامة وقد أعطى نتائج هزيلة في ما يختص بالجيش الألماني قبل عام ١٩١٤ إلا أنه نجح نجاحًا باهرًا بالنسبة للعدو الآخر لروسيا أي الجيش النمساوي. وكان الكولونيل "ألفرد ريدل" العميل النمساوي السري المرموق، المصدر الأساسي للمعلومات في أجهزة الجيش السرية، ويمكن اعتباره ضابط الاستخبارات الأبرز لجيل ما قبل الحرب العالمية الأولى. فخلال شتاء ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ لاحظ الكولونيل باتيوشين المسؤول عن الأجهزة السرية للجيش الروسي في فرصوفيا أن ريدل لوطي ويمارس شذوذه بتهتك من دون علم أصدقائه ورؤسائه. فلجأ إلى الابتزاز والرشوة وجنده لصالح الأجهزة الروسية. واستطاع ريدل بفضل الأموال الروسية شراء سيارات عديدة أهدى واحدة منها إلى ضابط شاب من عشاقه المفضلين كما كان يدفع له شهريًا مبلغ ستمائة كورون. وخلال السنوات العشر التي سبقت انتحاره عام ١٩١٣، بعد انكشاف عمالته للروس، قدم ريدل معلومات كثيرة من أبرزها خطط التعبئة النمساوية ضد روسيا والصرب.

كان دبلوماسيو وقناصل القيصر يقومون أيضًا بأعمال تجسس، كجمع معلومات ذات طابع حربي. لكن التنسيق الرديء بين الأجهزة السرية العسكرية والدبلوماسية كان انعكاسًا لانعدام العلاقات بين وزارتي الحربية والخارجية. وكان الجيش برغم

اهتمامه بـ "التجسس الإنساني" عاجزًا عن إدراك أهمية الشيفرة. ويعود الفضل في أول انتصار كبير حققه الجيش الألماني على الجبهة الشرقية في تاننبرغ عام ١٩١٤ إلى عدم وعي الجيش الروسي الذي كان يبعث رسائله من دون ترميز.

ولم تكن الأوخرانا تحتكر وحدها عملية جمع المعلومات عن الخارج وممارسة "الإجراءات النشطة". فقد كان الصحافيون الأجانب من أكبر مروجي النفوذ الروسي في الخارج. وكانت وزارة المالية تستأجر خدماتهم لكي يدعموا طلبات القروض الضخمة من الخارج الضرورية للنظام القيصري والاقتصاد الروسي، وليُطمئنوا المستثمرين على صحة استثماراتهم. وقد كان هذا "التمويل" لصحافة الدول الصديقة أمرًا مألوفًا في معظم أرجاء أوروبا قبل العام ١٩١٤. وكان تقرير نيابي فرنسي محرر عام ١٩١٣ انتقد بعض جوانب هذا النشاط التجسسي لكنه اعترف في الوقت نفسه بالفائدة الأكيدة لهذه المساعدات المالية. وكانت المساعدات الروسية تبلغ المستوى الأعلى في أوروبا. وبما أن فرنسا كانت، من دون منازع، المستثمر الأول في روسيا قبل العام ١٩١٤ فإن صحافتها كانت الهدف الأول لوزارة المالية. وكان ممثل هذه الأخيرة في باريس "أرثر رافالوفيتش" يرشو كل الصحف الكبرى باستثناء واحدة وهي "الأومانيتيه" الاشتراكية. ومنذ آذار ١٩٠٥ تزعزعت ثقة المستثمرين الفرنسيين بقوة بسبب اشتعال الثورة في روسيا وبسبب هزائمها في الحرب مع اليابان، مما اضطر رافالوفيتش وبموازرة وزير الخارجية دلكاسيه إلى توزيع مساعدات وصلت إلى المئتي ألف فرنك شهريًا. ومثل كل قضايا الرشوة والفساد فإنه يصعب التحديد الدقيق للمردود الناتج عن هكذا أساليب. ولم يستطع سخاء رافولوفيتش في شهر آذار - مارس أن يمنع البنوك الفرنسية من وقف المفاوضات في شأن قرض جديد، إلا أن ٢٥٪ من الاستثمارات الفرنسية في الخارج عام ١٩١٤ كانت تصب في روسيا وكانت في أربعة

أخماسها على شكل قروض للدولة. ولولا مساعدة الصحافة لكانت تكررت مرارًا أزمات الثقة، كتلك التي أعاقت منح القرض في آذار - مارس ١٩٠٥[1].

بالرغم من افتقاد نظام الاستعلام الخارجي لروسيا القيصرية إلى التركيز والتنسيق، فإنه كان رائدًا مهمًا للحقبة السوفياتية. وبتكثيفه "الإجراءات النشطة" وعمليات جمع المعلومات احتل هذا النظام المرتبة الأولى عالميًا في قراءة الشيفرة وتسخير التجسس لعمل مفككي الرموز. وهو كان قد وجد في ألفرد ريدل المثال لعميل الاختراق - أو العميل المزدوج "الخلد" أو "العامل في الظلام" - الذي سيصبح الورقة الرابحة الأهم للتجسس السوفياتي في الخارج في ثلاثينات القرن العشرين. وشهدت الحقبة القيصرية سابقة أخرى أبلغ من ظاهرة ريدل ساهمت في إقناع التجسس السوفياتي بأهمية عملاء الاختراق. فبعد ثورة شباط - فبراير اكتشف البولشفيك في سجلات الأوخرانا أن هذه الأخيرة اخترقتهم بنجاح أكبر من اختراقها لباقي المجموعات الثورية وخصوصًا بعد الانشقاق الذي حصل للحزب الاشتراكي الديمقراطي لعمال روسيا بين بولشفيك ومانشفيك. وقد كانت الأوخرانا تمتلك معلومات بالغة الدقة حول تنظيم البولشفيك ونشاطاتهم لدرجة أنه بالرغم من إتلاف العديد من الوثائق غداة ثورة ١٩١٧ فإنها تظل أفضل مصدر للمعلومات حول بدايات البلشفية، ولا بد من أن بعض ملفات الأوخرانا قد أحرجت ستالين الذي تظاهر عند وصوله إلى السلطة بالإخلاص الشديد للينين. إلا أنه في الحقيقة كان ينتقده منذ العام ١٩٠٩ "لتصوره الخاطئ للتنظيم السياسي" ولمغالطات نظرية متعددة. وكشفت رسالة

---

١ - Raffalovitch A.G., *L'Abominable Vénalité de la Presse* (Paris, 1921); Firault René, Emprunts Russes et Investissements Français en Russie 1887-1914(Paris, 1913)

اعترضتها الوكالة الخارجية في باريس في كانون الأول ١٩١٠ الوقت المحدد الذي قرر فيه ستالين التقرب نهائيًا من لينين. وكان قد كتب فيها "إن خط لينين هو الوحيد الصحيح" ويصفه "بالرجل الداهية"[١].

وبالرغم مما أشيع أحيانًا فإنه من المستبعد أن يكون ستالين قد عمل لصالح الأوخرانا، لكنه من المحتمل جدًا أن تكون الأخيرة قد حاولت تجنيده. ومن جهة أخرى كان لديها عملاء في الحزب البولشفي. فقد كان أربعة من الأعضاء الخمسة للجنة الحزب في سان بطرسبرغ عملاء لها[٢]. وكان هنالك جماعات أخرى معادية للقيصرية مخترقة على شتى المستويات. فقد كان من بين أعضاء الحزب الاشتراكي الثوري (S.R) الذين جندتهم الأوخرانا رئيس "شعبة الكفاح" بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٩ "يفنو أزيف" المسؤول عن تنظيم الاغتيالات والاعتداءات الإرهابية. وكان من بين ضحاياه وزير الداخلية "فياتشسلاف بليفي" الذي ذهب ضحية قنبلة وضعتها "شعبة الكفاح". ومع ذلك كان أزيف شخصية غامضة، فلم يكن يدري هو نفسه إن كان "إرهابيًا يتجسس لصالح الحكومة أم عميلاً للشرطة يعمل لصالح الإرهابيين"[٣]. إلا أن أفضل من جندته الأوخرانا كان "رومان مالينوفسكي"، عامل من موسكو جُند عام ١٩١٠، وكان في العام ١٩١٢ من بين النواب البولشفيك الستة الذين دخلوا إلى "الدوما"، وهي البرلمان

---

١ - Williams Robert Chadwell, *The Other Bolsheviks*, Indiana University Press (Bloomington and Indianapolis,1986) pp. 120-121-154-155.

٢ - Possony Stefan T, *Lenin: the Compulive Revolutionary*, rev. Brit. ed. Allen & Unwin (Londres, 1966) p. 142.

٣ - Wolfe Bertran D., *Three Who Made a Revolution*, Penguin (Harmondsworth,1966) pp. 535-536.

الذي أنشأه نيكولاس الثاني. وكتب لينين بحماس "للمرة الأولى نتمثل في الدوما بزعيم استثنائي للطبقة العاملة"، أي مالينوفسكي. فقد كان الحزب البلشفي مكرسًا نفسه للثورة البروليتارية لكنه كان يفتقد لمسؤولين بروليتاريين مثل مالينوفسكي الذي أدخله لينين إلى اللجنة المركزية واعتبره حاملاً لآمال كبيرة: "نستطيع بكل ثقة أن نبني حزبًا عماليًا مع رجال مثله لكن علينا التغلب على صعاب كبيرة!" وقد كان النواب البولشفيك والمانشفيك المنتخبون عام ١٩١٢ يجلسون سوية في الدوما كأعضاء في نفس المجموعة الاشتراكية ـ الديمقراطية. لكن مع انهيار المجموعة عام ١٩١٣ أصبح مالينوفسكي رئيسًا للجناح البولشفي.

وفي عام ١٩١٢ كان لينين شديد القلق من مشكلة اختراق الأوخرانا لدرجة أن اللجنة المركزية للحزب البولشيفي وبمبادرة منه أنشأت "لجنة للتحريض" مؤلفة من ثلاثة أشخاص، من بينهم "مالينوفسكي". وبعد توقيف ستالين ورفيقه في اللجنة المركزية "ياكوف سفردلوف" في شباط ـ فبراير ١٩١٣ إثر تقديم مالينوفسكي معلومات عنهما، تباحث لينين مع هذا الأخير في الإجراءات الواجب اتخاذها لتجنب أي عمليات توقيف جديدة.

وفي تموز ـ يوليو ١٩١٣، تباحث لينين مجددًا مع مالينوفسكي واثنين من مساعديه البارزين "ليف كامينيف" و"غريغوري زينوفييف" في مشكلة الاختراق. وقد كان مالينوفسكي الوحيد الذي يمكن أن يقدر سخرية النتيجة التي توصلوا إليها وهي: لا بد أن هنالك عميلاً للأوخرانا بين المقربين من النواب الستة البولشفيك الذين يتولى رئاستهم. وتمنوا عليه أن يعمل قدر الإمكان للحد من مخاطر اختراق الشرطة. وكان "س. ب. بيليتسكي" مدير الشرطة يعتبر مالينوفسكي "مفخرة الأوخرانا". إلا أن التوتر والقلق الناتجين عن حياته المزدوجة أضحيا

شديدي الوطأة، لدرجة أن لينين وكان من أكثر المعجبين به انتابه القلق من تزايد تعاطيه للخمرة.

وفي أيار ــ مايو ١٩١٤ قرر المعاون الجديد لوزير الداخلية "ف. ف. دزونكوفسكي" التخلص من مانيلوفسكي لخشيته أن يؤدي سلوك هذا الأخير الأكثر فأكثر تناقضًا من كشف هويته كعميل مزدوج. فقدم مالينوفسكي استقالته من الدوما وهرب من سان بطرسبرغ بعد أن تلقى مبلغ ستة آلاف روبل، كانت كافية لأن يبدأ بها حياة جديدة خارج البلاد. لكن سرعان ما تردد خبر عمالته للأوخرانا. فكتب الزعيم المانشفيكي يولي مارتوف في حزيران - يونيو: "إننا متأكدون جميعًا من كونه عميلاً محرضًا... أما إثبات ذلك فمسألة أخرى". وبالرغم من إقرار لينين بأن مالينوفسكي ارتكب "انتحارًا سياسيًا"، إلا أنه رفض الاتهامات الموجهة ضده. وعندما ظهر مالينوفسكي من جديد في أحد مخيمات أسرى الحرب لدى الألمان حيث كان يبشر بالمبادئ البلشفية استأنف لينين مراسلته ودافع عنه في وجه اتهامات التعامل مع الأوخرانا. وكرر لينين في كانون الثاني ــ يناير ١٩١٧ "إن هذا الاتهام غير معقول بتاتًا". وعندما أدى فتح ملفات الأوخرانا بعد ثورة شباط - فبراير إلى إبراز الإثباتات رفض تصديقها في البدء. وبعد ثمانية عشر شهرًا لاقى مالينوفسكي نهايته المفجعة. ففي تشرين الأول - أكتوبر ١٩١٨ عاد إلى روسيا بحجة "عدم استطاعته العيش بمنأى عن الثورة" لكنه على الأرجح كان يأمل استعادة سمعته والصفح. لكنه سيق أمام محكمة ثورية وأعدم رميًا بالرصاص في حدائق الكرملين يوم السادس من تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨.

كيف استطاع مالينوفسكي أن يخدع لينين طوال هذه المدة الطويلة؟ من دون شك يعود ذلك جزئيًا إلى الشعور بالذنب لدى هذا الأخير والذي كان ينتاب العديد من

الثوريين بسبب أصلهم البورجوازي. فبالنسبة له كانت مزية مالينوفسكي الأساسية تكمن في جذوره البروليتارية. فقد كان مثال القائد والخطيب المنتمي إلى الطبقة العاملة والذي كان وجوده نادرًا في صفوف البولشفيك. وقد كان السجل العدلي لمالينوفسكي وطباعه العنيفة أحيانًا تدعم ثقة لينين في التزامه جانب البروليتاريا. وقد كان انجذاب لينين لستالين، والذي سيندم عليه في ما بعد، ينبعث من نفس الأسباب. فقد كانت الجذور المتواضعة لستالين وخشونة عاداته البعيدة كل البعد عن اللباقة البورجوازية تثير شعور الذنب لدى لينين لجذوره الاجتماعية.

لكن الغريب أن اختراق الحزب البولشيفي انعكس سلبًا وإيجابًا في نفس الوقت على لينين. وكان بيليتسكي قد اعترف لاحقًا بأن "الهدف الإجمالي" لسياسته في ذلك الوقت هو منع وحدة التيار الاشتراكي الروسي بأي ثمن. واتبع في سبيل ذلك مبدأ "فرّق تسد". وكان لينين هو الرجل الأكثر قدرة على إبقاء الانقسام قائمًا بين الاشتراكيين الروس. ففي الوقت الذي كان العديد من البولشفيك يريدون الوحدة مع المانشفيك عارض لينين هذه الإرادة بشدة. فقام بيليتسكس بتسهيل مهمة لينين مرات عدة عبر توقيفه لمناوئيه المانشفيك الأكثر إزعاجًا له وكذلك للبولشفيك الأكثر رغبة بتوحيد الحزب الاشتراكي - الديمقراطي لعمال روسيا. وكانت الأوخرانا مقتنعة بأن انشقاق الحزب سيؤدي بالضرورة إلى إضعاف التيار الاشتراكي. على النقيض من ذلك كان لينين متأكدًا من أن وجود حزب بولشيفي منفصل يقود حكمًا إلى الانتصار، فبالنسبة إليه وحدها النخبة "المتراصة" والمنظمة والسليمة على الصعيد العقائدي تستطيع قيادة الشعب الروسي إلى الأرض الموعودة.

لم تصل آمال لينين إلى هذا الحد لكنه في خضم الفوضى التي سادت عقب الإطاحة بالقيصرية في شباط - فبراير ١٩١٧ تبينت صحة استراتيجيته الثورية. فغداة

ثورة شباط ـ فبراير تمكن البولشفيك من انتزاع السلطة في تشرين الأول ـ أكتوبر رغم كونهم أقل عددًا من منافسيهم الرئيسيين المانشفيك والثوريين الاشتراكيين. وفي تلك السنة تحول الانتصار التكتيكي البارز للأوخرانا عبر اختراقها للبولشفيك إلى هزيمة استراتيجية واضمحلت.

وكانت ثورة شباط ـ فبراير (٨ ـ ١٢ آذار ـ مارس ١٩١٧ حسب التقويم الغريغوري) قد فاجأت معظم الثوريين... فقبْلها بستة أسابيع توقع لينين البالغ من العمر ستة وأربعين عامًا والمنفي في سويسرا: "نحن الحرس القديم لن نعيش كفاية لكي نشهد المعارك الحاسمة للثورة القادمة". لكن الأوخرانا كانت تملك صورة أوضح عن الجو السائد في بتروغراد، وهو اسم سان بطرسبرغ منذ الحرب، من أي مجموعة ثورية. إذ توقع أحد عملائها عشية الثورة: "تحضر الأحزاب الثورية لثورة... لكنها إذا وقعت فستكون نتيجة تحرك عفوي وعلىالأرجح نتيجة تمرد على الجوع". وأضاف أن العناصر الأكثر تعاطفًا هي أمهات العائلات الكثيرة الأولاد واللواتي "أعيتهن الساعات الممضيّة في صفوف الانتظار الطويلة وهن غير قادرات على رؤية أطفالهن مرضى وعلى حافة الموت جوعًا. ذلك هو فتيل الانفجار وقد ينفجر في أيّ لحظة"[١]. وبالفعل، فقد انفجرت الثورة في الثامن من آذار ـ مارس عبر تظاهرات النساء في الصفوف من أجل الخبز. ومنذ العاشر من الشهر أضربت بتروغراد بالكامل. عند هذا الحد كان الدور الحاسم يعود إلى حامية المدينة، ففي العام ١٩٠٥ سحق الجيش الثورة، أما في آذار ـ مارس ١٩١٧ فقد انضم إليها. ومرة أخرى كانت الأوخرانا قد أحست بهبوب الرياح. فكان القوزاق قد فرقوا في ٢٧ شباط ـ فبراير تجمعًا لعمال مضربين

١ ـ Hasegawa Tsuyoshi, *The February Revolution: Petrogard, 1917*, University of Washington Press (Seattle, 1981) p. 201.

فلاحظت الأوخرانا "أنهم كانوا أكثر ميلاً إلى جانب العمال". وفي الثاني عشر من آذار ـ مارس تمرد قسم من حامية بتروغراد فبات انتصار الثورة حتميًا. وبعد مرور ثلاثة أيام تنحى نيكولاس الثاني عن عرشه لصالح أخيه ميشال الدوق الأعظم، لكن هذا الأخير تنازل عنه في اليوم التالي لتنهار في السادس عشر من آذار ـ مارس سلالة الرومانوف التي سادت طوال أكثر من أربعة قرون. إنتقلت عندها السلطة إلى حكومة موقتة خصوصًا من سياسيين ليبراليين تعايشوا بصعوبة مع مجلس سوفيات مؤلف من نواب وعمال وجنود بتروغراد وكان نموذجًا لاحقًا وناطقًا باسم مجالس السوفيات المحلية في باقي روسيا.

وفي نفس الوقت الذي غرقت فيه القيصرية غرقت الشرطة في ما يسميه تروتسكي بـ "مزابل التاريخ". ففي الثاني عشر من آذار ـ مارس اجتاحت الجموع مقر الأوخرانا الرئيسي. وهنا شهادة غاضبة لـ "أ. ت. فاسيلييف" تمثل الوضع بصورة حية:

"كل سجلات قسم التحقيقات الخاص مع بصمات الأصابع، الصور، وباقي المعلومات المتعلقة بالسارقين والمزورين والقتلة جُرّت إلى الباحة واحرقت... واقتحم الدخلاء بعد ذلك مكتبي واستولوا على خمسة وعشرين ألف روبل من الأموال العامة التي كانت في عهدتي".

ووجد فاسيلييف نفسه في قلعة بطرس وبولس برغم ادعائه أنه لا يذكر أي عمل غير شرعي مرتكب باسمه. وكان يشكو وقتها من اضطراره للنوم على "فراش من قش ووسادات من ريش الدجاج"... ومن طعامه المشتمل على "حساء مقرف ونتن ومن لحم مفروم لا يقل قرفًا عنه ومكوّن من جميع أنواع الفضلات التي لا يمكن وصفها" ومن عدم السماح له بالاستحمام إلا "مرتين في

الشهر وذلك في غرفة شديدة البرودة تعبرها التيارات الهوائية المتعدّدة الاتجاهات[1].

لقد كان سجن رئيس الأوخرانا بالإضافة إلى مصير القيصر نيكولاس الثاني أمبراطور البلاد الروسية الذي أصبح المواطن رومانوف بمثابة الرمز المبشر بقدوم نظام جديد وديمقراطي والانتصار النهائي على الاستبداد. وكانت الحكومة الموقتة ومجلس سوفيات بتروغراد يعتقدان، غداة الثورة، أنه لن يكون أبدًا لروسيا شرطة سياسية بعد ذلك[2]...

١ - Vassiliev, *Ochrana*, pp. 229, 249-250.

٢ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٢٤ - ٣٩.

التشيكا

"فيلكسي إدموندوفتش دزرجنسكي "، هو أوّل من تولّي رئاسة "لجنة مكافحة الثورة المضادة والتهريب" التي عُرفت باسم "التشيكا"، عقب انتصار الثورة "البلشيفيّة" في عام ١٩١٧، وهو رجل صارم لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه، يتحدّر من أسرة أرستقراطيّة بولنديّة. وكان من البلاشفة الذين قضوا في المعتقلات القيصريّة مدّة، وبقي منفيًّا لزمن طويل في غرب أوروبّا. إنضمّ وهو طالب إلى "الحزب الاشتراكيّ الثوريّ" السرّي، ولكنّه ما لبث أن تحوّل إلى "حزب العمل الاشتراكي الديمقراطيّ الروسي" الماركسيّ، وعند انقسام الحزب في مؤتمر لندن عام ١٩٠٣، انضمّ إلى أغلبيّة "البلشيفيك" ضدّ أقليّة "المنشفيك"، وقد اكتسب دزرجنسكي ، الثوريّ الملتزم، خبرته في المؤامرات من خلال عمله كرسول سرّي تخصّص في القيام باتصالات الحركة السرية بين روسيا ومكاتب المهاجرين التي أنشئت في باريس ولندن وسويسرا وفييّنا وغيرها، بما في ذلك جريدة "الإيسكرا" التي اتخذت ميونيخ مقرًّا لها ثم انتقلت إلى لندن، وقد أصبح عضوًا في مركز الثورة السريّة في "بطرسبورغ"، في تشرين الأوّل ـ اكتوبر ١٩١٧، حيث أمكنه الاستعانة بخدمات ألوف من الذين لهم خبرة تامّة بأساليب الجواسيس والمخبرين والعمل السري.

أطلق على "اللجنة الاستثنائية لمكافحة الأعمال المناهضة للثورة ومحاربة التهريب" التي كان يرأسها دزيرجنسكي إسم الـ"تشيكا"، وهو الإسم الذي أطلق في الوقت نفسه على "البوليس السياسي السوفياتي"، و"إدارة أمن الدولة"، و"المخابرات السريّة"، وكان

الغرض الأساسي للتشيكا هو تنظيم البوليس السياسي ومكافحة الجاسوسيّة، وكان دزرجنسكي يفضّل التعاون مع أهل وطنه، فعيّن عددًا من مساعديه من البولنديّين، ووضع نموذجًا للمخابرات السوفياتيّة التي تضمّ الجاسوسيّة العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي انتشرت وتطوّرت حتى أصبحت من أقوى أجهزة المخابرات في العالم.

مات "دزرجنسكي" فجأة في عام ١٩٢٦، وأقيم له تمثال، كما أطلق اسمه على ساحة بموسكو. وقد لقّب دائمًا بـ"فيلكس الحديدي"، واستمرّت أساليبه في المكر والخداع والتضليل تُدرّس في معاهد المخابرات السوفياتيّة المختلفة، وقد استعارت أجهزة الأمن والمخابرات في الكثير من الدول العديد من تلك الأساليب بالرغم من نقدها للدول الشيوعيّة[١].

كانت تتألف مجموعة الوسائل القمعية الجديدة التي أباح السوفناركوم في العشرين من كانون الأول ـ ديسمبر للتشيكا استخدامها من "مصادرة الممتلكات والإبعاد والحرمان من بطاقات التموين ونشر لائحة أعداء الشعب إلى آخره..." لكن السلاح القمعي الأول كان من دون شك الإرهاب...

أدرك لينين بسرعة أهمية ما يجري، فالمعارضة أخذت حجمًا لم يكن يتوقعه أحدٌ لها، حتى قبل الثورة، لذا قرر مرة أخرى ضرورة إنشاء "جهاز خاص للعنف المنظم" لكي تسود ديكتاتورية البروليتاريا. وكان البولشفيك بالتزامهم العميق بالصراع الطبقي يرفضون المفاهيم البالية مثل الشرعية "البورجوازية" والأخلاقيات. وكان لينين يعتبر أن سبب فشل أكبر انتفاضة شعبية في القرن التاسع عشر، وهي إنتفاضة باريس عام

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٦٨ ـ ٦٩.

١٨٧١ وسحقها، يعود إلى أنها راهنت على مبدأ المساومة ولم تراهن على القوة والعنف... إذ إنّ عجزها عن تصفية البورجوازية عن طريق العنف أدى بها مباشرة إلى الهلاك. وكان لينين لاذعًا تجاه "الآراء المسبقة لأهل الفكر حول مسألة عقوبة الموت". وأعلن أن الجماهير تتمتع بغرائز سليمة أكثر. ومنذ نهاية عام ١٩١٧ شجع هذه الجماهير على الاقتصاص العرفي (عدالة الشارع) من "المضاربين" وبشكل أعم على إرهاب "أعدائهم الطبقيين"[١].

وإن لم يكن دزرجنسكي رجلاً بالغ القوة إلا أنه كان مثل لينين تضطرم في نفسه كراهية لا تمهد تجاه الطبقة التي يتحدر منها. وروى لزوجته كيف أنه تمرن لكي يفقد أي شعور بالرحمة خلال دفاعه عن الثورة. وكتب "مارتن لاتسيس"، أحد أبرز مساعديه، في النشرة الدورية للتشيكا "الإرهاب الأحمر": "إننا لا نقوم بالحرب ضد أفراد بل إننا نستأصل البورجوازية كطبقة. خلال قيامكم بالتحقيق لا تبحثوا عن الدليل الذي يثبت أن المتهم عمل ضد السلطة السوفياتية عبر كلامه أو أفعاله... فالأسئلة الأولى الواجب طرحها هي التالية: إلى أي طبقة ينتمي؟ ما هي جذوره؟ تربيته أو وظيفته؟... إن هذه الأسئلة وأجوبتها هي التي تقرر مصير المتهم. هنا يكمن تفسير وجوهر الإرهاب الأحمر"[٢].

وبينما كان دزرجنسكي ومساعدوه يكرسون أنفسهم قلبًا وقالبًا للإرهاب الأحمر، تُحركهم ما كانوا يعتبرونه الضرورات الموضوعية للصراع الطبقي، كان رجال

---

١ ـ George, *The Cheka: Lenin's Political Police,* Oxford University Press (Oxford,1981) pp. 54-55.

٢ ـ Leggett, *Cheka,* p. 114

التشيكا على مستوى القاعدة وخصوصًا في الأرياف، يشبعون غرائزهم الوحشية من دون عناء تبريرها بالعبارات الجميلة. وكشف في ما بعد ياكوف بيترز أبرز مساعدي دزرجنسكي أن "العديد من السفلة" حاولوا أن يربطوا مصيرهم بقطار التشيكا السائر. لكنه نسي أن يذكر أن الكثير منهم نجح في ذلك. وقد كانت فظائع التشيكا وإن على نطاق أضيق تساوي في بشاعتها تلك التي ارتكبتها مفوضية الشعب في الداخلية (NKVD) الستالينية.

وحتى صيف ١٩١٨ لعب الثوريون الاشتراكيون اليساريون والذين اعتمد عليهم البولشفيك في بداية الثورة دورًا في تخفيف استعمال الإرهاب.

وفي كانون الثاني - يناير تمكنوا، برغم معارضة لينين ودزرجنسكي الشديدة، من أن يتمثلوا في معهد التشيكا، حيث أصبح واحد من مندوبيهم الأربعة "فياتشسلاف الكسندروفيتش" مساعدًا لدزرجنسكي.

وفي شهر آذار ــ مارس ترك الثوريون الاشتراكيون اليساريون السوفناركوم احتجاجًا على اتفاقية برست ــ ليتوفسك للسلام مع ألمانيا. وغيّر الحزب البولشفي اسمه ليصبح الحزب الشيوعي ونقل السوفناركوم الذي أصبح شيوعيًّا بالكامل مقره إلى موسكو التي أصبحت في الوقت نفسه العاصمة بدلاً من بتروغراد. لكن الثوريين الاشتراكيين اليساريين بقوا ـ وهذا أمر هام ـ في التشيكا.

وتبعًا لروايتهم للأحداث فإن دزرجنسكي رجاهم أن يبقوا وأكد لأحد مسؤوليهم "ماريا سبيريدونوفا" أنه من دون مساعدتهم "لن يستطيع أن يلجم طويلاً نزوات التشيكا الدموية". وبالفعل فإنه طوال مدة وجودهم في قيادة هذا الجهاز لم تسجل أي حالة إعدام لجرائم سياسية. وكان دزرجنسكي يثق كثيرًا بنزاهة مساعده "ألكسندروفيتش"

لدرجة أنه ترك له بعد الانتقال إلى موسكو عهدة الشؤون العامة للتشيكا لكي يتفرغ إلى النشاط العملاني[1].

أقامت التشيكا مقرها العام عند الرقم ١١ في "البوالشـايا لوبيانكـا"، أي فـي المكـان نفسه الذي شغلته سابقًا شركتا التأمين "ياكور" و"لويـدز اللندنيـة"، التـي استقرت لاحقًـا عند الرقم ٢ الذي كان في السابق مقرًا لشركة التأمين "روسيا" والتي أصبحت مقر الـ K.G.B. وأطلق رجال التشيكا العنان لنزعاتهم الدموية في العاصمة التـي لـم يكـن هـذا ليبهج سكانها. وكانت الضحية الأولى المهرج الشهير "بيم ـ بـوم" الـذي لـم يـتردد فـي السخرية من الشيوعيين، وكانت التشيكا مثلما ستصبح الـ K.G.B في مـا بعـد لا تتمتـع بأي روح للدعابة في ما يختص بالأفكار الهدامة.

ففي إحدى الأمسيات بينما كان يقدم بيم بوم عرضه على المسرح، تقدّم منه رجـال التشيكا واعتقد المشاهدون لأول وهلة أن ذلك جزء من التمثيلية، إلا أن الرعب حل في نفوسهم محل الدهشة عندما رأوا رجال التشيكا يفرغون مسدسـاتهم فـي اتجـاه المهـرج الذي كان يحاول الهرب من الحلبة.

وإذا استثنينا الإرهاب فقد كان السلاح الأبرز المستخدم ضد المضادين للثورة هـو العميل المحرض، أو عميل الاختراق. وبالرغم من أن دزرجنسـكي كـان قـد أدان هـذا الأسلوب القيصري إلا أنه عاد وجعل منه بسرعة إحدى سمات نشاطه[2].

وبالاستناد إلى الرواية السوفياتية الرسمية فإن رجال التشـيكا "قـاموا بشـكل منتظـم بعمليات خطيرة من هذا النوع" منذ بداية عام ١٩١٨. "فقد كـانت حالـة التوتـر السـائدة

---

١ - Leggett, *Cheka*, pp. 123, 225.

٢ - Leggett, *Cheka*, pp. 280-281.

في الصراع الطبقي تستدعي نشاطًا سريعًا لكشف أوكار الثورة المضادة. وكان بإمكان أدنى إهمال أن يؤدي بحياة رجل التشيكا خلال تأديته لمهمته. لكن الشجاعة والإقدام كانا من صفاته الطبيعية". وطبقًا لرواية الـ K.G.B للأحداث فإن أول نجاح مهم تم تحقيقه كان ضد "وحدة الكفاح ضد البولشفيك وإرسال فصائل إلى الجنرال كاليدين" المتمركز في بتروغراد. فقد استطاع أحد رجال التشيكا، ويدعى "غولوبيف" أن يخترق الوحدة بعد أن ادعى أنه ضابط قيصري سابق وكشف هوية العديد من الضباط البيض السريين وأماكن لقاءاتهم السرية، و"كانت النتيجة أنه بين شهري كانون الثاني ـ يناير وشباط ـ فبراير تم تفكيك الوحدة المؤلفة من أربعة آلاف رجل وشل حركتها بمساعدة الحرس الأحمر"[١]. وقد تطور الإرهاب والاختراق كثيرًا في الثلاثينات بعد أن برهنَا عن فعاليتهما في كسر أيّ معارضة وشكّلا أساسًا لأبرز إنجازين حققتهما الـ NKVD أيام ستالين وهما: أكبر عملية إرهاب في التاريخ الأوروبي في زمن السلم، وأضخم عملية اختراق للبيروقراطيات الحكومية الأجنبية أمكن لجهاز تجسس أن يحققها. وكانت أكبر موجة إرهاب واختراق بواسطة عملاء مزدوجين قد حصلت خلال الحرب الأهلية بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠.

أحاطت بالنظام السوفياتي الفتي منذ ولادته أخطار عديدة ومتنوعة. وكانت ثورة تشرين الأوّل ـ أكتوبر وامتداداتها قد حققت له السيطرة على بتروغراد وموسكو وأراضٍ ذوات حدود متحركة بلغ امتدادها الأربعمئة كيلومتر حول موسكو، في اتجاه الشرق أكثر منه في الجنوب، بينما كانت بقية روسيا تقريبًا غارقة في الفوضى الإدارية الكاملة. وأدى حل الجمعية التأسيسية المنتخبة ديمقراطيًا إلى توضيح الصورة

---

١ - Zakharovitch Sergeî Ostriakov, *Voyennye Chekisty* Voyenizdat (Moscou,1979) ch. 1.

لمعظم دول العامل حول إدعاءات البولشفيك في أنهم يمثلون الحكومة الشرعية الروسية. وقد اضطر هؤلاء إلى بلع الجرعة المرة المتمثلة بمعاهدة السلام القاسية التي فرضها عليهم الألمان والتي قال بشأنها لينين إنّ روسيا السوفياتية لم يكن أمامها خيار آخر سوى القبول بها... وشدد في كلماته متوجهًا إلى المسؤولين المترددين في قبول المعاهدة: "إذا لم تكونوا مستعدين للزحف على بطونكم في الوحل فإنكم لستم بثوريين بل مجموعة ثرثارين". وبسبب هذه المعاهدة الموقعة في الثالث من آذار ـ مارس ١٩١٨ قبِل البولشفيك مرغمين على تفكيك كل الجزء الغربي لروسيا... لكن المعاهدة أُلغيت بعد ثمانية أشهر بفضل انتصار الحلفاء على الجبهة الغربية. وفي شهر أيار ـ مايو شكلت ثورة الفرقة التشيكوسلوفاكية في سيبيريا والتي كان أنشأها الجيش القيصري السابق إيذانًا ببدء حرب أهلية دامت سنتين ونصف. وفي شهر تموز - يوليو كان يوجد داخل روسيا ثماني عشرة حكومة معادية للبولشفيك. وكان النظام السوفياتي منبوذًا دوليًا وغير معترف به إلا من جانب المحتل الألماني الذي هزم في تشرين الثاني - نوفمبر. وخلال صيف ١٩١٨ كان دبلوماسيو الدول الحليفة العالقون في روسيا السوفياتية يتآمرون مع جميع خصوم النظام فيما كان الإنكليز والفرنسيون والأميركيون واليابانيون يخططون لإرسال حملات عسكرية[1].

منذ البداية رأى البولشفيك في اندلاع الحرب الأهلية مؤامرة كبيرة دبرها الحلفاء للقضاء عليهم. ولكن في الحقيقة لم تقم ثورة الفرقة التشكوسلوفاكية بتخطيط من الحلفاء بل بسبب أنانيتهم وتخوفهم من التسريح بعد محاولات تروتسكي، الذي كان وقتها مفوضًا للشؤون الحربية، بتجريدهم من السلاح. لكن في نظر لينين

---

١ - Awdsley Evan, *The Russian Civil War,* Allen and Unwin (Londres,1987)

والسوفناركوم كان جليًا أن "التشيكوسلوفاكيين مجرد عملاء أنكلو ـ فرنسيين". وقال لينين في شهر تموز ـ يوليو: "إننا بصدد مواجهة حملة منظمة ودقيقة ومضادة للثورة، لقد خطط لها عسكريًا وماليًا منذ وقت طويل وعمل عليها ممثلو الإمبريالية الأنكلو ـ فرنسية منذ أشهر". واستمرّ الـ K.G.B يفسّر المؤامرات والاعتداءات التي استهدفت السوفيات وقتها بمؤامرات قام بها أعداء الطبقة العاملة على أرض الوطن القوى الإمبريالية في الخارج... لكن الواقع كان مختلفًا جدًا. فلو كانت هنالك "مؤامرة" فعلاً لما استطاع النظام البولشيفي التغلب عليها. ففي عام ١٩١٩ كان عليه أن يواجه ثلاثة تهديدات عسكرية كبيرة وهي: خلال فصل الربيع الهجوم الآتي من سيبيريا بواسطة جيوش القائد السابق للبحرية القيصرية الأميرال "كولتشاك"، وفي الصيف الهجمات التي قام بها الجنرالان الأبيضان "دينكين" و"يودينتش" على التوالي في القوقاز وخليج فنلندا، فوصل يودينتش إلى مشارف بتروغراد وكاد أن يقطع خط السكة الحديدية الذي يربط المدينة بموسكو. ويعود الفضل جزئيًا في نجاة البولشفيك إلى المبادرات الجريئة التي قام بها تروتسكي قائد الجيش الأحمر، والفضل الأكبر إلى الانقسامات الدموية في صفوف أعدائهم. فلو كان كولتشاك ودينكين ويودينتش حضّروا جيدًا وبعمق للانقضاض على بتروغراد وموسكو بدلاً من الهجمات غير المنسقة التي قاموا بها لكانت الثورة المضادة قد نجحت على الأرجح. لكن على أرض المعركة تحركت الجيوش البيضاء بشكل مستقل الواحد عن الآخر... وكان كل واحد من الزعماء المعادين للبولشفية مهتمًا فقط بالاحتفاظ لنفسه بشرف إسقاط النظام المكروه، مما مكن هذا النظام من الاستفراد بهم وسحقهم الواحد تلو الآخر. وكان الجيش الأحمر يقول إنه لا يحارب من أجل حكومة أقلية بل من أجل الشعب الروسي المنتفض ضد الجنرالات البيض الذين كان برنامجهم هو الرجعية، وشغلهم الشاغل استعادة امتيازاتهم القديمة.

قدّمت الفوضى الناتجة عن الحرب الأهلية فرصة لن تتكرر للقوى الغربية من أجل القضاء على ثورة تشرين الأول ـ أكتوبر، لكنها فشلت في استغلالها. فحتى تحقيق النصر على ألمانيا في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٨ لم يكن الهدف الأساسي لتدخل الحلفاء إيديولوجيًّا كما كان يحلو ترداده للمؤرخين السوفيات بل كان عسكريًّا. وكانت الغاية تخفيف الضغط على الجبهة الغربية ـ الأوروبية في أحرج أوقات الحرب. لأن معاهدة برست ليتوفسك سمحت للألمان بنقل قوات كبيرة من الجبهة الشرقية وبشن أكبر هجوم في الغرب منذ اندلاع الحرب. ولم يكن هنالك شك بالنسبة للماريشال "هيغ" القائد العام للقوات البريطانية من أن الأزمة الأشد منذ اندلاع الحرب العالمية قد حلت. فأبلغ إلى جنوده في ١١ نيسان ـ إبريل في أمر اليوم الشهير: "يجب الحفاظ على كل موقع حتى آخر جندي ولن يكون هنالك من تراجع. على كل واحد منا أن يحارب إلى النهاية وظهره إلى الحائط مع الإيمان الكامل بعدالة قضيتنا".

في شهر حزيران ـ يونيو وصل الألمان إلى المارن وباتوا يهددون باريس. وبالمقارنة مع هذه التطورات كان مصير النظام البولشيفي قليل الأهمية. وبالرغم من أن التطورات على الأرض انقلبت بسرعة خلال الصيف لصالح الجيوش الحليفة إلا أن الانهيار الأخير للقوات الألمانية والسرعة التي تم فيها في فصل الخريف فاجآ الجميع.

لم تشكل المكائد السخيفة التي كان يحيكها الدبلوماسيون الغربيون وضباط الاستخبارات في روسيا السوفياتية خلال صيف ١٩١٨ أي تهديد جدي للبولشفيك. وفي الواقع كانت التشيكا تعمل من كل قلبها لتشجيع قيام هكذا مؤامرات وذلك لكسب معركة الدعاية. فحتى بعد توقيع اتفاق الهدنة بين السوفيات والألمان أي في وقت كان من مصلحة الحلفاء القضاء على البولشفيك فإن محاولاتهم في هذا الاتجاه كانت خجولة. وكان بالإمكان عبر إنزال فرقتين عسكريتين أو ثلاث في خليج فنلندا عام ١٩١٩

اجتياز خطوط الجيش الأحمر والاندفاع نحو موسكو وقلب الحكومة. لكنه غداة الحرب العالمية الأولى كان شبه مستحيل تجميع فرقتين أو ثلاث. أما القوات الهزيلة التي أرسلت فقد أفقدت الاعتبار لقضية البيض وساعدت عن غير قصد البولشفيك. إذ أن قلة عدد أفرادها ما كانت لتؤثر على مجريات الحرب الأهلية لكنها كانت كافية للبولشفيك لكي يفضحوا أعداءهم السياسيين ويتهمونهم بأنهم مجرد أدوات بأيدي الإمبريالية الغربية. وكان الزعماء الشيوعيون يؤمنون بقوة أنهم يواجهون هجومًا حازمًا وبكل القوة المتوفرة للرأسمالية الغربية. وأعلنت التشيكا بكل فخر ـ وهذا ما أصبحت تدعيه الـ K.G.B لاحقًا ـ أنها لعبت دورًا أساسيًا في الدفاع عن الدولة الفتية ضد المؤامرة الضخمة التي دبرتها الرأسمالية وأجهزة استخباراتها. وفي عام ١٩٢١ حيا لينين التشيكا واصفًا إياها بـ "السلاح الفتاك المشهر ضد الدسائس التي لا تحصى والمحاولات الشتى التي أثارتها جهات تفوقنا قوة بكثير للقضاء على سلطة السوفيات"... وتابع: "أيها الرأسماليون في روسيا وفي الخارج! إننا نعلم مدى كرهكم لهذا الجهاز إذ إنه برهن على قدرته في إحباط مكائدكم ودسائسكم كما لم يفعل أحد من قبل خصوصًا عندما كنتم تخنقوننا وتحاصروننا بجحافلكم المحتلة وعندما نظمتم المؤامرات الداخلية ولم تتورعوا عن ارتكاب أي جريمة في سبيل تخريب عملنا السلمي".

وبالرغم من أن الدسائس الهدامة التي قام بها دبلوماسيو الغرب وأجهزة استخباراته، لم تكن أبدًا بالأهمية التي ادعاها لينين، فإن التشيكا تمكنت من تسجيل نقاط ضدهم. وكان أفضل سلاح لديها هو عملاء الاختراق، أي العملاء المزدوجون، والعملاء المحرضون أي ذلك النوع من الشخصيات المريبة التي ابتكرتها الأوخرانا القديمة. لكن مصير أول عملية كبيرة لاختراق سفارة غربية انتهى إلى فشل ذريع.

كانت الإمبراطورية الألمانية هي القوة الوحيدة التي تقيم علاقات دبلوماسية صريحة مع النظام البولشيفي. ففي الثالث والعشرين من نيسان ـ إبريل ١٩١٨ ووفقًا لاتفاقيات برست ليتوفسك أقام السفير الألماني مقره في موسكو. وكتب أحد أعضاء البعثة في يومياته بعد ستة أيام: "هنا يجب علينا أن نبقى حذرين باستمرار من محاولات العملاء والمحرضين. فلم تلبث السلطات السوفياتية أن أعادت إحياء الأوخرانا القيصرية... وعلى نطاق مشابه مع التركيز أكثر على القسوة وعدم الرحمة ولكن بأشكال مختلفة نسبيًا". وكان اختراق سفارة الرايخ من مسؤولية شعبة للتجسس المضاد أنشئت في أيار ـ مايو ١٩١٨ داخل مجلس الكفاح ضد الثورة المضادة. وبين عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ طُورت هذه الشعبة وأصبحت تشكل دائرة التجسس المضاد (K.R.O) وهي سلف المديرية العامة الثانية في الـ K.G.B. وكان رئيسها الأول اشتراكيًا ثوريًا يساريًا يبلغ من العمر العشرين عامًا ويدعى "ياكوف بليومبين" وهو على الأرجح أصغر رئيس شعبة في تاريخ الـ K.G.B، وأنجز بليومبين مهمته بتجنيده الكونت "روبير ميرباخ". وكان هذا الأخير نمساويًا أسره الروس في الماضي وكانت تربطه صلة قربى بالكونت "ويليم ميرباخ" السفير الألماني لدى موسكو. وفي شهر حزيران ـ يونيو انتزع بليومبين من الكونت روبير ميرباخ التزامًا خطيًا بالتجسس لصالح التشيكا على ألمانيا وسفارتها[١].

لكن دزرجنسكي تصرف بقلة حذر عندما كلف بليومبين بهذه المهمة إذ كان الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون معارضين بشدة لمعاهدة برست ـ ليتوفسك. وفي الرابع من تموز ـ يوليو وافق المجلس المركزي لهذا الحزب على خطة لاغتيال السفير

١ - Leggett, *Cheka*, pp. 73, 293.

الألماني على أمل أن يؤدي هذا العمل إلى إنهاء "التهدئة" بين البولشفيك والألمان وإعادة إشعال المعارك على الجبهة الشرقية وتسريع انتشار الثورة العالمية. وعهد بتنفيذ هذه الخطة إلى بليومين ومناضل آخر يعمل تحت أمرته كمصور في التشيكا ويدعى "نيكولاي اندرييف". وفي صباح السادس من تموز - يوليو قام بليومبين بتحضير وثيقة معنونة باسم التشيكا وممهورة بالتواقيع المزورة لدزرجنسكي وسكرتير التشيكا تأذن له بفتح مفاوضات مع السفير الألماني. وكان مساعد دزرجنسكي، الكسندروفيتش، وهو كان أيضًا اشتراكيًا ثوريًا يساريًا، على علم بالخطة وأضاف ختم التشيكا الرسمي علىالوثيقة. وبعد ظهر اليوم نفسه توجه بليومبين برفقة أندرييف إلى الممثلية الدبلوماسية الألمانية وحصلا على موعد مع السفير بحجة التباحث بوضع قريبه الكونت روبير ميرباخ.

وروى بليومبين في ما بعد أنه أطلق بنفسه رصاصات المسدس التي قتلت ميرباخ. لكن بالاستناد إلى شهادات العاملين في السفارة فإن الطلقات الثلاث التي أطلقها بليومبين أخطأت هدفها فقام أندرييف بقتل السفير.

بهذه الجريمة استهلت التشيكا، التي كان يُفترض فيها أن تكون درعًا وسيفًا للثورة، حياتها القصيرة بكارثة مدوية، وبدل أن تدافع عن السوفيات كادت أن تصبح في تموز - يوليو ١٩١٨ مصدرًا لهلاكهم. وأبرق لينين إلى ستالين مُعلمًا إياه بأن اغتيال ميرباخ كاد أن يؤدي "على شعرة" إلى إعادة إشعال الحرب مع الرايخ. وتبع الاغتيال انتفاضة قام بها الاشتراكيون الثوريون اليساريون واحتلوا خلالها المقر العام للتشيكا وأسروا دزرجنسكي. ولكن لم يكن لدى المتمردين خطة عمل واضحة لذا سُحق التمرد خلال أربع وعشرين ساعة بواسطة القوات الليتوانية الموالية للشيوعيين. وفي الثامن من تموز - يوليو استقال دزرجنسكي من تلقاء نفسه وبدأت لجنة تحقيق بالبحث في

ملابسات التمرد وأزاحت الاشتراكيين الثوريين اليساريين من التشيكا. وعندما استعاد دزرجنسكي منصبه كرئيس في الثاني والعشرين من آب ـ أغسطس كانت التشيكا قد أصبحت وكالة شيوعية بالكامل. وبإزاحة الاشتراكيين الثوريين اليساريين غاب دورهم اللاجم للإرهاب والبطش اللذين انطلقا عندها من دون أي رادع. وأكد دزرجنسكي بقوله: "إننا نمثل بمجرد وجودنا الإرهاب المنظم، يجب أن يكون ذلك معلومًا بوضوح"[١].

كان لينين يظهر اهتمامًا واضحًا، وإن كان ساذجًا بعض الشيء، باستعمال التقنية والإرهاب للكشف عن أعداء للثورة. فقد أعجب كثيرًا بفكرة غريبة مفادها أن مغنطيسًا كهربائيًا ضخمًا يستطيع أن يكشف بدقة عن الأسلحة المخبأة في المنازل. فعرضها على دزرجنسكي الذي لم يبد أي حماس لها معتبرًا أن "المغنطيس ليس ذا فائدة حاسمة في أبحاثنا فلقد جربناه". لكنه فكر أن تجربة من هذا النوع قد تدفع بأعداء الثورة إلى التخلص من أسلحتهم لخشيتهم من الانكشاف. إلاّ أن التجربة بقيت يتيمة.

لكن الاختراق بواسطة العملاء المزدوجين داخل البعثات وشبكات التجسس الحليفة في روسيا لاقى نجاحًا موعودًا أكثر من العمليات التي استهدفت السفارة الألمانية. ويعتبر الـ K.G.B أن أحد أهم انتصاراته في الماضي كان اكتشافه عام ١٩١٨ لـ "مؤامرة لوكهارت" المزعومة والتي شارك فيها دبلوماسيون من بريطانيا وفرنسا وأميركا بالإضافة إلى عملاء سريين.

كان "روبرت بروس لوكهارت" قبل الثورة قنصلاً بريطانيًا عامًا في موسكو، وكان رجلاً قادرًا إنما غريب الأطوار وأعاقت عمله مرتين قصص عاطفية معقدة.

---

١ - Dziak John J., *Chekisty,* Lexington Books (Lexington, Mass.,1987) p. 13.

وفي بداية العام ١٩١٨ وبعد استدعاء السفير البريطاني لدى موسكو، أرسل لوكهارت إليها للحفاظ على اتصال رسمي بالنظام البولشفي، لكنه لم يحرز نتائج تذكر. وكان هدف مهمته الأساسية إقناع الزعماء البولشفيك بمواصلة الحرب ضد ألمانيا مع الوعد بتقديم كل مساعدة من الحلفاء. لكنه فشل فشلاً ذريعًا. ولكن بعد إرساء السلام في برست ليتوفسك لم يفقد الأمل على الفور. وأعلم لندن أنه على الرغم من معاهدة السلام، فلا "تزال توجد فرص عديدة لتنظيم المقاومة ضد ألمانيا". وكان "تروتسكي" المفوض للشؤون الحربية، و"جيورجي تشيتشيرين" خليفته في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية قد دفعا بلوكهارت إلى الاعتقاد بأن معاهدة برست ليتوفسك قد لا تدوم طويلاً. وكان وراء ذلك حرصهما على الاحتفاظ بخط مفتوح مع لندن. ومن جهته كان لوكهارت قد فقد ثقة حكومته. وكما قال بخبث موظف كبير في وزارة الخارجية البريطانية فإنه "بالرغم من عدم صوابية رأي السيد لوكهارت فإن أحدًا لا يستطيع أن يتهمنا بأننا اتبعناه"[١].

وما إن فقد لوكهارت كل أمل بإعادة اشتعال المعارك على الجبهة الشرقية، حتى قام بتغيير موقفه بسرعة وبات يتعاطف مع أخصام البولشفيك. وفي منتصف شهر أيار - مايو بدأ اتصالاته مع عملاء سريين معارضين للحكم القائم يقودهم الإرهابي الإشتراكي الثوري القديم "بوريس سافينكوف" الذي أعد قبل الحرب العالمية الأولى الاعتداءات التي أودت بحياة الوزير "بليفي" والدوق الأعظم "سيرج". ونفى لوكهارت في مذكراته التي كتبها بعد وقت طويل من هذه الأحداث الرواية القائلة بأنه أغدق النصائح على سافينكوف. إلا أن البرقيات التي كان يرسلها إلى لندن كانت تشير إلى

---

١ - Andrew Christopher, *Service*, pp. 212-213.

العكس من ذلك. وفي الثالث والعشرين من أيار ـ مايو ١٩١٨ نقل إلى وزارة الخارجية البريطانية من دون تعليق خطة قدمها له أحد عملاء سافينكوف وتقضي "باغتيال كافة الزعماء البولشفيك في نفس الليلة التي يجري فيها إنزال الحلفاء وتشكيل حكومة دكتاتورية عسكرية". وكان لوكهارت وقتها قد أصبح مؤيدًا بقوة لمبدأ تدخل الحلفاء العسكري الذي سيسهل عملية قلب النظام الشيوعي. لكن ذلك لم يكن يشغل بال الحكومة البريطانية المهتمة خاصة بمحاولة الانتصار على ألمانيا.

وساهمت الأجهزة السرية المسماة في ذلك الوقت MI1C بالفوضى التي خلفتها مبادرات لوكهارت. فبالإضافة إلى المسؤول عن الوحدة المحلية للـ MI1C الليوتنانت "أرنست بيوس"، الذي بقي إسميًا المسؤول عن أعمال التجسس في روسيا، قدم إلى البلد منذ بداية ١٩١٨ العديد من الضباط لتجربة حظهم في هذا المضمار. وكان للوكهارت "انطباع سيء جدًا" عن نشاطهم. فقال "بالرغم من شجاعتهم وضلوعهم باللغات، إلا أنهم أعجز من أن يدلوا بأحكام سياسية تكون مصدر ثقة". وجرى حتى تضليلهم بواسطة وثائق مزورة تدعي أن المسؤولين البولشفيك مأجورون للألمان وبتقارير كاذبة تدعي وجود سجناء حرب ألمان، أدخلوا الحزب في سيبيريا، وتم تسليحهم على يد البولشفيك.

وكان لا يزال الـ MI1C في ذلك الوقت عنصرًا هامشيًا في السياسة الخارجية البريطانية ولم يكن، كما كانت تدعي التشيكا بإصرار، أحد الفروع القوية الضاربة جذوره في أروقة السلطة في وايتهول. فلم تكن الأجهزة السرية البريطانية السابقة للـ S.I.S الحالي قد أنشئت إلا في العام ١٩٠٩ وحتى اندلاع الحرب بقيت مجرد وكالة صغيرة تعوزها الإمكانات المادية، وأعجز من أن يكون لديها مدير مكتب متفرغ في الخارج. وكما أكد تقرير سري في ما بعد، فإنه بسبب فقدان هذه الإمكانات "قضت

العادة حتى العام ١٩١٤ باستخدام عملاء مؤقتين أثبت الحرب بسرعة عدم فعاليتهم". وعرف الـ MI1C خلال الحرب العالمية الأولى توسعًا ملحوظًا واحترافًا جزئيًا. وكان في تصرفه في بداية ١٩١٨ شبكة مؤلفة من أكثر من ٤٠٠ عميل بلجيكي وفرنسي كانوا يزودونه باستمرار وبدقة بمعلومات عن تحركات القوات الألمانية في بلجيكا المحتلة في شمالي فرنسا. وكانت نجاحات الـ MI1C وأولوياته مركزة بوضوح على الجبهة الغربية، ولم تكن لروسيا سوى أهمية ثانوية. وكان ضباط الـ MI1C في هذا البلد يشبهون إلى حد بعيد الهواة المتحمسين من الجيل السابق الذين يقومون بعمليات سرية في إنكلترا على عهد فيكتوريا وإدوارد السابع. وكانت بالكاد تؤثر تبجحاتهم على سياسة الحكومة البريطانية تجاه روسيا الشيوعية. ولم تكن التشيكا ترى في مآثرهم، الغربية أحيانًا، دليلاً على الفوضى أو عدم الاحتراف بل على العكس كانت تعتبرها جزءًا من مؤامرة غامضة ومتشعبة معدة من قبل الأجهزة السرية الغربية.

وبالرغم من عدم رضا لوكهارت الكامل عن عمليات الـ MI1C في روسيا فإنه كان شديد الإعجاب بالجرأة اللامتناهية لـ"سيدني رايلي" العميل الأكثر حيوية في الجهاز. وكان الاسم الحقيقي لهذا الأخير "سيغموند روزنبلوم" وكان الابن الوحيد لعائلة يهويدية ثرية من الجزء الروسي لبولندا حيث ولد في العام ١٨٧٤. وفي سنة ١٨٩٠ قطع كل صلاته بعائلته وهاجر إلى لندن. ليصبح في ما بعد مغامرًا دوليًا جزئيًا يجيد لغات متعددة وزير نساء من الدرجة الأولى مما أضفى على عمله المتجول من بلد لآخر هالة من النزوات المتقلبة أثرت سلبًا وأضلته أحيانًا كما أربكت العديد ممن حاولوا الكتابة عنه لاحقًا. وكان رايلي شخصيًا شديد الغرابة يتمتع بحس فطري للتعامل بالمعلومات بالإضافة لاستخفافه بالمخاطر مما أكسبه إعجاب السير "مانسفيلد كومينغ" الرجل الأول في الاستخبارات، ونستون تشرشل. وكان لوكهارت يصف

شخصيته اللامعة فيقول إنها مزيج "من الطبع الغني لليهودي وجرأة الإيرلندي الذي لا يهاب شيئًا".

ويؤكد كتاب رائج يحكي تاريخ الاستخبارات البريطانية على أن رايلي "تمتع بسلطة ونفوذ وتأثير لم يتسن لأي جاسوس آخر"، كما برع في القتل على أنواعه من "التسميم إلى الخنق وأتقن استخدام السكين والأسلحة النارية"، وكان "لديه أحد عشرة جواز سفر وامرأة لكل واحد منهم"[1]. لكن في الواقع كانت مآثره أقل إثارة إلا أنها تبقى مع ذلك ملفتة للنظر وبارزة.

إستقر رايلي قبل الحرب العالمية الأولى في سان بطرسبرغ حيث برز كرجل أعمال ناجح وكان متزوجًا من امرأتين وعمل نصف وقت لدى كومينغ بصفة "عميل مؤقت". وعندما عاد إلى روسيا في ربيع ١٩١٨ كان اسمه الرمزي ST١ وكانت شهرته المبنية على المغامرات الكبيرة والمقالب الصغيرة قد سبقته. فكان طبيعيًا أن لا تسر التشيكا مطلقًا لوجوده. وبكبريائه المعهودة استهل رايلي وصوله إلى موسكو في السابع من أيار - مايو بالذهاب مشيًا إلى الكرملين حيث أعلن للحرس أنه مبعوث من قبل "لويد جورج"، وطلب مقابلة لينين شخصيًا. وقد يبدو الأمر غير قابل للتصديق إلا أنه نجح في الوصول إلى أقرب معاوني سيد الكرملين، "فلاديمير بوننش - برديبيفتش" الذي ذهل لهذه الجرأة. واتصلت مفوضية الشؤون الخارجية بلوكهارت للتأكد من أن الزائر ليس دجالاً. وأقر لوكهارت في ما بعد أنه "قال في البدء إما أن يكون الرجل روسيًا منتحلاً شخصية إنكليزي أو يكون مجنونًا". لكنه عندما اكتشف عن طريق

---

١ - Deacon Richard, *A History of the British Secret Service*, F. Muller (Londres, 1969) pp. 139-142, 175.

بويس، مسؤول وحدة الـ MI1C المحلية، أن رايلي عميل سري بريطاني غضب كثيرًا واستدعى الأرعن إلى مكتبه "ووبخه بأسلوب أستاذ المدرسة وهدده بالاستغناء عن خدماته" لكن "رايلي قدم اعتذاره بكثير من اللباقة والبراعة مما دفعني في النهاية إلى الضحك". وانتحل الإنكليزي منذ ذلك الوقت شخصية يوناني من المشرق وجند عددًا من عشيقاته لمساعدته في العمل وبدأ بالتحضير الجدي لعملية الانقلاب على لينين[1]. ويثير رايلي دهشة الاختصاصيين السوفيات الذين استمرّوا يدرسون مساره غير الاعتيادي. فطبقًا لمؤلّف تاريخي سوفياتي رسمي حول عسكريي التشيكا كتب عام ١٩٧٩ كان هذا المسار "غنيًا بالأعمال البطولية" لكنه "لم يكن يتضمن أي شيء مثير أو خيالي" وولد في أوديسا من أب "كابتن إيرلندي" وأم روسية. وهذا الكتاب "الموثّق جيدًا" ينسب إليه خطأ لقب "المقيم الأول" (رئيس وحدة) للـ MI1C في روسيا في الوقت الذي كان أرنست بويس هو من يشغل هذا المنصب. يرى مؤرخ سوفياتي آخر أن رايلي ولد، في اوديا تحت اسم روز بنلوم[2].

ويشعر رئيس الـ K.G.B السابق الجنرال فلاديمير كريوتشكوف بانجذاب خاص نحو سيرة رايلي. فعندما عين مديرًا للمديرية العامة الأولى عام ١٩٧٩ طلب رؤية جميع الكتب المتعلقة برايلي والموجودة في المكتبة. وبحسب ما قاله أمين المكتبة "يبدو أنه قرأها كلها".

كان الكابتن هيل الأشهر بين زملاء رايلي واسمه الرمزي IK٨ وكان بشهادة لوكهارت "بنفس شجاعة وجرأة رايلي ويتقن الروسية مثله". وكان "جورج هيل

---

١ - Andrew, Secret Service, pp. 83-84, 214; Lockhart Robert Bruce, *Memoris of a British Agent* 2ème éd. (Londres, New York, Putnam, 1934), pp. 276-277.

٢ - Volkov Fedor, *Les Secrets de Whitechall et de Downing Street* (Moscou,1986) P. 33.

المرح". كما وصفه كيم فيلبي في ما بعد، يعتبر تلك الفترة "كمغامرة مسلية في صفحات حياتي". وكان والد هيل "تاجرًا إنكليزيًا من الطراز الأول ورائدًا في مجاله، قادته أعماله من سيبيريا إلى بلاد فارس". ويقول هيل إن الأسفار التي قام بها معه خلال طفولته رسخت في ذهنه ما سيصبح في ما بعد أفضل تحضير ممكن لمهنة التجسس.

وصل هيل إلى روسيا قبل شهرين من اندلاع ثورة تشرين الأول - أكتوبر. وبعد إلحاقه بمهمة لدى السلاح الجوي الملكي بدأ العمل لدى الـ MI1C في ربيع ١٩١٨. وعلى غرار لوكهارت كان يأمل في أن يفسخ البولشفيك معاهدة برست ليتوفسك ويستأنفوا الحرب. ويروي بغرور فاضح في مذكراته ذات العنوان الطنان: "اذهب وتجسس على الأرض"، كيف استطاع أن يكسب ثقة تروتسكي، وعن مساهمته في إنشاء الاستخبارات العسكرية السوفياتية والتشيكا. ويقول: "لم تعترض التقارير المقدمة إلى تروتسكي، وحفلات المسرح والعشاء، الهدف الذي رسمته لنفسي. فأولاً ساعدت هيئة الأركان السوفياتية على إنشاء شعبة استخبارات بهدف الكشف عن الوحدات الألمانية على الجبهة الروسية ولتأمين المراقبة المستمرة لتحركات القوات... وثانيًا نظمت شعبة بولشفية للتجسس المضاد لمراقبة الأجهزة السرية والبعثات الألمانية في بتروغراد وموسكو"[1].

لكن التقارير التي كان يرسلها هيل في تلك الفترة إلى الـ MI1C وإلى وزارة الحربية كانت أقل إثارة. ويقول فيها إنه "اتصل بالقائد العسكري لمنطقة موسكو بهدف تنظيم شعبة تحقق، من الوحدات الألمانية، ووعدهم بكل مساعدة ممكنة من إنكلترا".

---

١ - Hill G. A., *Go Spy the Land,* Cassell (Londres, 1932) p. 193.

لكنه لا يوجد أي دليل يؤكد على أنه ساعد شخصيًا على إنشاء تلك الشعبة. كما أنه من المستبعد أن يكون قد لعب أدنى دور في ولادة التجسس المضاد والتشيكا في أيار ـ مايو ١٩١٨. واعترف في ما بعد أنه لم يلتق أبدًا بالرئيس الأول للشعبة ياكوف بليومبين. لكنه من المرجح أن يكون قد جرى تبادل للمعلومات بشأن الألمان. وخلال الحرب العالمية الثانية وبعد أن أصبح التعاون الأنكلو ـ سوفياتي جوهريًا أكثر عاد هيل إلى موسكو كضابط اتصال للـ S.O.E. وطبقًا لفيلبي فإن "الروس استقبلوه بسرور. فقد كانوا يعرفون كل شيء عنه". وفي صيف ١٩١٨ انتهى تعاونه مع البولشفيك بعد أن يئس من إقناعهم باستئناف المعارك وقام بإنشاء شبكة تحقق وتخريب للوحدات الألمانية والنمساوية بمساعدة "ضباط روس وطنيين"[١].

وفي حوالي شهر تموز ـ يوليو ١٩١٨ تآمر لوكهارت نفسه على إسقاط النظام على الرغم من أنه كذّب ذلك لاحقًا. فبمساعدة القنصل العام لفرنسا في موسكو "فرنان غرينار" أعطى لوكهارت مبلغ عشرة ملايين روبل إلى المجموعة المضادة للثورة في المركز الوطني في موسكو والتي تربطها صلات بعيدة بـ "سافينكوف" في الشمال والشرق وبالجيش الأبيض للجنرال "ألكسييف" في الكوبان. لكن لوكهارت وغرينار لم يكونا في مستوى دزرجنسكي للتغلب عليه. ففي شهر حزيران ـ يونيو أرسل هذا الأخير إلى بتروغراد اثنين من رجال التشيكا الليتوانيين ويدعيان "يان بويكيس" و"يان سبروجيس" بهويات مزورة تحت اسم "سميدكن" و"بريدس" مدعيَين تمثيلهما للجماعات السرية في موسكو وطالبَين دعم الحلفاء. فاستطاعا الوصول إلى "كرومي" الملحق البحري للسفارة البريطانية الذي بقي في المدينة بعد استدعاء السفير بهدف العمل على

---

١ ـ Hill, *Go Spy the Land*, pp. 196-197.

إغراق الأسطول الروسي في البطليق في حال لاحت إمكانية وقوعه بيد الألمان. وبدوره قدم كرومي بويكيس وسبروجيس إلى رايلي الذي تأثر كثيرًا لما رواه عن الحالة المتشائمة التي تعيشها القوات الليتوانية المتمركزة في العاصمة. ورأى رايلي في بويكيس وسبروجيس المفتاح الذي سيسمح أخيرًا بقلب السوفيات فاعتبر أن "الجنود الوحيدين في موسكو هم الليتوانيون. فمن يسيطر عليهم يسيطر على العاصمة، وهم ليسوا بولشفيك بل يعملون بخدمتهم لأنه ليس لهم مورد آخر. أي أنهم مرتزقة أجانب والمرتزقة الأجانب يعملون من أجل المال وهم بتصرف من يدفع أكثر. فإذا استطعت أن تشتري الليوتوانيين ستصبح مهمتي سهلة جدًا". وأقنع كرومي ورايلي الليتوانيين بزيارة لوكهارت في موسكو"[1].

وتزامن التحضير للانقلاب مع بدء التدخل العسكري البريطاني في شمال روسيا. فقد جرى إنزال سرية من رماة البحرية بأمرة الجنرال "فردريك بول" في مرفأ "مورمنسك" في القطب الشمالي في السادس من آذار ـ مارس، أي بعد ثلاثة أيام من توقيع معاهدة "برست ليتوفسك". ولم يتم إرسال رجال السريّة لقلب الحكومة البولشفية بل لمنع الألمان من الاستيلاء على الكميات الضخمة من العتاد الحربي المرسلة إلى الجبهة الشرقية. لكن طبيعة هذا التدخل تغيرت في الثاني من آب ـ أغسطس عندما أنزل بول في "أرخانجلسك" قوة مؤلفة من مفرزة من البحرية الملكية وكتيبة فرنسية وخمسين بحارًا أميركيًا. وظاهريًا كان الهدف مرة أخرى حماية المعدات المكدسة في هذا المرفأ. أما حقيقةً فقد أُعدّ التدخل ليتزامن مع محاولة انقلاب ضد البولشفيك. وقبل

---

١ - Reilly S. G., *The Adventures of Sidney Reilly, Britain's Master Spy and Marrot, E. Mathews* (Londres, 1931) p. 21.

ذلك بأسبوعين تم أسر مفرزتين من العملاء أنزلوا سرًا. لكن العملية التي دبرها الكابتن "جيورجي شابلين"، ضابط البحريّة السابق المفصول إلى البحرية الملكية، في ليل الواحد من آب ـ أغسطس قد نجحت نجاحًا تامًّا .

كان من شبه المؤكد تواطؤ شابلين مع ضابط الاستخبارات العامل لدى بول، الكولونيل "س.ج.م. ثورنهيل"، الذي عمل سابقًا لدى الــ MI1C. فعندما أنزلت قوات بول في اليوم التالي كان ذلك بناءً على دعوة من منظمة تطلق على نفسها اسم "الإدارة العليا للمنطقة الشمالية"[١].

والغريب أن الإنزال في ارخانجلسك، حيث أقام بول مقره العام وحكم وأصدر المراسيم كما لو كان نائبًا للملك، لم يسبب على الفور قطيعة بين الإنكليز والبولشفيك. ففي الثامن من آب ــ أغسطس أبرقت وزارة الخارجية إلى لوكهارت قائلة: "عليك الحفاظ بقدر المستطاع على العلاقات القائمة مع الحكومة البولشفية، فأي قطيعة أو إعلان حرب يجب أن يصدرا عنها وليس عن الحلفاء"[٢]. وفي نهاية شهر آب ــ أغسطس حضر الليوتنانت بويسكي وسبروغيس إلى موسكو لرؤية لوكهارت وقدّما إليه رسالة من كرومي. وكان لوكهارت على حذر دائم من العملاء المحرّضينّ لذا تفحّص الرسالة بدقة، فكان الخط خط كرومي والكتابة كتابته من دون شك... وعبارة "اصفق الباب قبل الخروج" نموذج للتعبير عند هذا الضابط الظريف. ويقول "ميل" إنّ الاجتماع الأول بين رايلي ولوكهارت والعملاء المخبرين في موسكو،

١ - Ullman Richard H., Anglo-Soviet Relations 1917-1921 (Princeton University Press, -1972) T. I, ch. 8.1691

٢ - Ibid., pp. 285-286.

جرى عقده في الأسبوع الثاني من شهر آب ـ أغسطس، مباشرة بعد لقاء لوكهارت مع "برزين" و"سبروغيس".

عاد بويسكي بعد مدّة لرؤية لوكهارت وبرفقته هذه المرة محرض آخر يدعى الكولونيل "إدوارد برزين" الذي قال لوكهارت في وصفه إنّه "ممشوق، قوي البنية ذو ملامح قاسية وعينين حادتين، وكان قائدًا لأحد الفيالق الليتوانية المسؤولة عن حراسة الحكومة السوفياتية". وحضر اللقاء رايلي وغرينار قنصل فرنسا العام. وأقنع برزين جميع الحاضرين بأن الأفواج الليتوانية مستعدة للإنضمام للعصيان وبأن "حسم الأمور لن يستغرق أكثر من خمسة أو ستة أسابيع". واتُّفق في الاجتماع على أن يتولى رايلي مهمة التفاوض مع الليتوانيين وقد جرت المفاوضات ابتداءًا من ٢٠ آب ـ أغسطس في منزل هادئ قدمته التشيكا لهذا الغرض. ومن أجل تمويل عملية الانقلاب دفع رايلي إلى برزين مبلغ ١،٢ مليون روبل فحولها هذا الأخير إلى التشيكا.

شارك الفرنسيون والأميركيون في عمليات مساندة للعناصر المخربة. وفي الخامس والعشرين من آب ـ أغسطس عُقد اجتماع للعملاء لدى القنصل العام الأميركي بحضور ويت بول والملحق العسكري الفرنسي الجنرال "لافرن" وبغياب لوكهارت، واتفق خلاله على أنه بعد الرحيل المداهم لدبلوماسيي الدول الحليفة الباقين في روسيا فإن التجسس والتخريب سيكونان من مسؤولية عملاء يعملون في الخفاء، وتم اختيارهم كالآتي: رايلي يمثل انكلترا، الكولونيل هنري دو فرتومان فرنسا، وكسينوفون دو بلومنتال كالاماتيانو الولايات المتحدة، وكان أميركيًا من أصل روسي ـ يوناني. ولكن كان بين الحاضرين عميل للتشيكا وهو رينيه مارشان، صحفي يعمل لدى البعثة الفرنسية كان مناصرًا سريًا للبولشفيك وأصبح في ما بعد من مؤسسي الحزب الشيوعي الفرنسي.

في الثامن والعشرين من آب ـ أغسطس توجه رايلي برفقة برزين إلى بتروغراد. وفضل دزرجنسكي انتظار الوقت المناسب للتحرك وترك المتآمرين يتورطون أكثر فأكثر. لكن لعبة الفأر والقطة هذه توقفت فجأة بعد اغتيال الـ KD لرئيس التشيكا في بتروغراد "م. أوريتسكي"، وإصابة لينين بجروح خطرة بعد أن أطلقت النار عليه إرهابية اشتراكية ثورية مختلة عقليًا على الأرجح وتدعى "فانيا كابلان". وقد أفضى هذان الحادثان غير المترابطين إلى موجة من الإرهاب. ففي مدينة بتروغراد وحدها أعدم أكثر من خمسمائة سجين سياسي في غضون يومين[١].

وطبقًا للرواية السوفياتية "بدأ عملاء التشيكا بتصفية مؤامرة لوكهارت" فجر الواحد والثلاثين من آب ـ أغسطس. وقد فشلوا في وضع يدهم على رايلي ولكنهم قبضوا على الأميركي كالاماتيانو الذي كان منتحلاً شخصية مهندس روسي باسم "سربوفسكي"... واكتشف عملاء التشيكا داخل عصاه لائحة بأسماء مضادين للثورة قبضوا أموالاً منه. وكان لوكهارت على العكس من رايلي وكالاماتيانو... فقد كان محميًا بالحصانة الدبلوماسية. لكن ذلك لم يمنع "صوت جلف" من إيقاظه في الثالثة والنصف صباحًا آمرًا إياه بالنهوض فورًا". فتح عينيه ورأى فوهة مسدس مصوب ناحيته وعشرة رجال من التشيكا في غرفة نومه. واقتيد لوكهارت مع معاونه الكابتن هيكس إلى اللوبيانكا حيث أخضعه للاستجواب مساعد دزرجنسكي الليوتنانت ياكوف بيترز. ويقول لوكهارت في وصف الأخير "كان شعره الأسود الطويل والمتموج يذكر بالشعراء وكان ممشطًا إلى الوراء كاشفًا عن جبين عريض... وكانت تعابير وجهه مخيفة ومهيبة". سأله بيترز "هل تعرف المرأة كابلان؟" فرد عليه بأنه لا يملك الحق باستجوابه. وتابع

١ ـ Leggett, *Cheka*, ch. 6.

بيترز "أين رايلي؟" فالتزم لوكهارت الصمت. عندها أخرج بيترز من حافظة مجلده جواز مرور للجنرال بول في ارخانجلسك كان لوكهارت قد أعطاه إلى المميزين الليتوانيين عضوي التشيكا. فسأله بيترز "هل هذا خطك؟" عندها فهم القنصل الإنكليزي أن بويسكي وسبروجيس محرّضان لكن برزين بقي بعيدًا عن أي شك. وقال لبيترز "بتهذيب مركز" بأنه لن يرد على أي سؤال.

روى بيترز في ما بعد أن لوكهارت "كان خائفًا لدرجة أنه لم يفكر بإبراز جوازه الدبلوماسي. من المحتمل أن يكون قد ظن أن تهمة قتل لينين ستوجه إليه وكان ضميره غير مرتاح بالتأكيد". وبالفعل اعتقد لوكهارت أن بيترز يسعى لاتهامه بالمشاركة في الاعتداء الذي ارتكبته كابلان. لكن خشيته المباشرة كانت تتعلق بدفتر صغير يحمله بجيبه ولم يلحظه رجال التشيكا بأعجوبة عند تفتيشهم لشقته. وكانت مدونة فيه بشكل مرموز لائحة الأموال المدفوعة إلى المضادين للثورة وإلى سافينكوف ورايلي من دون شك. ولخوفه من أن يفتضح أمره طلب الإذن بالذهاب إلى الحمام. وبينما كان حارسان مسلحان ينتظرانه وراء الباب مزق الصفحات المهمة واستعملها كورق تواليت.

حوالي السادسة صباحًا وضعت امرأة ترتدي ثيابًا سوداء، شعرها أسود وعيناها تعبتان ومحاطتان بالأسود بمواجهة لوكهارت وهيكس. "عرفنا أنها كابلان. وقد أمل البولشفيك من دون شك إشارة منها توحي بمعرفتنا. وكانت برودتها غير طبيعية، اتجهت صوب النافذة ووضعت رأسها على يدها ونظرت إلى الخارج صوب ضوء النهار. وقفت هناك، صامتة هادئة وكأنها مستسلمة لقدرها إلى أن أمسك بها الحراس وأخرجوها". وبعد أربعة أيام أعدمت كابلان رميًا بالرصاص في فناء في الكرملين من دون أن تعلم إن كانت قد نجحت في اغتيال لينين أم لا.

في التاسعة صباحًا أفرج عن لوكهارت وهيكس من اللوبيانكا. وبعد عودتهما إلى شقة لوكهارت اكتشفا أن التشيكا أوقفت عشيقة هذا الأخير "مورا بكندورف".

كان رايلي في ذلك الوقت في بتروغراد وعلى الأرجح لم يعلم بتوقيف لوكهارت. وفي الواحد والثلاثين من آب - أغسطس ظهرًا، أي بعد ثلاث ساعات من الإفراج عن لوكهارت، وصل رايلي إلى شقة أرنست بويس وعرض له الخطوط العريضة لخطة عصيان الفرق الليتوانية في الكرملين. ويقول رايلي "إن بويس وجد في الخطة مجازفة كبيرة لكنه رأى أنها تستحق المحاولة". وأضاف أن مسؤولية الفشل ستقع على رايلي. ثم ذهب بويس إلى السفارة البريطانية بنية الإتيان بكرومي لكي يطلعه على الخطة... لكنه عندما وصل وجد كرومي ميتًا. وكان حشد هائج موجّه من قبل رجال التشيكا قد تجمع قرب السفارة بعد تردد إشاعة عن لجوء قاتل أوريتسكي إليها ثم اندفعوا إليها ودخلوها. فأراد كرومي أن يمنع الرعاع من الدخول لكنهم أنذروه بالوقوف جانبًا وإلا "فسيقتل مثل الكلاب" ففتح النار عليهم وقُتل بالتراشق الذي حصل[1].

أدى دهم شقة العميل الفرنسي فرتومان، على الأرجح بعد وشاية المخبر رينيه مارشان، في الساعات الأولى من الأول من أيلول - سبتمبر إلى اكتشاف مواد متفجرة معدة لعمليات التخريب. وفي الوقت الذي تجنب فيه فرتومان القبض عليه أعلن السوفناركوم بلهجة الانتصار في اليوم التالي: "اليوم الموافق في الثاني من أيلول - سبتمبر تمت تصفية المؤامرة التي خطط لها دبلوماسيون أنكلو - فرنسيون على رأسهم لوكهارت رئيس البعثة البريطانية وغرينار القنصل العام لفرنسا والجنرال الفرنسي

١ - Debo R. K., Revolution and Survival The Foreign Policy of Soviet Russia 1917-1918 (Liverpool University Press, 1979), p. 361.

لافرن وآخرون. وقد كان هدف هذه المكيدة اعتقال مجلس مفوضي الشعب وتسليم السلطة في موسكو إلى دكتاتورية عسكرية وكان تنفيذ كل ذلك موكلاً إلى قوات سوفياتية مرتشية".

ولا يشير البلاغ بالطبع إلى أن فكرة استخدام قوات سوفياتية في عملية الانقلاب أوحى بها محرضون من التشيكا. كما حاول أيضًا أن يبرر خرق حصانة لوكهارت الدبلوماسية إذ ورد فيه: "في المقر العام السري للمتآمرين أوقف إنكليزي كشف هويته بعد مثوله أمام لجنة التحقيق الخاصة قائلاً بأنه لوكهارت الممثل الدبلوماسي. وبعد التحقق من قوله أطلق سراحه فورًا".

وكشف البيان عن أن رايلي، "عميل لوكهارت"، قدم ١،٢ مليون روبل لتمويل المؤامرة وأن بعثات أخرى للدول الحليفة متورطة فيها. وبالرغم من أنه لم تجر الإشارة رسميًا إلى مارشان بوصفه مخبرًا لدى التشيكا فإنه أدلى بروايته عما جرى في لقاء الخامس والعشرين من آب - أغسطس في رسالة احتجاج وجهها إلى الرئيس الفرنسيّ بوانكاريه. وقد عثر على نسخة من هذه الرسالة في الوقت المناسب وعلى الأرجح بعد تدبير مسبق خلال عملية تفتيش قامت بها التشيكا ونشرت في الصحافة الشيوعية.

وفي بيان الثاني من أيلول - سبتمبر وفي تصريحات لاحقة قدم لوكهارت على أنه لولب المؤامرة. وكان الهم الأساسي لهذا الأخير في تلك المرحلة من الأزمة الإفراج عن عشيقته المسجونة. وفي الرابع من أيلول - سبتمبر ذهب إلى مفوضية الشؤون الخارجية ودافع عنها، لكن من دون جدوى. عندها خطر على باله أن يلجأ إلى بيترز... فذهب إلى اللوبيانكا حيث آثار قدومه "عصبيّة وأخذًا وردًّا مشبوهَين بين حراس المدخل". إستمع بيترز بصبر إلى شكاوى لوكهارت وأكد له على أنه إذا كانت

بريئة فلا داعي للقلق. وتابع "لقد وفرت علي متاعب... فرجالي يبحثون عنك منذ ساعة... لديّ مذكرة توقيف بحقك". ورغم معارضة مفوضية الشؤون الخارجية أوقف لوكهارت على الفور وأمضى الشهر التالي في السجن.

وفي الخامس من أيلول ـ سبتمبر، ومن أجل تبرير التوقيف الثاني للوكهارت في أقل من أسبوع، نشرت جريدة الإزفستيا بيانًا وقّعه دزرجنسكي وزينوفييف رئيس الحزب في بتروغراد وتتضمن اتهامات أخطر من السابقة. فقد اتُّهم الإنكليز والفرنسيون بأنهم المخططون للاعتداء الذي استهدف لينين ولكونهم القتلة الحقيقيين لـ"أروتيسكي": "لقد قتلوا الرفيق أورتيسكي لأنه توصل إلى جمع خطوط المؤامرة الإنكليزية في بتروغراد". وفي الحقيقة حاول محرّضو التشيكا من دون جدوى إقناع العملاء البريطانيين بتنظيم اعتداء لكي يتسنى لهم فضحه علنًا بعد ذلك. وفي حوالي الثاني والعشرين من آب ـ أغسطس قال برزين لرايلي إنّه لكي ينجح الانقلاب يجب اغتيال لينين وتروتسكي وذلك لسببين ضروريين: "الأول... إن اعتماد فكرة توقيفهما قد لا تنجح لأن قدراتهما الخطابية الهائلة قد تؤثر على الذين سيأتون لتنفيذ المهمة. لذا من الأفضل الإقلاع عن الفكرة. ثانيًا... إن اغتيال اثنين من الزعماء سيحدث حالة من الرعب والبلبلة تؤدي إلى انهيار المقاومة".

وقال رايلي لهيل بأنه "ثنى برزين بشدة عن الذهاب قدمًا في خطته هذه وأبلغه بأنه لن يدعمه بأي شكل من الأشكال"، وتابع قائلاً إن السياسة الحكيمة تقضي "بعدم تحويلهما إلى شهداء بل بإذلالهما أمام أعين الناس". وفي هذا السياق كان رايلي يفكر بإجبار لينين وتروتسكي على خلع سرواليهما والسير في شوارع موسكو بالثياب الداخلية. وكان واضحًا عدم رغبة التشيكا في كشف النقاب عن مؤامرة تسعى لجعل رمزين أسطوريين للثورة موضع سخرية. لكن أرنست بويس رئيس الوحدة المحلية للـ

MI1C كان أقل معارضة لفكرة التصفية الجسدية إذ إنّه طلب من أحد عملائـه الـروس "إذا كان مستعدًا لقتل عضو أو عضوين بـارزين فـي الحكومـة السـوفياتية"[1]. لكنـه فـي السادس من أيلول ـ سبتمبر قام هذا العميل بابتزاز بويس مطالبًـا بالمـال ثمنًـا لسكوته. ففضل بويس "تلبية مطلبه ليأمن عدم توجيه اتهامات ضده".

كانت عمليات الـ MI1C في روسـيا قـد أصابهـا انهيـار شـبه تـام. فبويـس أوقـف ورمي بسجن يتكدس فيه المعتقلـون بـأعداد هائلـة. وأدخلـت السـجن أيضًـا العديـد مـن عشيقات رايلي الذي استطاع بفضل جواز سفر مـزور أمّنـه هيـل مغـادرة روسـيا مـن دون شبهات على متن سفينة شحن هولندية. وتمكن هيل أيضًا مـن تجنـب الوقـوع فـي الأسر ولكن تم إعدام ثمانية عشر من عملائه. لذا رأى وجوب طلب تعليمـات إضـافية من لندن لإعادة تنظيم شبكة جديدة واختيار مركز قيـادة آخـر. أمـا لوكهـارت فـأمضى معظم مدّة اعتقاله فـي رفاهيـة فـي شـقة وصيفـة شـرف سـابقة فـي الكرمليـن، وسُـمح لعشيقته بزيارته بعد أن أطلق سراحها. وسكن برزين معه بعض الوقت ليتجسس عليـه لكن لوكهارت خشي أن يتبادل الكلام معه... وفي شهر تشرين الأول ـ أكتوبـر أطلـق سراح لوكهارت وبويس وهيل بالإضافة إلى غربيّين آخرين بعد الإفراج عـن رسـميّين سوفيات كانوا محتجزين في لندن. ولغرابة الأمـر كـان وداع لوكهـارت لبيـترز حـارًا. فأهداه بيترز صورة تحمل توقيعه وأطلعه علـى صـور زوجتـه الإنكليزيـة المقيمـة فـي لندن وطلب منه إيصـال رسالة إليها. لكنه بعد أن فكر قليلاً عاد عن طلبه قائلاً "لا أريد أن أكلفك مشقة ذلك ثم ما إن تخرج من هنا ستقول لجميع من حولك بأنني ألدّ أعدائك". فعارضه لوكهارت لتفوهه بهذه السخافات. ويقول إنه "بمعزل عن السياسـة، لا أضمـر

---

١ - Hill, *Go Spy the Land*, p. 238.

له أي حقد وسأذكر طوال حياتي لطفه. وأخذت الرسالة". وعرض عليه بيترز البقاء في روسيا: "بإمكانك أن تعيش هنا وتتمتع بالسعادة. سنؤمن لك عملاً وفي جميع الأحوال فالرأسمالية مقضي عليها". لكنه تجنب أن يقول للوكهارت بأن مورا كانت جاسوسة ألمانية. وبعد مرور بضع سنوات نشر بيترز ذلك في العام ١٩٢٤ للاحتجاج على الحملة العنيفة المعادية للسوفيات التي كان يقودها لوكهارت في إنكلترا.

عاد لوكهارت إذن إلى إنكلترا وكذلك فعل بويس ورايلي. أما هيل فاستطاع الوصول إلى فنلندا حيث تلقى من كومينغ أمرًا بالعودة إلى روسيا لبضعة أسابيع من أجل مساعدة بعض المجموعات المعادية للبولشفيك على التخريب. ونال هيل وسام الخدمة المميز في حين نال رايلي وسام صليب الحرب. وفي شهر كانون الأول – ديسمبر حكمت المحكمة الثورية العليا في موسكو بالإعدام غيابيًا على لوكهارت ورايلي وغرينار وفرتومان. أما كالاماتيانو فبقي في السجن وجرى إيهامه مرتين بأنه سيساق إلى منصة الإعدام على أمل حمله على الاعتراف ولكنه صمد. وفي النهاية تم تخفيف الحكم بحقه ثم سمح له بالعودة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢١[١].

وقد اعتبرت "تصفية مؤامرة لوكهارت" انتصارًا بطوليًا. ويؤكد مؤلف تاريخي سوفياتي رسمي على أن "الضربة التي وجهتها التشيكا إلى المتآمرين توازي الانتصار في معركة حربية أساسية". ولكن في الحقيقة لم يعد الأمر كونه مناوشة... فخصم التشيكا لم يكن تحالفًا محددًا من الحكومات الرأسمالية بل حفنة من المغامرين عملوا أغلب الوقت من تلقاء أنفسهم في خضم الفوضى. أما العنصر الأكثر إعدادًا في المؤامرة، أي عصيان القوات الليتوانية في موسكو، فقد أوحت به التشيكا نفسها. لكن

---

١ - Andrew, *Secret Service*, pp. 218-219, Leggett, *Cheka*, p. 283.

هذه الأخيرة برهنت عن اتقانها لعبة استخدام عملاء الاختراق والتحريض مما سمح لها في عشرينات القرن العشرين أن تسجل انتصارًا أكثر أهمية على الاستخبارات البريطانية (S.I.S).

في بداية العام ١٩٢٠ لم تعد القوات البيضاء تشكل أي تهديد جدي للبولشفيك. وفي السابع عشر من كانون الثاني – يناير صدر مرسوم موقع من قبل لينين ودزرجنسكي يعلن عن "إلغاء عقوبة الإعدام لأعداء السلطة السوفياتية". وفي السادس من شباط – فبراير أعلن لينين أمام مؤتمر للتشيكا في الأقاليم بأن عقوبة الموت ما زالت أمرًا مناسبًا وقد تكون ضرورية على الأرجح للانتهاء من حالات التمرد والحركات المضادة للثورة". وقد أدى الاجتياح البولندي لأوكرانيا والحرب التي تبعته ودامت ستة أشهر بالتشيكا إلى السحق الوحشي لموجة جديدة من المؤامرات الحقيقية والوهمية. "بفضل المعركة الحاسمة التي خاضتها أجهزة التشيكا تم تعطيل خطط البولنديين البيض ومؤيدي الوفاق الهادفة إلى تقويض قدرات القتال للجيش الأحمر عبر عمليات التجسس والتخريب واللصوصية". وفي نهاية ١٩٢٠ دافع "مارتن لاتسيس" مساعد دزرجنسكي عن حق التشيكا بممارسة مراقبة شاملة للمجتمع السوفياتي لأن "الثورة المضادة انتشرت في كل مكان وفي جميع قطاعات الحياة وبأشكال مختلفة. وبالتالي فمن الطبيعي أن لا يغيب قطاع من قطاعات الحياة عن نطاق عمل التشيكا". وكانت رؤية لاتسيس التوتاليتارية تحمل بذور شرطة الدولة الستالينية التي ستبصر النور في ثلاثينات القرن العشرين.

أعدمت التشيكا بين عامي ١٩١٧ و١٩٢١ /٢٥٠,٠٠٠/ شخص. وفي العام ١٩٢٢ بعد انتصار البولشفيك في الحرب الأهلية اعتبر العديد من أعضاء الحزب أنه آن الأوان للاستغناء عن خدماتها. ولكن كما كان متوقعًا لم توافق التشيكا على ذلك.

وبالرغم من الحد من نموها وتقليص صلاحيتها فإنها استمرت ولو بشكل مختلف قليلاً من ذلك. وقدر مؤتمر السوفيات التاسع لعموم روسيا في الثامن والعشرين من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢١ "أنه بعد تعزيز النفوذ السوفياتي داخل البلاد وخارجها يمكن الحد من مهمات التشيكا ووكالاتها". فاستبدلت في الثامن من شباط ـ فبراير ١٩٢٢ بمديرية الدولة السياسية (GPU) التي أصبحت من ثم جزءًا من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD). وكان دزرجنسكي على رأس هذين الجهازين ابتداء من آذار ـ مارس ١٩١٩. وكانت دائرة عمل الـ GPU محددة حصرًا بالتخريب السياسي، فيما كانت العدالة الجنائية العادية من اختصاص أجهزة القضاء والمحاكم الثورية. وكانت تتمتع فقط بصلاحية التحقيق وليس بتطبيق العدالة بمعزل عن القانون وإرسال الناس إلى مخيمات الاعتقال. لكنها عادت واستعادت معظم صلاحيات التشيكا بمباركة لينين الذي كتب في العام ١٩٢٢: "لا يجدر بالقانون أن يلغي الإرهاب ومن يأمل بتحقيق عكس ذلك فهو ضحية الوهم أو الخداع". ومنحت المراسيم الصادرة في شهري آب ـ أغسطس وتشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٢٢ الـ GPU صلاحية النفي والسجن وأحيانًا إعدام المضادين للثورة واللصوص وبعض المجرمين. وخلال مرحلة تشكيل اتحاد الجمهوريات السوفياتية الإشتراكية عام ١٩٢٣ ارتفعت وضعية الـ GPU لتصبح جهازًا فدراليًا وأصبح اسمها المديرية السياسية للدولة الموحدة (OGPU). وألحق معهد قضائي بالـ OGPU لإصدار أحكام سريعة بحق المعادين للثورة والجواسيس والإرهابيين. وهكذا لم تكن التشيكا بنظر مؤسسيها أكثر من وسيلة موقتة لحماية الثورة في ساعة الشدة فإن حليفاتها من GPU و OGPU وغيرها ربطت ربطًا محكمًا بنواة الدولة السوفياتية[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٤٨ ـ ٦٩.

الإتّحَاد السوفيَاتي ووسوَاس الجاسوسيَّة

إن بعض المقاطع البليغة الأثر من نصوص الـ K.G.B مستوحاة من ساعات دزرجنسكي الأخيرة، وفي هذا الإطار كتب "فدورفومين"، رأس خريجي مدرسة تشيكا القدماء والناجي من عمليات التطهير الستالينية يقول: "لقد سقط في موقعه وهو يقاتل أعداء الحزب". وقبل حوالى ثلاث ساعات من موته سنة ١٩٢٦، توجه دزرجنسكي إلى كامل اللجنة المركزية ومجلس الرقابة المركزي، ففي خطاب ناري موجَّه إلى كل الذين ابتعدوا عن الخط الرسمي للحزب اللينيني، طرح على الحضور هذا السؤال ـ المبرَّر تمامًا ـ حسب فومين: "تعلمون ولا ريب من أين أستمد قوتي؟ لقد عملت كل ما بوسعي (أصوات ترتفع: "هذا صحيح"، "نعم"). ومن أجل ذلك يثق بي ويقدّرني كل واحد منكم. وبالقدر الذي لن أقاوم فيه عملاً أملته النية الطيبة، سأهاجم كل فوضى بما أوتيت من قوة".

وفور تقديم هذا الولاء الفريد، مات دزرجنسكي إثر نوبة قلبية. دفعت هذه الوفاة في جلسة مكتملة، وقد كان لها شرف الاستماع إلى آخر خطاب له، لتقديم مدح أكثر إسرافًا كذلك: "فخلال الفترات الصعبة المتسمة بالمؤامرات المتواصلة وبالانتفاضات المعادية للثورة، وبينما كانت مناطق بكاملها من التراب السوفياتي تنهار والمجموعة الدموية من أعدائها تحاصر البروليتارية المناضلة من أجل حريتها، فإن دزرجنسكي، بقدرة فوق بشرية، بقي في موقعه، أيامًا وليالٍ، لا ينام ولا يأكل ولا يركن إلى

الراحة؛ مما دفع حتى أعداء الشغيلة على احترامه، الذين كانوا مع ذلك قد حقدوا عليه. وقد اكتسب بوقاره وجرأته ونبله النادر سلطة واسعة".

وقد كان موت دزرجنسكي المفاجئ جاء في وقته المناسب بالنسبة لستالين. فقد أصبح انتصاره أمرًا مفروغًا منه في الصراع الطويل على السلطة الذي تلا وفاة لينين. وفي الحقيقة، سيقاوم فيليكس الحديدي ـ وعلى الأرجح دون نجاح ـ استعمال دائرة أمن الاتحاد السوفياتي GPU (الملحقة بـ NKVD عام ١٩٢٢) التحريض والتضليل في معركته ضد الانشقاق داخل الحزب. حتى وإن لم يتردد هو شخصيًا باستعمال هذه الأسلحة ضد غير الشيوعيين دون وازع من ذمة أو ضمير...

منذ وفاة لينين ترأس دزرجنسكي المجلس الأعلى للاقتصاد الوطني (Vesenkka) وبقي في الوقت ذاته على رأس أداة أمن الاتحاد السوفياتي GPU. وهو لم يسمح بالتأكيد بمهاجمة "الاختصاصيين البورجوازيين" ولا بانطلاق المعركة الوحشية في الأرياف "ضد الكولاك" التي أطلقها ستالين في السنوات اللاحقة. وفي الخطاب التاريخي، الذي ألقاه قبل وفاته بثلاث ساعات، كان قد انتقد الجهاز الحزبي بقسوة غير مألوفة:

"عندما أتأمل جهازنا وتنظيمنا وبيروقراطيتنا العجيبة، والفوضى التي لا توصف والشكليّة المفرطة ترتعد فرائصي رعبًا".

أما "فياتسلاف رودولفوفيتش مجنسكي" الرجل الطويل والضعيف، ذو النظارة الأنفية الفضية، المعين خلفًا لدزرجنسكي، فكان أكثر لينًا من سلفه. أما في الظاهر فإن الرجلين يتمتعان بعدة صفات مشتركة، فكلاهما كانا من البلاشفة القدماء وسليلا عائلتين بولونيتين عريقتين. فقد دخل مجنسكي مدرسة تشيكا بعد قليل من إنشائها وأصبح أول رئيس مساعد عند إنشاء دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU. ولا شك في أنه كان

الأكثر عقلانية من بين زملائه، أمّا المنشق أغابكوف، ومع أنه أصدر أحكامًا قاسية على زملائه القدماء، فوصفه بأنه "رجلٌ عميق الثقافة كونه تلقى تربية رائعة". ويقول فومين إنه سبق لمجنسكي أن أتقن تمامًا اثنتي عشر لغة عند التحاقه بتشيكا؛ وقد تعلم في ما بعد الصينية واليابانية والفارسية والتركية. وهو لم يكن متعدد اللغات فقط، بل كان يتمتع كذلك بثقافة واسعة وخاصة في الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات. ومع ذلك، فقد تمتع بشخصية أقل قوة بكثير من سلفه. وحتى الإطراء الرسمي لفومين يُقرّ بأن "صوته لم يكن صوت قائد" وأنه بالنسبة لعدد لا بأس به من معاونيه "كان من المزعج سماع أمر ما من رئيس دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU يبدأ بـ : "بتواضعٍ أطلب منك". أما "تروتسكي" الذي اضطهدته GPU مع بداية فترة مجنسكي فرآه رجلاً باهتًا بشكل غريب: "إن أفضل طريقة في وصف الأثر الذي تركه في نفسي هي القول بأنه لم يترك أي أثر إطلاقًا. فهو يوحي بظل رجل وهمي، أو بالأحرى بمخطط سيء لصورة غير ناجزة".

لم يكن مجنسكي ستالينيًا. فخلال الحرب الأهلية، كان قد انتقل إلى الجبهة لإعلام تروتسكي بأن ستالين حاك ضده مؤامرة "شديدة التعقيد". غير أنه لم يناهض جديًا قوة ستالين المتعاظمة[1]. وقبل أن يخلف دزرجنسكي بمدّة طويلة، كان يعاني من ذبحة صدرية، ويستقبل غالبًا زائريه ممددًا على أريكة داخل غرفته في اللوبيانكا، موضحًا لهم: "إن الأطباء أشاروا علي البقاء ممددًا"... وفي نيسان ١٩٢٩، أجبرته نوبة قلبية على التخلي عن نشاطاته خلال عامين. وعاد إلى الخدمة جزئيًا عام ١٩٣١، ولكن ابتداءً من عام ١٩٣٣، وبما أنه أصبح لا يستطيع صعود الدرج المؤدي إلى منزله في الكرملين، فقد أوى إلى غرفة Datcha خارج موسكو.

---

١ - Trosky, *My Life,* Mass.p. Smith (Gloucester,1970), pp. 448-450.

ولأن صحته لم تكن على ما يرام وهو غير مؤهل للقيادة، أخذت السلطة داخل دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU تنتقل تدريجيًا إلى "هنري غريغورفيتش إياغودا"، وهو يهودي، كان مساعد مجنسكي، ولكنّه كان أكثر طموحًا منه، وكان بدينًا، أحمر الوجه... وكان إياغودا، على النقيض من مجنسكي، من ناحية مظهره أو مسلكه. حتى أن ذكره بقي إلى الأمس القريب يثير بعض الحيرة في أوساط الـ K.G.B. وفي مذكرات هذه الفترة يذكَر اسمه دائمًا بكراهية. "فبقدر ما كان مجنسكي على قدر عالٍ من التربية، بقدر ما كان إياغودا قاسيًا، جاهلاً وفظًا"، هذا ما كتبه "أغابكوف".

وفي عام ١٩٢٣، عندما عيّنه دزرجنسكي المعاون الثاني للرئيس، فمن المؤكد أن خشونته وفظاظته لم تكونا قد ظهرتا بعد. فقد اعتُبر بيروقراطيًا فعالاً، نشيطًا وطموحًا. وكثرت ادعاءاته واشتدت قسوته، كما يحصل عادة مع البيروقراطيين وقد أفسدتهم سلطتهم المتعاظمة. وخلال صيف ١٩٣٦، عشية سقوطه، رآه أحد ضباطه منهمكًا في التحضير لاحتفال وقد هيأ له سترة من الصوف الأبيض مزينة بأشرطة مذهبة، وخنجرًا مذهبًا شبيهًا بخناجر ضباط بحرية القيصر، وسروالاً أزرق فاتحًا وحذاءً مبرنقًا مستوردًا[١].

لم يعطه ستالين دائمًا ثقته المطلقة وذلك بسبب نزعته اللاسامية من جهة، وحنينه للمعارضة اليمينية التي يقودها ذو المواهب الخارقة "نيقولاي بوخارين". وفي عام ١٩٢٨، أخبر بوخارين كامينيف أن أياغودا وتريليس المعاون الثاني لرئيس دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU وفرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO، كانا "معنا" ــ وكان اياغودا قد أخبره سرًا عن انتفاضات

---

١ - Orlov Alexandre, *The Secret History of Stalin's Crime*, Jarrolds (London,1954)p. 311

الفلاحين[1]. غير أن بوخارين تكهن أنه كان انتهازيًا في موضوع الدعم الذي لا يجب أن يعتمد عليه كثيرًا. وبهدف تعزيز هيمنته الخاصة على GPU، عيّن ستاين عام ١٩٣١ المؤهل الحزبي "أ. إ أكولوف" معاونًا للرئيس مع إياغودا، غير أنّه، وخلال أقل من سنة وُضع أكولوف جانبًا... متحينًا الفرصة لوضع رجلٍ مكانه... وتوصل ستالين لحبك مكيدة مع أياغودا... وقد كان هذا الرجل الذي يحركه الطموح، وليس الأفكار، مستعدًا للتحالف مع ستالين للارتقاء في مهنته، من دون أن يمنحه دعمًا غير مشروط بأي حال من الأحوال. أما "تريليسر"، الأكثر التزامًا بالجهات "المعارضة لليمين"، فتحالف مع بوخارين للتغلب على خط تروتسكي منذ عام ١٩٢٣. ولكن ومع نهاية عام ١٩٢٩، وكونه اعتبر تريليسر منافسًا محتملاً، نجح أياغودا بالتآمر عليه متعاونًا مع اللجنة المركزية... وبإبعاده عن دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU، وعلى ذلك فقد خلف أرتير أرتوزوف، المسؤول السابق لفرع تشيكا المضاد للجاسوسية KRO، تريليسر على رأس فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO.

إن نجاح دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU في خداع تروست Trust خلال العام الأول من إدارة مجنسكي - أياغودا تراجع نتيجة سلسلة مُرْبِكة من مساوئ الدوائر السرية في البلاد الأجنبية. فقد كانت شبكة مراكز GPU ودوائر الاستخبارات العسكرية قد نمت بسرعة غير أن أمنها كان مهددًا باستمرار لنقص في التجربة التنظيمية لتحرك العملاء المتحمسين والهواة أحيانًا المجندين ميدانيًا من بين الشيوعيين. ولنقص كذلك في إمكانيات عمل أنظمة حل الرموز. وفي ربيع عام ١٩٢٧ تم اكتشاف عملاء سوفيات في ثمانية بلدان على الأقل. وفي شهر آذار - مارس سقطت أهم شبكة

---

١ - Cohen Srephen F., *Bukharin and the Bolshevik Revolution 1888-1938*, Oxford University Press (New York, 1980), pp. 288-448.

عملاء يقودها الجنرال الأبيض "دانيـال فترانكو" عميل الـ GPU؛ وقد علم كذلك أن شخصية رفيعة المستوى تعمل في التجارة السوفياتية ـ التركيـة فـي إسطنبول تعـاطت الجاسوسية على الحدود التركية ـ العراقية. وأعلنت الشرطة السويسرية عن توقيف عضوين من شبكة أخرى. وفي نيسـان ـ إبريل، وخلال عملية تفتيش القنصلية في بكين، اكتشفت الشرطة الصينية كمية من الملفات تعود للجاسوسية السوفياتية، بينما أوقفت دائرة الأمن الفرنسية ثمانية أعضاء من شبكة أخرى يقودها "جان كريمر Jean Cremer" عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي. وفي شـهر أيار ـ مايو، عُلِم في النمسا، أن موظفين في وزارة الشؤون الخارجية قدموا معلومات سرية لمركز الـ GPU.

في الوقت ذاته، وفي لندن، داهم "الفرع الخاص" مراكز شركة التعاون (أركو) ومراكز البعثة التجارية وذلك بعد اكتشاف "أحد أنظمة الجاسوسية الأكثر تكاملاً والأشد شأنًا"..

لقد شكلت عمليات التفتيش في بكين ولندن والتي تلاها نشر جزء من الأوراق المضبوطة، صدمات قاسية جدًا أصابت الدوائر السرية السوفياتية. وكم كان الأمر مزعجًا بالنسبة للسوفيات عندما أتاحت الملفات المنشورة في الصين شيوع الكثير من التفاصيل عن عملياتهم السرية التي قامت بأكثريتها المخابرات العسكرية. وكانت عمليات الكشف هذه على علاقة بتعليمات موسكو التي نصت عن عدم التراجع "إزاء أي إجراء" والرحيل أو المذبحة إذا اقتضى الأمر لتسهيل الصراعات بين الشعب الصيني والغربيين؛ وقد قدمت هذه العمليات أيضًا أسماء بعض العملاء والتعليمات المرسلة للشيوعيين الصينيين بخصوص عمليات الاستخبارات ولوائح مفصلة بالعتاد الحربي المهرّب إلى الصين. وفي إنكلترا، رافق نشر الملفات ـ وهي على كل حال أقل

عددًا وحساسية من بكين - فضيحة مربكة للاتحاد السوفياتي وذلك لأن الإنكليز كانوا قد نجحوا باختراق كودات كتاباتهم الرمزية الدبلوماسية. وقد قرأ رئيس الوزراء ووزيرا الخارجية والداخلية في مجلس العموم مقتطفات واسعة من البرقيات المحلولة. وكان لعمليات الكشف هذه في بكين ولندن الأثر البالغ على الكرملين وعلى دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU بحيث أنها وصلت بدقة عند منعطف هام في العلاقات الروسية مع البلدين. فمنذ عام ١٩٢٢، كانت سياسة السوفيات الصينية قد قامت على التحالف مع الكومنتانغ الوطني. وفي نيسان - إبريل عام ١٩٢٧، وبعد الانتفاضة التي قادها الشيوعيون، وقعت شنغهاي تحت سيطرة جنرال من الكومنتانغ هو تشنغ كاي - تشك. وحسب ستالين، يقتضي "عصر تشنغ مثل الليمونة ثم طرحها". والحالة هذه، قام الشيوعيون بدور الليمونة... فمنذ وقوع شنغهاي تحت سيطرته، باشر تشنغ مذبحة منظمة طالت الشيوعيين الذين استولوا على المذبحة لحسابه. وعلى أساس تعليمات ستالين، ردَّ الشيوعيون بسلسلة من الانتفاضات المسلحة انتهت جميعها بإخفاقات مدوية[1].

بعد كشف هذه الشبكات، فإن انقطاعًا، أقل عنفًا، حصل كذلك بين السوفيات وبريطانيا العظمى التي اعتبرها هؤلاء دائمًا على أنها القوة العالمية الأولى. منذ الإضراب العام في ١٩٢٦ والذي نسبه خطأً بعض أعضاء الحزب المحافظ إلى مؤامرة روسية، تزايدت الضغوطات وذلك لكي تقطع حكومة بالروين علاقتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي. وفي ربيع عام ١٩٢٧ شكّل وجود أدلة دامغة جديدة على وجود جواسيس سوفيات في الجيش، القشة التي قصمت ظهر البعير. ففي أيار -

١ - Carr E. H, *Foundations of a Planned Economy,* Macmillan (Londres,1978), vol. III. ch. 84. 85.

مايو ١٩٢٧، أعلم السير "أوستن شامبرلين"، أمين سر وزارة الخارجية البريطانية، القائم بالأعمال السوفياتي "أركادي روزنغولتس" أن حكومة جلالتها تقطع العلاقات الدبلوماسية بسبب "التجسس المعادي لبريطانيا ونشر الإشاعات الكاذبة"... وكحالة غير اعتيادية، أخذ هذا المرسال منحىً شخصيًا، إذ إنه ذكر برقية محللة أرسلها إلى موسكو "روزنغولتس" في أول نيسان - إبريل "والتي تعلنون فيها عن اللوازم الضرورية للقيام بحملة سياسية ضد حكومة جلالتها"... وفي طريق عودته إلى موسكو، توقف روزنغولتس في وارسو، وكان يتناول فطوره في مطعم المحطة المركزية مع السفير السوفياتي "بيتر فويكوف Piotr Voikov"، وقبل انطلاق القطار بالضبط، أطلق عليه روسي أبيض مهاجر عدة طلقات صارخًا "هذا من أجل روسيا القومية وليس الأممية!"، وسرعان ما زعمت الحكومة السوفياتية أن "يدًا إنكليزية وجّهت قاتل فويكوف"... وفي عام ١٩٣٨، وخلال آخر محاكمة علنية قبل الحرب، اعترف روزنغولتس أنه اشتغل، ابتداءًا من عام ١٩٢٦ لحساب الدوائر السرية البريطانية!

وكان لعمليات الكشف المريعة عام ١٩٢٧ نتيجتان مباشرتان أصابتا دوائر الاستخبارات السوفياتية. أولاً مراجعة حاسمة لأنظمة الشيفرة، وكذلك للأمن في السفارات وفي مراكز إدارة أمن الدولة السوفياتية GPU. وهنا صدرت نشرة مستعجلة موجهة إلى البعثات والوفود التجارية السوفياتية تأمر بإتلاف كل ملف قد تكون مصادرته مزعجة. ففي طهران، وحيث كان خطر هجوم على السفارة السوفياتيّة في العاصمة الإيرانيّة معدومًا، فإن مركز الإطفاء القريب من المنطقة الدبلوماسية ذعر من النيران الملتهبة العملاقة التي أحرقت أرشيفات الـ GPU. وقد تلقت المراكز الأمر بعدم الاحتفاظ سوى بمراسلات الشهر السابق وبالتحضير

لإتلافها مباشرة في حال التفتيش. وقد توجب أن ينسجم تحرك العملاء المجندين من بين الشيوعيين المحليين مع قواعد جديدة كان هدفها التأكد من عدم وجود أي أثر لاتصالاتهم مع الـ GPU.

أخيرًا، ومن أجل حماية اتصالات GPU ورجال السلك الدبلوماسي، أمر الكرملين باعتماد كراسات وحيدة الاستعمال من أجل الاتصالات المرمزة والتي يستحيل حلّها... شرط استعمالها بشكل صحيح... ونجم عن ذلك أنه ما بين عام ١٩٢٧ وبداية الحرب العالمية الثانية، فإن محللي الرموز الغربيين لم يفكوا تقريبًا "كود" أي اتصال سوفياتي على مستوى عالٍ. وقد أصابت المدرسة الحكومية البريطانية للكودا والشيفرة GC & CS كذلك شيئًا من النجاح حول رسائل "بالكود" للكرملين، وحول اتّصالات عسكريّة سوفياتيّة روسيّة على جانب بسيط من الأهميّة. غير أنّ "أ.غ. دنيسون"، مدير العمليّات في الـ GC & CS لاحظ بمرارة أن العلانية التي تنقل بها الحكومة البريطانية فك الرموز السوفياتية "عرضت مهمتنا للخطر الشديد".

تأثر ستالين كثيرًا بأحداث ربيع عام ١٩٢٧. وكالعادة، فسرها على أنها البرهان عن مؤامرة إمبريالية واسعة المدى:

"مما لا ريب فيه أن أخطر مسألة معاصرة هي خطر حرب إمبريالية جديدة. ليس المطروح هنا "خطر" ما غامض أو خيالي، بل المطروح هو التهديد الحقيقي والمادي بحرب جديدة على العموم، وخاصة حربًا ضد الاتحاد السوفياتي"...

إن الرقم واحد يزعم أن عدوه الأساسي، أي البورجوازية الإنكليزية وسلطتها المدنية: "حزب المحافظين"، كانا السبب في ولادة "جبهة إمبريالية موحّدة" ضد الاتحاد السوفياتي:

"لقد كانت الإمبريالية الإنكليزية وستكون دائمًا الأكثر وحشية من بين أعداء الثورات البروليتارية"...

وضمن هذه المؤامرة المنظمة من قبل حزب المحافظين، كشف عن ثلاث مراحل. فالأولى كانت العنف الذي مورس على السفارة السوفياتية في بكين والذي كان الهدف منه "كشف ملفات "مخيفة" حول دور الاتحاد السوفياتي "المثير للقلق" وعلى هذا خلق مناخ من الاحتقار العام". وتمثلت المرحلة الثانية بالعنف الذي أصاب الأركوس Arcos في لندن وقطع العلاقات الدبلوماسية والتي كان هدفها "تنفيذ حصار دبلوماسي على الاتحاد السوفياتي في كل أوروبا" كمقدمة للحرب. وكانت المرحلة الثالثة هي مصرع فايكوف في فرصوفيا"... "المنظم من قبل عملاء حزب المحافظين"... والمفروض أنه يعيد تهيئة الظروف المناسبة التي قتل فيها الأرشيدوق فرنسوا فردينانو في ساراجيفو عام ١٩١٤، ومعها كانت بداية الحرب العالمية الأولى.

لم تبلغ المؤامرة هدفها... غير أن هناك من يتابعها بعناد. لقد موّلت بريطانيا دائمًا نشاطات "مجموعات من الجواسيس الإرهابيين في الاتحاد السوفياتي"... وحاولت تحريك انتفاضات متعمدة على بعضٍ من المهاجرين الروس البيض وعلى قوى إمبريالية أخرى. وقد أدان ستالين "كل قادة الحركة العمالية الذين اعتبروا أن خطر حرب جديدة هو مجرد "اختراع"... والذين هدّأوا العمال بأكاذيب ورعة عن السلام وجعلوهم لا يرون الاستعدادات البورجوازية للحرب". ولمواجهة الخطر الإمبريالي، هناك أولويتان مطروحتان بإلحاح... أولاً "تعزيز الطاقة الدفاعية لبلادنا" وذلك بالتنمية الاقتصادية وخاصة في قطاع التسليح، وبسهر ويقظة الشعب السوفياتي. أمّا الأولوية الثانية فهي تأمين "الجبهات الداخلية" والتي تفرض مباغتة الأعداء، دون رحمة داخل البلاد ومن بينهم الإرهابيين والمخربين في الصناعة

وغيرهم من "حثالة البشر". ومن بين هذه "الحثالة" هناك المعارضون حتى داخل الحزب الشيوعي:

..."ماذا أقول بعد هذا، عن معارضتنا التعيسة وتهجماتها الأخيرة ضد الحزب بينما هناك خطر حرب جديدة؟... ماذا أقول عن هذه المعارضة ذاتها التي ترى من المناسب مضاعفة تهجماتها ضد الحزب ولا ترى أي صراع آخر؟".

منذ عام ١٩٢٧، كانت المقاومة الوحيدة الحقيقية لسلطة ستالين المتنامية تأتي من داخل الحزب بالذات. مع العلم، أن هذا الخطر المزعوم عن الحرب طُرِح في حقبة كان ستالين خلالها يستعد لتعزيز هيمنته. لكن ومما لا ريب فيه "أن المصاب بالارتياب المرضي أكثر من غيره من بين القادة السوفيات": خروتشيف... آمن بنظريته الخاصة عن المؤامرة. وقد أصاب القلق أكثرية قادة الحزب كذلك. وكان من المستحيل عليهم إيديولوجيًا عدم الإيمان بذلك. ويعتبر كل بلشيفي أنه من الطبيعي أن لا تتسامح الرأسمالية العالمية مع توطيد السلطة السوفياتية. فالحكومات الإمبريالية ودوائرها السرية مضطرة للدس لإسقاط "دولة العمال والفلاحين". أما دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU وكونها "سيف الثورة ودرعها" فهي مضطرة لأن تفضح هذه المؤامرات الإمبريالية المحتومة والقضاء عليها في المهد. وبما أنه ومنذ نهاية الحرب الأهلية حتى استلام هتلر للسلطة عام ١٩٣٣، ليس هناك من قائد غربي مهم طرح بجدية إسقاط النظام البلشيفي، إذ لم تستطع GPU أن تكشف سوى عن مؤامرات خيالية، تحولت لدى ستالين إلى وسواس متفاقم. وخلال العشر سنوات التي تلت "التهديد بالحرب" لعام ١٩٢٧، أعدّ تدريجيًا "لأطروحة مؤامرة" أكثر فأكثر اتساعًا. وكانت هذه الأطروحة غامضة كذلك مثل ـ وكذلك أقل ضررًا من ـ خرافة المكيدة اليهودية العالمية التي أطاحت بهتلر. فأكبر مستبدَّين في التاريخ المعاصر سكنهما الوسواس ذاته وكلاهما

اعتبرا بأنّ الإبادة الجماعية هي الطريقة الوحيدة لتصفية المؤامرات التي آمنا بأنها تهددهما. وقد شاركتهما في التواطؤ بشكل أساسي دوائرهما الأمنية.

لقد استخدم ستالين دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU أولاً، لتعزيز سلطته الشخصية داخل الحزب الشيوعي. وكما في عهد تشيكا، كان واجب الـ GPU الرئيسي هو القضاء على "الثورة المضادة"، غير أن تحديد هذا التعبير تطور كثيرًا. ففي عصر لينين، كان يعني معارضة الحزب الشيوعي؛ وتحت حكم ستالين، وصل إلى أن يعبّر عن معارضة شخص ستالين. وبما أن المعارضة الوحيدة الفعلية لستالين كانت معارضة الشيوعيين الآخرين له، فقد استخدمت الـ GPU داخل الحزب الوسائل ذاتها التي كانت تستخدمها سابقًا ضد أعدائه أي التسلل والتحريض.

وكانت "المعارضة اليسارية" بقيادة تروتسكي زينوفييف هي الضحية الأولى. ففي شهر أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٢٧، "اكتشف" عنصر محرّض من GPU "مطبعة"، وهي كانت في الحقيقة آلة نسخ بسيطة... قد تسمح للمعارضة بطبع برنامجها. وحسب ألكسندر أورلوف، المنشق عن GPU، أنه عندما أعلم أياغودا ستالين بالأمر هتف هذا قائلاً: "جيد، لا بد الآن من ترقية عميلك السري الضابط لدى الجنرال رانغل Wrangel والإشارة في تقريرك إلى أن التروتسكيين تعاونوا مع أحد الحراس البيض التابعين لرنغل". وأبلغ ستالين حسب الأصول اللجنة المركزية ومجلس الرقابة المركزي بتآمر "المعارضة اليسارية مع البيض... وفي كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٢٧، تم طرد تروتسكي وزينوفييف من الحزب مع مئة من أنصارهما، بعد ذلك بشهر تراجع زينوفييف، ونقض "التروتسكية" فأعيد إلى صفوف الحزب.

بالمقابل، قاوم تروتسكي، فحذرته GPU، في كانون الثاني - يناير من العام التالي، بأنها ستنفيه إلى مكان بعيد من كازاخستان، إلى "ألما أتا Alma Ata"، قرب الحدود

الصينية. وبعد أقل من عشر سنوات، أطلقت الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD في أثره الرجل الأشد شراسة في تاريخها. غير أنه وفي عام ١٩٢٨، كانت مطاردة المشعوذين التروتسكيين في بدايتها، وحتى أن إبعاد الهرطوقي الأكبر عن موسكو كان بعد عدة سنوات مفارقة مضحكة عجيبة. فعندما حضرت GPU فجر ١٧ نيسان ـ إبريل إلى بيته كان تروتسكي لم يزل يرتدي البيجاما. وكما كان يفعل قبل الثورة، عندما كانت الشرطة تقصده غالبًا لتوقيفه، انزوى في غرفته. وبعد محادثات عقيمة عبر الباب المغلق، أمر الضابط المسؤول رجاله بخلع الباب. وقد فوجئ تروتسكي بأن هذا الضابط كان حارسه الشخصي خلال الحرب الأهلية... وعند رؤية معلمه القديم بهذه الثياب، انهار الضابط وراح يتوسل إلى تروتسكي باكيًا: "اقتلني أيها الرفيق تروتسكي، اقتلني!" رفض قائد الجيش الأحمر السابق ذلك ونجح في تسكين روع الضابط وأقنعه بأن واجبه هو تنفيذ الأوامر مهما استوجبت من اللوم. ثم وبالعودة إلى موقفه السلبي المتمرد، رفض ارتداء ملابسه والانطلاق، وهذا ما اضطر مفرزة الـ GPU لنزع بيجامته وإلباسه رغم احتجاجات عائلته قبل حمله إلى السيارة التي تنتظره لنقله إلى قطار عبر سيبيريا[١].

وفي عام ١٩٢٩، عندما أبعد تروتسكي بالقوة إلى تركيا، اطمأنت GPU لعدم وجود شاهد هذه المرة، إذا لجأ أيضًا إلى المقاومة السلبية...

برفقة زوجته وولده الأكبر ليفسدوف ومواكبة رجلين من الـ GPU، صعد تروتسكي إلى متن الباخرة "إيلييتش Ilyitch"، الراسية في مرفأ "أوديسا"، ولم يَلقَ أي

---

١ - Deutscher Isaac, The Prophet Outcast: Trotsky 1921-1928, Oxford University Press, (Londres,1959), pp. 393-394.

راكب آخر... وحتى أن طاقم الباخرة تلقى الأمر بالابتعاد عن المنفى وتفادي أي اتصال مع حاشيته. وعندما دخلت الإيلييتش مضيق البوسفور، نقده أحد رجال GPU مبلغ ١٥٠٠ دولار "لترتيب إقامته في الخارج". وقد اضطر تروتسكي الذي لم يكن يملك قرشًا واحدًا، إلى وضع شهامته في جيبه وقبول المبلغ. لقد أمضى الأسابيع الستة الأولى من نفيه في القنصلية السوفياتية، ثم وبعد الإقامة في عدة فنادق، استقر في جزيرة برانكيبو Prinkipo[1].

وفي نهاية عشرينات القرن العشرين، كان هدف "مطاردة الشعوذات" التي تقوم بها GPU أعمال التخريب الاقتصادي وكذلك المعارضة السياسية. وفي آذار ـ مارس ١٩٢٨، أعلنت هكذا عن اكتشاف "مؤامرة معادية للثورة" في مناجم فحم "شختي" من أعمال "دونباس". لقد تم اكتشافها نهاية عام ١٩٢٧ على يد قائد GPU كما قال القوقازي الشمالي، "إ. غ. ايفدوكيموف Y. G. Ievdokimov"، إذا صدقنا التقرير المقنع أكثر من غيره حول أصول القضية. فقد روى "إيفدوكيموف لمجنسكي" أن مجموعة من المهندسين من مدينة شاختي تعتزم وبالتعاون مع الملّاك البيض القدماء، تدمير هذه المناجم، وعندما طلب مجنسكي تقديم براهينه، قدم له إيفدوكيموف رسائل مصادرة، كتبت في المهجر وأرسلت إلى المهندسين. وقد بدت هذه الرسائل غير مضرة، غير أن إيفدوكيموف أكّد أنه بالنسبة للتعليمات المتعلقة بتخريب المناجم، استعمل المهندسون كودًا لا يعرفه غيره. بعد أن ارتاب بالأمر، أعطى مجنسكي ١٥ يومًا لإيفدوكيموف لحل رموز الكودا. وقد لجأ هذا الأخير إلى ستالين الذي سمح له بأن يوقف المهندسين. وخلال اجتماع خاص للمكتب السياسي للجنة المركزية، كلّف ستالين شخصيًا بالقضية.

---

١ - Deutscher Isaac, The Prophet Outcast: Trotsky 1929-1940, Oxford University Press, (Londres,1963), pp. 1-3.

وعلى أساس سلسلة من الإشكالات تتداخل منها حوادث صناعية، ومواد فاسدة، وعمّال في حالة السكر، وقادة غير أكفاء، ومهندسون بورجوازيون، ورجال أعمال أجانب وبعض أعمال حقيقية في تخريب النفائس، برهنت GPU عن وجود "مؤامرة عالمية واسعة" منظمة انطلاقًا من وارسو وبرلين وباريس. وخلال شهرين، راحت الصحف تتكلم عن "المخربين السافلين والمتآمرين والجواسيس"؛ وقد عرضت قضية المؤامرة في مرافعة طويلة تتهم خمسين تقنيًا ومهندسًا روسيًا وثلاثة ألمان بالتخريب والجاسوسية. وقد حضر حشد متجدد مع كل جلسة، المحاكمة العلنية غير المتناهية التي بدأت في أيار ـ مايو تحت ثريّات الكريستال الواسعة في بيت النقابات في موسكو (حلقة النبلاء قبل الثورة). وتابع هناك أكثر من ألف عامل وفلاح وطالب وشاهد، جزءًا من الدعوى على الأقل. وقد اضطر "أوجين ليون Eugene Lyons" مراسل "الاتحاد الصحفي United Press" والشيوعي القديم، لأن يلاحظ في ما بعد: "إن هؤلاء، القلائل، الذين يتمسكون ببراءتهم يثيرون حماس الحشد أكثر من غيرهم. إنّه مشهد مثير حقًا أن ترى هؤلاء الرجال الميؤوس منهم، وقامتهم المنحنية... هذا الصوت الأبيض يرد على سؤال النائب العام الوحيد، يستدير لتفادي اتهامات سجين ما، ثم يلتفت إلى الوراء كذلك لمواجهة توبيخات القاضي ـ ملتفتًا، مناقشًا، متلعثمًا بكلماته، ليقف أخيرًا، منهمكًا مرعوبًا، ويتطلع إلى الحضور بثبات وكأنه يأخذ علمًا لأول مرة بوجوده... سعداء هؤلاء النواب العامون الذين حضروا جلسة كهذه!".

إن الدراما التي حصلت في بيت النقابات كانت أقل مأساوية مع ذلك من المحاكمات الكبرى التي أقيمت أواخر العهد الستاليني. فقد حكم بالموت على أحد عشر متهمًا بالتخريب في قضية شختي؛ ولمكافأتهم على أدائهم الرائع التي أشارت به عليهم الـ GPU، فقد خفف الحكم على ستة من بينهم. وقد اقتنعت الغالبية الكبرى من

المشـاهدين وقـراء الصحـف السـوفياتية بهذه المسرحية الجاهزة لتنويرهم. ولتـبرير الأزمة ومظاهر الحرمان التي يتحمل مسؤوليتها القادة، فأي كبش محرقـة أفضـل مـن هذا "العدو الطبقي في ما بيننا"، يتآمر مع الثورة المضادة في الخارج؟.

في جلسة اللجنة المركزية المكتملـة لشـهر نيسـان ـ إبريـل ١٩٢٨، فصـل سـتالين نفسه التشعبات الهائلة لمؤامرة شختي المزعومة:

"من السخف الاعتقاد أن الرأسمالية العالمية ستدعنا في سلام. لا، أيها الرفاق، هـذا ليس صحيحًا. فالطبقات موجودة والرأسمالية العالمية موجودة، ومن دون التحـرك، لـن نتمكن من الدفاع عن بناء الاشتراكية في بلادنا، وحتى الآن، فهـي تنـوي التغلـب علـى السلطة السوفياتية بـالتدخل العسكري. وقد أخفقت هـذه المحاولـة. وهـي تجـرب الآن وستحاول في المستقبل إضعاف قدرتنا الاقتصادية بعمل سري، من الصعب كشفه غالبًا غير أنه خطير، وبالتخريب، وبث الأزمات في مختلف القطاعات الصناعية. وهي بهذا ستفتح الباب لتدخلات عسكرية مقبلة. إن كل هذه الطرق هي جزء مكمِّل مـن معركـة الطبقات: الـرأسمالية العالمية ضد الاتحاد السوفياتي والمسألة ليست أعراضًا طارئة".

إن ضباط الـ K.G.B، الذين تباحثوا في هذه المرحلة مع غورديفسكي اتفقوا حـول أن دعوى شختي صدرت مباشرة عن وسواس التخريب والتجسـس الـذي يعيـث فسـادًا على هذا النحو. غير أن المنظمـة لـم تتمكن وفـي هـذه المرحلـة مـن الاعـتراف بذلـك رسميًا. حتى أن التاريخ السري للـ K.G.B، المنجز عام ١٩٧٨ تحت إدارة "غريغوري فدوروفيتش غريغرانكو"، رئيس المديرية الثانية المضادة للتجسس، يؤكد، دون تحقيـق، على أن المؤامرة كانت حقيقية فعلية.

مع بداية عهد غورباتشيف كانت الـ K.G.B لم تزل تلتزم بدقة، علـى الأقـل علنًـا، التفسير الذي قدمه ستالين عام ١٩٢٨ بخصـوص قضيـة شـختي. وفـي روايـة رسـمية

أخرى نشرت عام ١٩٧٩ يمكن أن نقرأ: "إن المخبرين والجواسيس والمنحرفين المتحدين في جبهة معادية للسوفيات يمثلون دون منازع تهديدًا خطيرًا على البناء الاشتراكي وعلى تعزيز القدرة الدفاعية لأمتنا. إن كشف أجهزة دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU لهذه الحركة السرية المعادية ساعد الحزب والدولة على إحباط مشاريع الرجعية العالمية المعادية للسوفيات"[1].

على أيّ حال، كان موضوع المؤامرة يؤخذ عام ١٩٢٨ على محمل الجد، حتى من قبل ضباط GPU الذين اختلقوا براهين لدعم شختي...

لقد عانت روسيا من وسواس الجاسوسية، المختلف عن الوسواس الذي اكتسح جزءًا كبيرًا من أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى. فخلال الأسابيع من الصراع، تبلّغت شرطة لندن عن "عدة ألوف" من المتهمين بالتجسس لصالح الألمان، ثبتت براءتهم جميعًا. ويقول بازيل طومسون، مسؤول الشعبة الخاصة Special Branch في شرطة العاصمة أن "وسواس الجاسوسية يأخذ شكل وباء فتّاك تصاحبه هلوسة تتحدى كل علاج". وخلال كل زمن الحرب، عانى بعض الوزراء وجزء من الرأي العام من الفكرة المزمنة التي تقول بأن الاضطرابات العمالية والصعوبات الأخرى التي تواجه المجهود الحربي ناجمة عن مؤامرات مدمّرة يمولها العدو. عام ١٩١٨ وخلال دعوى قدح مشهورة، كانت هيئة المحكمة مقتنعة بأن الدوائر السرية الألمانية تمتلك "كتابًا أسود" يتضمن لائحة من ٤٧,٠٠٠ معتوهًا جنسيًا، أكثريتهم من المسؤولين الكبار وضحايا ابتزاز وتخويف يجبرهم على تخريب المجهود الحربي.

---

١ - Ostriakov, *Secret Service*, pp. 177-180.

عرفت بداية الحرب العالمية الثانية عودة إلى وسواس الجاسوسية. ففي عام ١٩٤٠ وبعد غزو الألمان للبلاد المنخفضة وفرنسا، أرهق بريطانيا الخوف من إيواء "طابور خامس" من "الأعداء المخربين"، وهي أعراض مرضية متزامنة أكثر غرابة من تلك التي انتشرت إبان الحرب العالمية الأولى. وفي شهر حزيران ـ يونيو أشار تقرير مخابراتي بريطاني عام إلى أن "هذا الوسواس شبه الهستيري عن طابور خامس أخذ أبعادًا مخيفة". حتى أن ونستون تشرشل بالذات بحث في لحظة ما مع أركان حربه "بإجراءات حازمة" لاستئصال خطر غير موجود عمليًا.

إن استيهامات الديمقراطيات الغربية الجماعية هذه زمن الحرب، مثل استيهام طابور خامس خطير ـ ومطاردة الشعوذات التي قادها من الولايات المتحدة السيناتور ماك كارتي Mc Carthy إبّان الحرب الباردة ضد شيوعيين وهميين غالبًا ـ أتاحت فهم أساس الوسواس الستاليني عن التخريب المعادي للسوفيات. لقد شعر النظام في الحقيقة أنه مهدد من الداخل والخارج، داخليًا من قبل الأعداء "الطبقيين" وخارجيًا من الإمبرياليين. غير أن "مطاردة الشعوذات" كانت في عهد ستالين، على المستوى الواقعي كما على المستوى الفكري، مختلفة كثيرًا عن كل ما عرفه الغرب في هذا المجال. فرهاب تشرشل عام ١٩٤٠ من طابور خامس استمر لفترة قصيرة: مع نهاية السنة، توصل رئيس الوزارة إلى أن هذه الملاحقات لجواسيس خياليين لم تؤد إلى نتيجة. وكان الأمر على هذا النحو خلال الحرب الباردة، فالإدارة الأميركية لم تكن المحرِّض إنما كانت هدفًا لأعمال "مطاردة الشعوذات" التي قام بها ماك كارتي. أما في الاتحاد السوفياتي فكان الأمر عكس ذلك، إذ إن مطارد المتآمرين المسؤول كان ستالين بالذات.

وقد أدى اضطهاد الجواسيس المتهمين والمخربين خلال الحربين العالميتين والشيوعيين المزعومين خلال الحرب الباردة إلى عدد قليل من الضحايا في الغرب. أما في الاتحاد السوفياتي، فوصل عدد الأعداء الخياليين الذين تمت تصفيتهم إلى الملايين. واستند ستالين ومؤيدوه على مؤامرة كاذبة كُشِفت أثناء دعوى شختي لإعلان نهاية السياسة الاقتصادية الجديدة NEP، التي تساهلت مع بعض المصالح البورجوازية، والبدء بمطاردات شرسة للأعداء الطبقيين، مخرِّبي الاقتصاد، والاختصاصيين البورجوازيين الصناعيين والكولاك وهم الفلاحون المفترض أنهم مرتاحون في الريف.

بعد أن تخلص من "المعارضة اليسارية" ومن تروتسكي، أصبح لستالين ملء الحرية في وضع برنامجه الخاص عن التمويل الاقتصادي الجذري. أما بوخارين و"المعارضة اليمينية" المنسجمون مع خط مرتكز على التوافق وليس على صراع الطبقات، فقد تمت إزالتهم بسهولة أكبر. ففي كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٢٩ فقد بوخارين مركزه في المكتب السياسي. وقد عانى الزعماء الستالينيون إزاء الخطر المزدوج الممثل بالخصوم الطبقيين في الداخل والإمبرياليين في الخارج من شعور مستمر بعدم الأمان. وكان ذلك أحد الأسباب التي حدت بهم للانطلاق مع بداية السنة اللاحقة في برنامج تصنيع إجباري في الإطار الأول للخطة الخمسية والتأميم في الأرياف من أجل "تصفية الكولاك كطبقة". ففي خطاب ألقاه أمام اللجنة المركزية في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٨ ركّز ستالين على أن بقاء الاشتراكية مرتبط بقدرة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية على تجاوز قدرة الغربيين:

... "إما أن نتوصل إلى ذلك، أو يتمّ تدميرنا"...

وقد كرر الحديث ذاته في شباط ـ فبراير ١٩٣١:

"إن إحدى سمات التاريخ الروسي هو عدد الهزائم التي تلقتها وذلك بسبب تخلفها الاقتصادي... إننا متخلفون بخمسين، بل بمئة سنة عن البلدان المتقدمة. علينا اللحاق بهم خلال عشر سنوات. وإذا لم ننجح في ذلك فسنسقط"...

لقد تمت ولادة عملية تحويل الاقتصاد السوفياتي في عهد ستالين في مناخ من المثالية وعدم الأمان. إن إمكانية قفزة كبيرة إلى الأمام، باتجاه اقتصاد اشتراكي تمامًا عزّز عند جيل الشباب من المناضلين حمية شبه مسيحية تشبه تلك التي ألهمت أنصار لينين عام ١٩١٧. بعد ذلك بخمسين سنة ها هو الجنرال المنشق بيوتر غريغرانكو يتذكر كذلك "عاطفة وحماس" الشباب الشيوعي، وعاطفته الخاصة عندما أعلن ستالين أن عام ١٩٢٩ هو "التغيير الكبير": "الخبز مفقود، والصفوف لا نهاية لها، وكنا على قاب قوسين أو أدنى من التقنين والمجاعة، مع ذلك فقد كنا مأخوذين بالحماس من جراء رسالة ستالين وكنا مغتبطين: "نعم، أي تحولٍ هذا الذي يحصل، تصفية الفلاحين الصغار أن التربة المدمرة التي تولد فيها الرأسمالية من جديد... لتجرّب فقط أسماك القرش الإمبريالية مهاجمتنا! ها نحن نسير في الطريق الأسهل المؤدي إلى انتصار الاشتراكية"[١].

وقد اقتنع عدد كبير من أنصار تروتسكي برؤية ستالين الاقتصادية، فهذا "لوري بياتاكوف" مدير بنك الدولة المقرب القديم من تروتسكي، يعلن في خطاب حماسي أمام مجلس مفوضي الشعب: "لقد بلغنا المرحلة البطولية من بنائنا الاشتراكي".

وإذا كانت "هذه المرحلة البطولية" قد ألهبت حماس العديد من المناضلين فهي لم تتمكن، وللسبب نفسه، من أن تكون قوة إكراه على إدارة أمن الدولة السوفياتية GPU.

---

١ - Grigorenko Piotr G., *Memoirs*, Harvill Press (Londres,1983) pp. 28, 98-99.

ففي تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٢٩، أصبح كل السجناء المحكومين بأكثر من ثلاث سنوات خاضعين لسلطة GPU. وقد تطورت الشبكة الواسعة لمخيمات العمل بسرعة خلال الثلاثينات لتصبح المموّل الأساسي للاقتصاد السوفياتي بالعمال الأرقاء. وكثمرة لهذا المزيج من المثالية الحالمة ومن القوة الوحشية، تحولت الصناعة خلال الخطة الخمسية الأولى. وقد تم تجميد أهداف غير منجزة بحجة أنه "ليس هناك من معقل حصين أمام البلشفية". وكانت النتائج أفضل بكثير من التقديرات الأكثر واقعية ولكنها أقل قدرة على الإثارة. وقد بنيت مراكز صناعية كبرى في الأورال والكوزباس والفولغا. وتمت ولادة المانيتوغورسك وكومسمول المحبة بشكل تام؛ وانغرست التقنيات الجديدة في الأنحاء الأكثر بعدًا من كازاخستان والقوقاس. بينما بُني سد عملاق على الدنيبر وضوعف إنتاج الكهرباء ثلاث مرات. كل ذلك حصل مع بداية عقد الثلاثينات في الوقت الذي كان فيه الجمود الاقتصادي المتفجر في الغرب على أشده وذلك بسبب الانهيار المالي للوول ستريت Wall Street في تشرين الأول ـ أكتوبر من العام ١٩٢٩. وقد واتى الحظ المعلقين السوفيات لمقارنة نجاحات بناء الاشتراكية بتناقضات الرأسمالية العالمية المتعذر حلّها.

وبالرغم من الجمود لم تَبْدُ الرأسمالية أقل خطرًا على السوفيات. ففي حزيران ـ يونيو من العام ١٩٣٠، وجه ستالين الإنذار التالي: "في كل مرة تتأجج فيها تناقضات الرأسمالية الداخلية، تتوجه البورجوازية نحو الاتحاد السوفياتي وكأنها تقول: "ألا يمكن ضبط هذا أو ذاك من تناقضات الرأسمالية أو كل هذه التناقضات مجتمعة على حساب الاتحاد السوفياتي، بلد السوفياتات، وقلعة الثورة والتي أثار وجودها بالذات الطبقة العاملة والمستعمرات..."؟ ومن هنا يولد هذا الميل للقيام بمغامرات ضد الاتحاد السوفياتي والتدخل في شؤونه... إنّه ميل ينميه تطور الأزمة".

بعد هزيمة المحافظين في انتخابات عام ١٩٢٩ العامة في انكلترا، وعودة العمال بقيادة "رامسي ماك دونالد"، وعودة العلاقات الدبلوماسية الإنكليزية ـ السوفياتية، كفت بريطانيا عن أن تكون العدو رقم واحد. وحسب ستالين، فإن خطر الحرب الرئيسي يتمثل من الآن فصاعدًا بفرنسا، "وبكل البلاد العدوانية والمتعسكرة، الأشد عدائية والأكثر تعسكرًا". وقد عززت حملة فرنسية ضد إغراق روسيا للأسواق الغربية الخوف السوفياتي من هجوم ما. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٠، أمر وزير التجارة والصناعة الفرنسي بتخفيض الواردات السوفياتية وحاول إقناع حلفاء فرنسا في أوروبا الشرقية أن يحذوا حذوه. وعلى أساس المعاملة بالمثل، علّق الاتحاد السوفياتي كل الواردات الفرنسية وفضح دسائس الإمبريالية الفرنسية. وقد أكد مولوتوف، رئيس السوفناركوم، أي مجلس مفوضي الشعب الذي أصبح في ما بعد مفوض الشؤون الخارجية، على أن فرنسا تعتزم "تنظيم حصار اقتصادي على الاتحاد السوفياتي" بهدف التحضير لهجوم عسكري..

إزاء هذا التهديد الجديد بالعدوان، فإن مطاردة المخربين المتعاونين مع الإمبرياليين الأجانب، الفرنسيين منهم على وجه الخصوص، ازدادت قوة واتساعًا. ففي ٢٢ أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٣٠، أعلنت الصحافة أن دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU اكتشفت "جمعية معادية للثورة": ٤٨ من الأساتذة الجامعيين والمهندسين الزراعيين وموظفي التموين يقودهم "ألكسندر ريازانتسيف" اتهموا بتخريب التموين في البلاد. وفي الغد، غصّت الصحف بالافتتاحيات والعرائض العمالية المنادية بموت المتآمرين. وفي ٢٤ منه، أُعدم الـ ٤٨ "شريرًا"، ونشرت الصحف مقتطفات طويلة من اعترافاتهم بجرائم خيالية أكثر الأحيان. وحسب الجرائد السوفياتية وخلال مئات الاجتماعات، "شكرت البروليتاريا

بحماس دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU المجيدة وسيف الثورة كونها قضت على هذا المشروع المجرم".

وإزاء كل مسألة تموينية وكل حادث صناعي جديد على درجة من الخطورة، كانت الـ GPU تعلن عن "مؤامرات مجرمة" جديدة. إن الاكتشاف الأكثر أهمية لهذه الخطة الخمسية الأولى كان اكتشاف "حزب صناعي" سري. فقد اعتزم الألفا مهندس ومسؤول عن الخطة أعضاء هذا التنظيم المزعوم إسقاط النظام بمساعدة الفرنسيين وعلى رأسهم "بوانكاريّ" و"بريّان" وكذلك بمساعدة شخصيات عالمية ومن بينها "لورانس العرب" وقطب صناعة البترول السير "هنري دتردنغ Deterding" والحكومة الروسية البيضاء الموقتة في باريس (وقد سبق أن توفي اثنان من أعضائها) التي تستعجل العودة إلى روسيا وإعادة الرأسمالية إليها من جديد...

إن المحاكمة المسرحية لثمانية أعضاء من اللجنة التنفيذية "للحزب الصناعي" المزعوم ابتدأت بالديكور الساحر لحلقة النبالة القديمة (بيت النفايات) الديكور الذي فقد بعضًا من رونقه. في هذا اليوم، راح أكثر من نصف مليون من العمال والمستخدمين وفي عرض عملاق على الثلج يرددون الشعار: "الموت لهم! الموت لهم! الموت لهم!" وخلال المحاكمة أُخطر الحضور بأن جماعات من العملاء الإمبرياليين قد تجرب في أيّ لحظة تحرير المتهمين والبدء بحملة واسعة من التخريب. إنما وبعد أن أطلق "مكسيم غوركي" نداءً بليغًا للشغيلة والفلاحين ومثقفي العالم بأجمعه، بقي العملاء المعنيون بحالة الاستيهام واستبعد الخطر المزعوم للحرب...

وبعد خمسين سنة من هذه المحاكمة، كانت تصر الـ K.G.B دائمًا على الأطروحة الغامضة بأن "الحزب الصناعي" كان "مركزًا حقيقيًا للتجسس السري... يقوده ويموله عملاء سريون غربيون... وبعض قدماء الرأسماليين الكبار الروس المتركزين في

باريس". وحسب اعتراف "غورديفسكي"، فإن أي عضو في الـ K.G.B لم يأخذ على محمل الجد مثل هذه التخريفات. وقد يكون من المغري استنتاج أن وقاحة دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU عام ١٩٣٠ كانت تضاهي وقاحة K.G.B لاحقًا، وأن كل هذه القضية عن حزب صناعي لا تشكل من أولها إلى آخرها، سوى حيلة واسعة. غير أن الحقيقة ليست بهذه السهولة: فمما لا ريب فيه أن الـ GPU كانت قد اكتشفت مهندسين ماكرين وضباطًا يحتقرون النظام السوفياتي ويقيمون علاقات شتى مع العديد من مراكز تجمع الروس البيض في الخارج (Diaspora). إنما ومع هذه النزعة المستعصية في رؤية المؤامرة في كل مكان، تميل الـ GPU حتمًا إلى فرضية دسيسة معادية للثورة عالية التنظيم، وفيها يأخذ بالضرورة عملاء الإمبريالية دورًا لهم. وعلى هذا كان لها كامل الحرية في أن تتخيل وتكتب السيناريو وتعيد إخراج عملٍ درامي عن المؤامرة وذلك من أجل مصلحة الشعب السوفياتي وحلفائه في الأممية الشيوعية والقوى التقدمية الأخرى في الخارج.

إن البراهين المفروضة خلال ممارسة هذه الأعمال المسرحية الستالينية الكبرى صادرة بأغلبيتها عن اعترافات "المتآمرين".

عام ١٩٦٧، أدلى أحد ضحايا أوائل هذه المحاكمات الصورية بشهادته أمام النائب العام للاتحاد السوفياتي، يشرح فيها كيف أن GPU كانت تحصل على الاعترافات. "إذ يبوح البعض... بالكثير الكثير عند تهديدهم بالمزيد من العذاب.

وبالنسبة لهؤلاء الذين يقاومون يتم إجبارهم "على سماع صوت العقل" بالطرق المادية. لقد ضُربوا على الوجه والرأس والأعضاء التناسلية؛ طرحوا أرضًا وأوسعوا ضربًا؛ وخنقوا إلى درجة عدم جريان الدم في العروق... لقد حُجِزوا دون نوم، نصف عراة، حفاة في غرفة شديدة البرودة... أو على العكس طرحوا في غرفة شديدة

الحرارة ودون تهوئة... وبالنسبة للبعض الآخر، فإن التهديد البسيط بمثل هذه الوسائل، مع دليل مناسب يكون كافيًا"[1].

وفي أغلب الأحيان، لا تحدث هذه المحاكمات الصورية أدنى شك في عقول هؤلاء المفروض أنهم بنوها. وقد آمن حتى التروتسكيين بمؤامرة "الحزب الصناعي" رغم أعمال التعذيب التي مارستها عليهم GPU. وقد صدق تروتسكي نفسه أن "مخربين مختصين "كانوا قد تورطوا مع الإمبرياليين الأجانب ومع عملاء روس مهاجرين". وفي موسكو، يرى أحد أنصاره في "الغضب" الذي أبداه الشغيلة تجاه "المخربين المختصين" العلامة المشجعة على "حماسهم الثوري الصادق". وبعد أربعين سنة يتذكر أحد عمال مصنع "البروليتاريون الحمر" في موسكو ويقول: "إن غضب واحتقار العمال بإدانة أعمال الخونة ستبقى محفورة في ذاكرتي إلى الأبد".

لقد انتهت محاكمة "الحزب الصناعي" بغرابة. فقد أصدر القضاة خمسة أحكام بالموت تحت وطأة تهليل وتصفيق الشعب. وبعد ذلك بيومين، أعلن عن تخفيف العقوبات إلى عشر سنوات من السجن؛ وقد أعيد الاعتبار إلى بعضهم سرًا... أما أسباب هذا التغيُّر فكانت اقتصادية في المقام الأول. ورغم المحاولات الدؤوبة لتأهيل جيل جديد من "البروليتاريين التكنوقراط"، فقد برهنت مظاهر التقدم السريعة للخطة الخمسية الأولى كم كانت الصناعة تابعة لمهارة الاختصاصيين البورجوازيين، وفي بداية عام ١٩٣١، نوّه "غ. أوردجونيكيدزي" الذي كان قد تولّى إدارة المجلس الاقتصادي القومي خلال محاكمة "الحزب الصناعي"، بضرورة التصرف بحذر مع الاختصاصيين "الذين يعملون بشرف". وفي الربيع، أعاد المجلس النظر بحالة بعض

---

١ - Medvedev Roy, *Let History Judge*, Macmillan (London,1972), p. 127.

المهندسين المبعدين أو المعتقلين الذين كانوا قد طلبوا رد اعتبارهم. وفي حزيران ـ يونيو عام ١٩٣١، أعلن ستالين بمكر: "لقد اعتبرنا دائمًا ولم نزل نعتبر أن "التنكيل بالاختصاصيين" هو ظاهرة مضرة وكارثية"؛ وطالب "بمعاملة الاختصاصيين على أفضل وجه، من المهندسين والتقنيين من المدرسة القديمة الذين يقفون دائمًا إلى جانب الطبقات الكادحة". وفي أحد مقالاته النادرة التي نشرها في البرافدا، يشير مجنسكي إلى الحكمة في خطاب ستالين ويصرّ على أن دزرجنسكي كان قد استخدم مرارًا دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU "لحماية الاختصاصيين ضد كل أشكال الاضطهاد".

إن التعويض عن "التنكيل بالاختصاصيين" لم يضع حدًا لوسواس المخبرين. فقد بقي ستالين والعديد من أعضاء الـ GPU على قناعتهم بأن "المؤامرة المعادية للثورة" التي يدبرها الخونة في الداخل والأعداء في الخارج تتضمن على المدى البعيد مشروع تخريب الاقتصاد السوفياتي. وفي مارس عام ١٩٣٣، تم توقيف ستة مهندسي كهرباء بريطانيين عاملين في روسيا لصالح شركة "متروبوليتن ـ فايكرز" وكذلك العديد من "المخربين" الروس واتهموا بالتخريب والجاسوسية. وإذا كان المهندسون البريطانيون قد حصلوا عمليًا، حسب مدراء "المترو ـ فايك"، على "معلومات عامة" عن الاقتصاد السوفياتي ـ معلومات هي في متناول العامة في الغرب ـ فإن التخريب كان كالعادة محض تخريف. وحسب سيناريو، أصبح يُعَدُّ من الآن فصاعدًا على أكمل وجه، فقد جرت محاكمتهم الصورية في حلقة النبلاءِ القديمة، واعترف المتهمون الروس حسب الأصول بجرائمهم الخيالية: "الكل يرصد طَرْق سوط المراقب فيشانسكي؛ يطيع كالحيوانات الخائفة المروَّضة". وفي "آخر تصريحاتهم"، "توسلوا تركهم على قيد الحياة ووعدوا بالرجوع إلى التوبة. وكانت كلماتهم وكذلك أصواتهم قد أصبحت منذ محاكمة شختي لازمة معتادة".

وقد قام المهندسون البريطانيون بدورهم بأقل ما يمكن من النزعة الحرفية. فقد كانت دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU قد حصلت قبل المحاكمة على اعترافات مفصلة من اثنين من رعايا جلالتها، غير أنهما عدلا عنها أثناء المرافعات. وهذه حادثة لا مثيل لها، زعق أحد المتهمين أمام المجتمعين قائلاً "إن المحاكمة كانت عملية مدبرة... مستندة على شهادات معتقلين خائفين". وفي ما عدا واحد منهم، حُكِم على كل الروس بعقوبة السجن، وكذلك على اثنين من مهندسي المترو - فايك. حينها أعلنت حكومة لندن عن حظر تجاري لم يرفع إلا في تموز - يوليو من العام ١٩٣٣ مع تحرير المهندسين.

وخلال المعركة ضد التخريب الصناعي، شكلت المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU رأس الحربة في حملة تأميم الزراعة خلال الخمسية الأولى. وخلال الأشهر الأولى للتأميم الإجباري، فإن ما دعاه ستالين "تصفية الكولاك" اتخذ شكلاً مسرحيًا فعليًا. وبما أن الكولاك كانوا "العدو اللدود" لحركة التأميم الزراعي"؛ فمن الواجب أولاً أن تترك لهم مزارعهم...

إن الكلمة كولاك Koulak استخدمت للإشارة ليس فقط إلى الفلاحين الأكثر ثراء بل وكذلك إلى كل فلاح، مهما كان فقيرًا، يظن أنه يناهض هذه العملية - مثلاً العاملين فعلاً بالزراعة. حصلت الاعتقالات الجماعية الأولى لزعماء عائلات الكولاك مع نهاية عام ١٩٢٩. وأعدموا جميعًا رميًا بالرصاص. بعد ذلك، ومع بداية عام ١٩٣٠، جرى تجميع العائلات الكولاكية بالألوف، وحشروا في المراتب وأرسلوا في مقطورات نقل الحيوانات إلى مناطق الأركتيك Arctique أو إلى المناطق الصحراوية الواسعة في سيبيريا. ويعتبر المكتب السياسي Politburo أنه ليس مهمًا استمرار هؤلاء الأشخاص بالعيش أم لا. وهذه العملية التي طالت عشرة ملايين فلاح تقريبًا، كانت من الاتساع

بحيث لم تستطع GPU وحدها تنفيذها، لذلك فقد أُلحق حوالي ٢٥,٠٠٠ شاب من مناضلي الحزب بالحملات وذلك بعد تلقيهم تأهيلاً خلال أسبوعين... للمساعدة في نقل الكولاك وإنشاء الكولخوزات، أي المزارع الجماعية. وقد أبدى "الخمسة والعشرون ألفًا"، كما كان يطلق عليهم، حماسًا ملتهبًا، مشابهًا لحماس الحرس الأحمر، بعد ذلك بجيل، وخلال الثورة الثقافية الصينية. فقد كانوا على قناعة بأن الأمر على صلة بأعداء طبقيين تورطوا في مؤامرة للحيلولة دون انتصار الاشتراكية. وقد اضطر أحدهم للاعتراف في ما بعد: "كنت مقتنعًا بأننا جنود في جبهة سرية، نحارب المخربين الكولاك دون هوادة والرهان كان الخبز الضروري للبلد كما نصت الخطة الخمسية...

غير أن بعض الضباط القدماء من GPU عانوا الأمرّين من إجبار ملايين الفلاحين على ترك مسقط رأسهم. وينقل إسحاق دويتشر كلام أحد الكولونيلات الذي أنهكته تدخلاته الحديثة في الأرياف: "أنا بلشيفي منذ زمن طويل، قال وهو يكاد ينتحب باكيًا، لقد قاتلت ضد القيصر وفي الحرب الأهلية، إذن لم أتصرف على هذا النحو لكي أتحول إلى محاصرة القرى بالرشيشات ولأعطي الأوامر لرجالي بإطلاق النار دون تمييز على جماعات الفلاحين؟ آه، لا، لا!"[١].

مع بداية آذار - مارس عام ١٩٣٠، جمع "الخمسة وعشرون ألفًا" أكثر من نصف الفلاحين في الكولخوزات وحولوا الأرياف إلى فوضى شاملة. وقد اضطر ستالين لإعطاء الأمر بإيقاف هذه العمليات لإتاحة المجال لأعمال موسم الربيع. بعد ظهور مقاله في برافدا في الثاني من آذار - مارس والمعنون "سكارى النجاح"، وفيه يلوم

---

١ - Deutscher Isaac, *Stalin: A Political Biography*, Vintage Books (New York,1962), p. 325.

بخبث المناضلين على عدم احترامهم "مبدأ حرية الاختيار لدى الفلاحين" تناقص تأميم الكولخوزات حتى النصف. ولمجرد انتهاء الحصاد، استُأنف التأميم الإجباري.

إن صَدْمات التأميم، وانخفاض العائدات الزراعية، والارتفاع الهائل في اقتطاعات الدولة، والجفاف، والمحاصيل الرديئة لعام ١٩٣٢ أدت عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ إلى أخطر مجاعة عرفتها أوروبا في القرن العشرين، حيث قتل من جرائها ما يقارب السبعة ملايين شخص. وهذا مناضل حزبي من أصل أوكراني، حيث عمّت الكارثة بشكل أساسي، يتذكر قائلاً: "خلال هذا الربيع الرهيب لعام ١٩٣٣، رأيت رجالاً يموتون جوعًا. رأيت نساءً وأطفالاً، كانت بطونهم منتفخة، ووجوههم زرقاء، يتابعون التنفس إنما العيون فارغة، دون حياة. والجثث ـ جثث ترتدي جلود الخرفان السملة مع جزم لبدية رخيصة: جثث داخل أكواخ الفلاحين وفي الثلج الذائب في نهر فولوغا العتيق، وتحت جسور خاركوف". غير أنه لم يفقد إيمانه، فهو يقول: "كنت مقتنعًا بأنني لن أستسلم للشفقة. فقد نفذنا مهمة تاريخية. وقمنا بواجب تاريخي... ذلك أنني كنت مقتنعًا بإنجاز التحويل الكبير والضروري للأرياف، وبأن ضيق وعوز وآلام الفلاحين كانت نتيجة جهلهم أو دسائس الأعداء الطبقيين".

مع استمرار المجاعة في أوكرانيا، لم تكف دائرة أمن الدولة GPU عن كشف حالات تخريب جديدة يقوم بها "الأعداء الطبقيون" و"المتآمرون المعادون للثورة". فقد أُدين عشوائيًا أطباء بيطريون على إبادتهم للمواشي... وكل ملاك مكتب الرصد الجوي كونهم أخطأوا في تنبؤاتهم، وموظفون على تخريبهم جرارات المزارع الجماعية، وإتلاف البذار بنباتات القرّاص، وأدين كذلك مدراء المزارع الجماعية كونهم لم يتوصلوا لتأمين حصصهم التي كان من المستحيل الحصول عليها. وقد أعلن ستايسلاس كوسيور، السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوكراني، الذي أعدم رميًا

بالرصاص عام ١٩٣٧، خلال مرحلة الرعب الكبير، أن اعشاشًا معادية للثورة تكونت داخل مفوضيات الشعب للتربية والزراعة والعدل؛ وفي معهد الماركسية اللينينية الأوكراني؛ وفي الأكاديمية الزراعية، وفي معهد شفنتشانكو، إلخ".

لقد أصبح ستالين موسوسًا أكثر فأكثر بفكرة مؤامرة عملاقة. وقد ساهم بذلك وإلى حد بعيد العمل المعتاد الذي مارسته دائرة أمن الدولة GPU في اكتشافها المستمر لمخربين خياليين جدد في الأرياف. وهذا "لازار كاغانوفيتش"، أمين من بين أمناء ستالين، وأحد أعضاء المكتب السياسي القلائل الذين بقوا على قيد الحياة بعد التطهير، يزعم أن الكولاك الذين قاوموا عملية نقلهم نجحوا وبمساعدة الحرس الأبيض وآخرين من أعداء الثورة، في تخريب أعمال جمع الحبوب والبذار". وعندما كتب الروائي "ميخائيل اشولوخوف" إلى ستالين في نيسان – إبريل عام ١٩٣٣ ليشكو له "الضربة المميتة التي أصيب بها اقتصاد المزارع الجماعية" في مقاطعة الدون DON، أجابه هذا "إن الذين نعتبرهم منتجي غلال في منطقتك... وليس فقط في منطقتك... كانوا قد حاولوا تخريب وإعاقة تزويد المدن والجيش الأحمر بالخبز... وإذ يحصل هذا التخريب دون ضجة وإذ يبدو غير مضرٍ... فالدم لم يجر... لا يغير من الأمر شيئًا... ذلك أن المعتبَرين منتجين سلموا السلطة السوفياتية ما يمكن مزاوجته مع حرب صامتة... حرب بالمجاعة... رفيق شولوخوف".

إنها لفكرة عبثية أن يكون بإمكان فلاحين جائعين تنفيذ أعمال التخريب المزعومة هذه. غير أنه ليس بالإمكان اعتبار ادعاءات السلطة أنها محاولة وقحة في إيجاد ضحية للتمويه على الجرائم والأخطاء التي ارتكبتها قيادة الحزب. ومثل "مطاردي الشعوذات" في العام الماضي... آمن ستالين بنظرياته الخاصة. ولم يكن يتورع عن تضخيم الواقع وتزيينه عندما يمكن أن يخدم ذلك أهدافه السياسية. فخلال المجاعة،

وإلى جانب التفتيش عن المخربين غير الموجودين في الريف، مارست دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU مهمتين أساسيتين. فالأولى كانت عزل أوكرانيا عن العالم الخارجي تمامًا: فلا يجب أن تدخل إليها حبة واحدة، ولا يجب أن يخرج أي أوكراني منها دون إذن مرور خاص. فقد تم احتلال أصغر محطة قطار بين كييف والحدود الروسية ـ الأوكرانية بمفرزة مسلحة من GPU مكلفة بإعادة أي مسافر لا يملك إذنًا. وفي أوكرانيا نفسها، اضطرت الـ GPU لمواجهة نتائج المجاعة المخيفة. وأصبح أكل لحم البشر عاديًا، غير أنَّ هذه الجريمة لم تُلحظ بنص في القانون الجزائي، فتم إخضاع آكلي لحوم البشر لسلطة GPU القضائية.

وكان على هذه الأخيرة أيضًا أن تحول دون انتشار خبر المجاعة فيما وراء الحدود التي أغلقتها. وكانت إحدى "الإجراءات الناجعة" والأكثر فعالية في الثلاثينيات هو إقناع العالم الخارجي وكذلك بعض الزائرين والصحافيين السذَّج القادمين من الغرب بأن إحدى أسوأ المجاعات في التاريخ الحديث لم تكن في الواقع سوى عنصر إضافي في الدعاية المعادية للسوفيات. فبعد خمسة أيام من الاستقبالات الرسمية، والولائم والزيارات المدبَّرة بعناية، راح "إدوارد هرّيو"، زعيم الحزب الراديكالي الفرنسي ورئيس مجلس الوزراء لعدة مرات، يدحض صراحة أكاذيب الصحافة البورجوازية في موضوع المجاعة في الاتحاد السوفياتي". فبعد زيارة "لقرى بوتمكين"، أعلن "برنار شاو": "لم أجد في روسيا أي شخص، شاب أو عجوز مصاب بسوء التغذية. هل كان هؤلاء سمينين؟ هل تم نفخ خدودهم الهزيلة بقطع من المطاط الموضوعة داخل أفواههم"؟... وهذا مراسل النيويورك تايمز، و"التر دورانتي" الحائز على جائزة "بوليتزر Pulitzer" على "تحقيقاته النزيهة والمفصّلة في روسيا" يزعم، في آب ـ أغسطس عام ١٩٣٣، أن "كل رواية عن مجاعة تجتاح روسيا الآن ستكون

مبالغة أو دعاية سيئة النية". أما الشيخان الروحيان للاشتراكية النقابية البريطانية، باتريس وسيدني ويب، فخرجا بالاستنتاجات ذاتها من رحلتهما عام ١٩٣٢ وعام ١٩٣٣. وقد حمّلا مسؤولية "المواسم الرديئة" في بعض المناطق إلى "جماعة جانية مخربة" ولم يتوجها بالنقد إلى الفلاحين الذين راحوا، "عن حاجة" يسحبون حبات السنابل، "بل يقطعون كل السنبلة لأنفسهم، كسرقة في الخفاء للملكية الشيوعية".

إن النتيجة الحتمية لهذه المجاعة الحاصلة في كل ناحية من الريف وعملية "مطاردة الشعوذات" الوحشية ضد "الأعداء الطبقيين" الحقيقيين أو الخياليين في كل البلاد، دفعت الحزب الشيوعي السوفياتي عامة ودائرة أمن الدولة السوفياتية GPU خاصة لاعتماد طرق ووسائل تفاقم عنفها يومًا بعد يوم. وقد كتب بوخارين أن "الرعب أصبح الطريقة العادية في إدارة البلاد وأصبحت الطاعة لكل أمر هابط من فوق فضيلة أصلية". مع ذلك بقيت بعض الآثار المثالية من الأصول البلشفية. وكانت كافية على كل حال لتثير بعض الاحتجاجات الحذرة في وجه دناءة هذه الحرب الطبقية. وأوضح هذه الاحتجاجات كانت رسالة من أحد أنصار بوخارين، "ميكائيل ريوتين"، تحمل توقيعه مع سبعة عشر آخرين، وقد وزعت على أعضاء اللجنة المركزية في جلسة كاملة النصاب خريف عام ١٩٣٢. ولم ينشر "برنامج ريوتين السياسي" إلا عام ١٩٨٩. وقد تضمن هجومًا مباشرًا ضد ستالين ووحشية السنوات الأخيرة مما حدا ببعض التروتسكيين لأن يستنتجوا خطأً أن المقصود هو تحريض من إدارة أمن الدولة السوفياتية GPU. وقد رأى هذا البرنامج في ستالين "العبقرية الرديئة للثورة الروسية والذي، بروح من الانتقام وحب السلطة، قاد الثورة إلى حافة الهاوية" ويطالب بفصله: "سيصبح من المخجل أن يتحمل بروليتاريون ثوريون مدة أكبر نير ستالين وتعسفه واحتقاره للحزب وطبقة الشغيلة"...

إن تأثير برنامج ريوتين السياسي على ستالين كان عنيفًا للغاية، حتى أنّ من تبقى من أنصار تروتسكي اختاروا هذه اللحظة للتحرك من جديد. وفي تشرين الأوّل ـ أكتوبر عام ١٩٣٢ التقى "إ. س. غولتسمان"، الموظف السوفياتي والتروتسكي العتيق، "سيدوف"، ابن تروتسكي لتسليمه ملفًا نقديًا للغاية بعنوان "الوضع الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي". وقد نشر دون توقيع في العدد التالي من السنوية التروتسكية "نشرة المعارضة". وقد اقترح غولتسمان كذلك خلق جبهة موحدة لفصائل المعارضة داخل الاتحاد السوفياتي. ولم يبقَ من المعارضة اليسارية سوى بعض العناصر المبعثرين وقد انهارت معنوياتهم وخارت عزائمهم. غير أن تروتسكي بالغ في تقدير وزن أصدقائه في الاتحاد السوفياتي. فقد كتب إلى ابنه يقول: "يبدو أن اقتراحًا كهذا بإنشاء تحالف مقبول تمامًا". أما ستالين فكان لديه رؤية فعالة عن الخطر التروتسكي في الاتحاد السوفياتي حتى أنه أبعده بنفسه. وفي عام ١٩٣٦، عندما أدان شرطته لتأخرها "أربع سنوات" على الأقل "لاكتشاف التحالف التروتسكي الزينوفييفي"، كان يفكر بعدم أهليته في سحق برنامج ريوتين السياسي والتروتسكيين في سنة ١٩٣٢.

لم يصبح ستالين بعد جاهزًا للانطلاق في ملاحقة تروتسكي في المنفى، إنما يبدو أنه كان من المطلوب تصفية ريوتين الفورية. ورغم دعم دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU، فقد اقترعت أكثرية أعضاء المكتب السياسي ضده، وذلك بتحريض محتمل من زعيم الحزب في لينينغراد، "سيرغي كيروف". غير أنه تم طرد الثمانية عشر مُوَقِعًا على البرنامج السياسي من الحزب بحجة مضحكة وهي محاولتهم إنشاء تنظيم بورجوازي، "كولاكي" لإعادة الرأسمالية وخاصة نظام الطبقات في الأرياف عبر نشاطات سرية مستندين زورًا وبهتانًا على الماركسية اللينينية... وقد تم كذلك طرد

زينوفييف وكامينيف، كرمزَين للمعارضة وليس كقائدين لها، كونهما لم يبلغا عن مجموعة ريوتين المعادية للثورة.

وفي كانون الثاني - يناير عام ١٩٣٣، وخلال دورة انعقاد اللجنة المركزية مع لجنة المراقبة المركزية، أعلن ستالين تنشيط "الصراع الطبقي":

"لا يجب أن يغيب عن بالنا أن قوة الدولة السوفياتية المتعاظمة ستُصلِّب مقاومة بقية الطبقات المنقرضة". أمر بالغ الدلالة، إنه يدين أعضاء هذه الطبقات كونهم "بالتخريب، سببوا المجاعة والكثير من الصعوبات الاقتصادية، وكونهم "نجحوا أحيانًا في التسلل داخل الحزب"، إنما ومرة أخرى، اضطر ستالين لمواجهة معارضة ما. وقد أكد سكرتير اللجنة المركزية، بوستيتيف Postitev، على أنه من غير المجدي استخدام الكولاك كبش محرقة في خضم الصعوبات الناجمة عن إدارة المزارع الجماعية الكبرى: "بتأكيدنا أن الكولاك والمخربين والضباط وأنصار بتليورا وغيرهم، هم المسؤولون عن الفوضى في أعمال الحصاد وعن تخريب أعمال جمع الحبوب، بتأكيدنا على ذلك لا نغير من الوضع شيئًا". وفي ذلك الوقت، تكررت عملية نقد سياسة الحزب الزراعية، ولآخر مرة في حياته أقر ستالين بأخطائه، وقال: "إننا نتحمل المسؤولية". حتى أن إحدى الجرائد أوردت خطابه كمثل على "النقد الذاتي البلشفي".

لقد ظهر اتجاهان متباعدان على مستوى قيادة الحزب. فقد تعجل ستالين وضباطه إطلاق كل قوى GPU ضد قوى الثورة المضادة. بينما تمسك آخرون بتجديد "الشرعية الاشتراكية". وفي حقبة ما، بدا لستالين أن من الحكمة عدم مقاومة هذا الاتجاه علنًا. ففي أيار - مايو عام ١٩٣٣، قبل بإجراء "تحقيقات" سرية تدين القمع الجماعي في الأرياف. وبعد ذلك بشهر تسلم النائب العام للاتحاد السوفياتي سلطات إضافية كان المقصود منها في الظاهر الحد من تجاوزات GPU. ومع ذلك فإن عبادة ستالين أخذت

في هذه المرحلة بعدًا هائلاً. وبمناسبة احتفالات الأول من أيار ـ مايو ١٩٣٣، منحه المارشال فوروشيلوف عبر خطبته، ولأول مرة، لقب الزعيم. وفي موسكو وبمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر السنوية، كان عدد صور ستالين ضعف عدد صور لينين.

عادت المعارضة إلى الظهور في المؤتمر السابع عشر للحزب، مع بداية عام ١٩٣٤. والآن يعترف الكل في الاتحاد السوفياتي بأنه نال ٣٠٠ صوت أقل من كيروف في انتخابات اللجنة المركزية. لقد فقد لقبه كسكرتير أول ليصبح سكرتيرًا عاديًا. ومع ذلك، فقد تمت معارضة سرية للغاية ضد ستالين حتى أن أكثرية الشعب الروسي لم تتمكن من تحقيق واحدة منها عند وجودها. وحتى الآن، فإن حجمها الحقيقي بقي على المستوى النظري. بالمقابل، ومنذ عام ١٩٣٤، أصبحت عبادة ستالين الغريبة أكثر وضوحًا بكثير من كل معارضة. ومع أن هيمنته على الحزب لم تكن كاملة، فقد راح يسيطر تدريجيًا على كل الجهاز القمعي. ففي عام ١٩٣٤، وإثر وفاة مجنسكي، المعاق منذ زمن طويل، خلفه إياغودا، القائد الفعلي لدائرة أمن الدولة السوفياتية GPU.

وفي تموز ـ يوليو، أصبحت GPU الـ GUGB (الإدارة المركزية لأمن الدولة) المدمجة في الـ NKVD (الهيئة الشعبية للعمل الداخلي) التي يقودها إياغودا. ومنذ ذلك الحين انضمت إلى تنظيم واحد كل من الشرطة السياسية والقوى النظامية، وابتداء من تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٣٤، كل المنظومة الجزائية. أما الشرطة السياسية التي يشار إليها غالبًا باسم NKVD فلم تكن في الواقع سوى أحد أطراف هذه المجموعة. ويعود أمر كل هذه القوة الجبارة بشكل مذهل إلى ستالين. أما الخط الذي يصل ستالين بالهيئة الشعبية NKVD فهو الديوان الخاص الذي يقوده أ. بوسكريبيتشف Poskrebytchev. ويقول المنشق عن NKVD، الكسندر أورلوف، بأن هذا الأخير

ومالانكوف كانا يقودان "مجلسًا صغيرًا" يُقيِّم ولصالح المكتب السياسي فائدة أقلَّ خبرية. وشكل ديوان ستالين ميدان التدريب المثالي لأحد المحسوبين عليه نيقولاي ايجوف Iejov. وكان على هذا الأخير أن يخلف إياغودا على رأس الـ NKVD ويشرف على موجة الرعب الكبيرة.

ومع مصرع كيروف، سكرتير الحزب في لينينغراد والمنافس الرئيسي المحتمل لستالين في الأول من كانون الأوّل - ديسمبر عام ١٩٣٤، راحت سلطات الـ NKVD تنمو وتتضاعف. فقد تلقى كيروف رصاصة في عنقه لحظة مغادرته مكتبه في مركز الحزب في لينينغراد. أما قاتله، ليونيد نيقولاييف، المختل، فقد اعتبر أنه سليل الجزارين الشعبيين التابعين للقيصر الكسندر، والمدهش في الأمر، أن حرس كيروف كانوا قد أوقفوا نيقولاييف مرتين وبحوزته مسدسٌ محشوٌ، وقد أخلت NKVD في لينينغراد سبيله في المرتين. وبعد ذلك بنصف قرن، وعندما كان غورديفسكي يتحدث عن هذا الاغتيال مع أعضاء الـ K.G.B، لم يشكك أيًا منهم بأن أمر القتل صدر عن ستالين نفسه. وتفيد النظرية الأكثر انتشارًا بأنه حدًّ من سلطات إياغودا الذي لم يمنحه ثقة كاملة، وعمل بواسطة مسؤول الـ NKVD في لينينغراد، فيليب ميدفويف ومساعده زاوبوروجتس. وفي ما بعد، كان على خروتشيف أن يستنتج، وهو مخطئ على الأرجح، أن أياغودا متورط كذلك، وإنه كان قد تلقى أوامر مباشرة من ستالين، بوصوله إلى لينينغراد بعد مقتل كيروف، قام ستالين بأحد أفضل أدوار مهنته... فقد صفع بيده المقفزة، ميدفيديف Medvedev الآتي لاستقباله في المحطة، ثم وعندما شاهد جثة كيروف، بدا مثخنًا بالآلام. رسميًا تم فصل ميدفيديف وزابوروجتس لتهاونهما مع المجرم وقد ظهرا في ما بعد في الشرق الأقصى ليصار إلى إعدامهما رميًا بالرصاص عام ١٩٧٣ خلال مرحلة الرعب الكبير. واضطر خروتشيف لنشر

الفرضية القائلة بأن هدف هذه الاعدامات كان "من أجل إخفاء كل أثر لمنظمي مصرع كيروف".

في المساء ذاته لمقتل كيروف، ظهر مرسوم ينص على إجراءات مؤقتة بما فيها أحكام بالإعدام ضد الإرهابيين المتهمين. وبرأي خروتشيف، فقد تم إصدار هذا القانون دون "رضى المكتب السياسي" وبمبادرة من ستالين وحده. وعلى هذا النحو اكتسبت الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD واحتفظت خلال عشرين عامًا بحق الحياة والموت على كل هؤلاء الذي تختار وسمهم "بالإرهابيين". إن أوائل الضحايا الذين اكتشفتهم الـ NKVD بسبب مقتل كيروف كانوا حرسًا بيضًا مزعومين دخلوا سرًا عبر الحدود البولونية والفنلندية وليتونيا. وقد اعتقل مئة وأربعة من هؤلاء المتآمرين في حملة واحدة وأعدموا. وبعد ذلك بأرعة أسابيع، اكتشفت الـ NKVD "مؤامرة" جديدة. وفي ٢٢ كانون الأول - ديسمبر عام ١٩٣٤، أعلن أن نيقولاييف هو عضو في تنظيم إرهابي سري أنشأه أنصار زينوفييف. وأعد ستالين نفسه لائحة من مجموعتين من الرجال بجرم الزينوفييفية: "مركز موسكو" و"مركز لينينغراد". وأعلن إلى جانب ذلك أن نيقولاييف كان قد تلقى ٥,٠٠٠ روبل من قنصل ليتوانيا العام، المبعد في ما بعد، الذي أكد على الصلة بين أنصار زينوفييف وتروتسكي في المنفى. وفي ٣٠ كانون الأول - ديسمبر أعلن عن إعدام المتآمرين بعد محاكمة قصيرة غاب عنها محامو الدفاع.

وفي كانون الثاني - يناير من العام ١٩٣٥، كان زينوفييف وكامينيف نجميْ أول محاكمة سياسية لقادة المعارضة اليمينية القدماء. واعترف الإثنان بعبارات غامضة، بمسؤولية سياسية عن مقتل كيروف، إنما لم يعترفا أبدًا بكونهما المحرضين. وقد حكم عليهما بالسجن خمس وعشر سنوات. ومهما تكن هذه الإجراءات غريبة، فقد اعتاد

الشعب هذه الإعلانات عن مسلسل المؤامرة والمتآمرين بحيث كانت تظهر لهم مقبولة جدًا. بعد هذه المحاكمة استدعى ستالين اياغودا لتوبيخه: "إنك تعمل بشكل رديء، يا هنري غريغوريفتش!". وبرأيه كان لا بد من التنكيل بزينوفييف وكامينيف لانتزاع اعترافات كاملة منهم. وكان اياغودا منهارًا إثر هذا اللقاء، فعندما تحدث عنه لمساعده جيورجي بروكوفييف ذرف الدموع بغزارة.

خلال العام ١٩٣٥، وضع ستالين الأسس لهجوم على أكبر مستوى ضد كل المعارضين الحقيقيين أو المحتملين. فتطهير أعضاء الحزب الذي بوشر به عام ١٩٣٣، استمر في عام ١٩٣٤، بهدف معلن، هو استئصال الفساد وعدم الفعلية. وفي عام ١٩٣٥، اتخذ التطهير طابعًا مشؤومًا وسياسيًا في آنٍ معًا. "فالمصرع الدنيء للرفيق كيروف، قال ستالين في ما بعد، كشف العديد من العناصر المشبوهة حتى داخل الحزب". إن الطريقة الوحيدة للتخلص منهم لا يمكن أن تكون سوى تحقيق جنائي دقيق. وفي الحقيقة، وحسب متحدث باسم الحزب فإن "الكذب والدهاء في السياسة على الطريقة الجزويتية والازدواجية هي الوسائل الأساسية لأعداء الحزب"... على كل خلية أن تنظِّم حملة اعترافات ونقد ذاتي". "وهكذا تحولت الصالات الفسيحة المكتظة إلى كراسي للاعتراف"، هذا ما كتبه ايفجينيا غانسبرغ: "ولكل اجتماع "حساؤه اليومي" الخاص به. ويتوب العناصر كونهم أساؤوا فهم نظرية الثورة الدائمة وامتنعوا عن التصويت ضد البرنامج السياسي للمعارضة عام ١٩٣٢؛ ولأن "أزمة" شوفينية قد انتابتهم، ولأنهم لم يقدِّروا عاليًا الخطة الخمسية الثانية؛ ولأنهم ترددوا على بعض "المصطادين" وارتادوا مسرح الميرهولد Meyerhold".

وشيئًا فشيئًا، لم يعد ستالين يفكر إلا بمعارض واحد، ليس في متناوله: إنه ليون تروتسكي. فخلال الاستجوابات السياسية، كان سؤال الهيئة الشعبية NKVD الأكثر

تكرارًا هو التالي: "أتعتقد، نعم أم لا، أن تروتسكي هو الزعيم الأول للثورة المضادة البورجوازية؟" وفي أكثر الأحيان، كان يتم فضح المبعدين من الحزب على أنهم من جماعة تروتسكي أو زينوفييف. ومن منفاه المنعزل الذي كان حينئذ في زيوريخ، اعتبر تروتسكي أن هذه الأنباء هي أكثر من مشجِّعة. وقد كتب في كانون الثاني - يناير عام ١٩٣٦ ما يلي:

"إن من بين العشرة آلاف إلى العشرين ألف "تروتسكي" المبعدين في الأشهر الأخيرة، بضع عشرات أو بضع مئات على الأكثر، هم من الجيل القديم، المتحدِّر من المعارضين ما بين عامي ١٩٢٣ و١٩٢٨. فالأكثرية الساحقة هي من المنتسبين الجدد... ويمكن التأكيد دون أدنى ريب على أنه ورغم الثلاث عشرة سنة من التنكيل والوشاية والاضطهاد الذي لا مثيل له في وحشيته، ورغم التراجعات ومظاهر الارتداد الأكثر خطورة كذلك من الاضطهاد، فإن الأمميَّة الرابعة تمتلك وحتى الآن فرعها الأقوى والأكثر عددًا والأصلب عودًا داخل الاتحاد السوفياتي".

في هذه المرحلة، عاش كل من ستالين وتروتسكي، بالتناوب في عالم من الخرافات، وكان كل منهما يغذي استيهامات الآخر. فالاعتقاد الذي يتبناه ستالين عن وجود تروتسكيين روس – لا وجود لهم غالبًا – أصابت بالعدوى تروتسكي الذي بسروره الناجم عن اكتشاف مناصرين له أقنع بدوره ستالين بأن الخطر التروتسكي كان أشد خطورة كذلك مما يتصوره...

وفي الواقع، فإن السبب الذي من أجله لم يعد يُرى تروتسكي في الاتحاد السوفياتي كان في أنهم اختفوا فعليًا مع بعض الاستثناءات. وقد بدا ستالين والعديد من عناصر من الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD مقتنعين بأن اختفاءهم يؤكد ببساطة على أنهم انتقلوا إلى السرية... وغالبًا تحت ستار عناصر موالية للحزب. وخلال صيف عام

١٩٣٦، مَنَحَ قرارٌ سري صدر عن اللجنة المركزية واتُّخذ بمبادرة ستالين، الـ NKVD سلطات استثنائية لاستبعاد كل أعداء الشعب". وفي تموز - يوليو، حذَّر منشور سري، أرسل باسم المكتب السياسي وبموافقة ستالين وحده، كل منظمات الحزب قائلاً: "والآن وقد تبين لنا أن كل الوحوش التروتسكية والزينوفييفية ضمت الأكثر سخطًا من الأعداء اللدودين لشغيلة هذا البلد - جواسيس، محرضين، مخربين، حرس أبيض، كولاك، إلخ - في معركة دون هوادة ضد سلطة السوفيات، الآن وقد زال كل تمايز بين هذه العناصر من جهة والتروتسكيين والزينوفييفيين من جهة أخرى، فإن كل منظمة، كل عضو من حزبنا يستوعب بأن على الشيوعيين أن يُظْهروا، في كل القطاعات وفي كل الظروف يقظة عالية جدًا. ولا بد من أن تكون الصفة الأساسية لكل بلشيفي في الظروف الحالية هي معرفته في كشف عدو للحزب مهما كانت مهارته في التنكر". وخلال الأسابيع التالية، كشفت حملة صحافية أنه ونتيجة خطأ الليبرالية الفاسدة واليقظة الضعيفة عند بعض الشيوعيين، فإن بعض "المنحطين التروتسكيين - الزينوفييفيين" استمروا يعملون في صفوف الحزب.

في ١٩ آب ـ أغسطس بدأت محاكمة "المنحطين" الرئيسيين. وقد اعترف زينوفييف وكامينيف وشركاؤهما هذه المرة بما كانوا قد أنكروه في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٣٥، مع العلم بأنهم كانوا "المنظمين المباشرين" لمصرع كيروف وأن هذه الجريمة يجب أن تكون الأولى في سلسلة طويلة موجهة ضد قادة آخرين سياسيين بما في ذلك ضد ستالين. وقد كان هدف هذه العملية هو قلب النظام. فمنذ عام ١٩٣٢، وهم يعملون حسب تعليمات تروتسكي، غير الموجودة، -التي ينقلها لهم عناصر سريون (ليست أقل وهمًا). وقد وصف أحد المتهين لقاءًا له مع ابن تروتسكي في فندق في كوبنهاغن قد مر في الحقيقة منذ عشرين عامًا. وعلى

هذه الجرائم الخيالية، فقد حكم بالموت على كل أعضاء "المركز الإرهابي التروتسكي الزينوفييفي".

وتشير اعترافاتهم العامة إلى مرحلة مهمة في ولادة وإعداد موضوع مؤامرة واسعة جمعت وفي مرحلتها الأخيرة كل المعارضين للستالينيّين في الاتحاد السوفياتي وفي الخارج في مؤامرة واحدة رهيبة... وخلال المحاكمة جرى خلط ما تبقى من المعارضة اليسارية في روسيا مع تروتسكي. ووضع الحرس الأبيض والفاشية في السلة ذاتها. وعلم كذلك أن "المركز الإرهابي التروتسكي - الزينوفييفي كان قد غرق نهائيًا في مستنقع الثورة المضادة بقيادة الحرس الأبيض" وضُمَّ إليه "وأصبح القوة المحرّكة لآخر العناصر المستغِلّة المندحرة". وقد تعاون كذلك مع الغستابو، كون تروتسكي قبِلَ القيام معه بحملة إرهابية ضد النظام السوفياتي. وفي مرافعته الأخيرة، أوجز زينوفييف بصيغة بليغة - مع أنها قليلة الاحتمال - علاقات مناصريه مع القوى النازية والفاشية العالمية: "إن التروتسكية هي نوع من الفاشية، والزينوفييفية هي نوع من التروتسكية".

بارتياح كبير من ستالين، أُقحم كذلك أنصار المعارضة اليمينية، بوخارين وريكوف وتومسكي، في المحاكمة. وقد فهم تومسكي بالإشارة وانتحر. إنما عند منتصف أيلول - سبتمبر، وبينما كان يمضي عطلته السنوية في سوتشي، علم ستالين بخبر مزعج وهو أنه تمت تبرئة بوخارين وريكوف في نهاية تحقيق قامت به الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. وهكذا طفت على السطح ظنونه القديمة بإياغودا. لقد بالغ إياغودا بتقدير قوة وضعه، كل ذلك مع سروره كونه وُعِد مؤخرًا بمنصب المفوض العام لأمن الدولة، وهو لقب يعادل لقب مارشال، وأن يسكن في الكرملين... مستسلمًا دون وازع لغروره، وقد أمر حتى بتبديل حرس الـ NKVD علنًا مع موسيقى

واحتفال على النمط القيصري. وفي ٢٥ أيلول ـ سبتمبر سقط عقابه على شكل برقية من ستالين ومن مؤيده "أندريا جدانوف"، موجهة إلى المكتب السياسي، يُطلب فيها أن يحل "نيقولاي إيجوف" محل إياغودا: "لقد انكشف إياغودا بالتأكيد أنه غير قادر على كشف الكتلة التروتسكية الزينوفييفية. فقد تأخرت المديرية السياسية لأمن الدولة OGPU [NKVD] أربع سنوات في هذا المجال". وهذا تلميح واضح إلى رد فعله الضعيف إزاء برنامج ربوتين السياسي "المعادي للثورة" والخطر التروتسكي عام ١٩٣٢.

ولا ريب في أن ستالين راح يفكر بمشروع تنظيم حملة تطهير واسعة في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، غير أنه قرر في المقام الأول تهدئة ريبة إدارته وذلك بتصفية إياغودا ومساعده فقط. ولأول وهلة لم تجر تصفيتهما واعتقالهما إنما وببساطة تمت تسميتهما مفوض ومفوض مساعد في وزارة الاتصالات. أما خلَف إياغودا، ايجوف الصغير، ذو المظهر الطفولي، فكان أول روسي يترأس إحدى المؤسسات ـ سلف الـ K.G.B. وقبل ذلك بوقت قصير، وبصفته سكرتيرًا للجنة المركزية ورئيس مفوضية الرقابة في الحزب، ترأس إيجوف الـ NKVD لحساب ستالين. فقد أوجد داخل تنظيم الحزب قوى أمنية موازية للـ NKVD ـ ومن المرجح أن تكون هي التي دبرت مصرع كيروف، بأمر من ستالين. وكان ايجوف قد شارك كذلك بتحضير محاكمة "مركز الإرهاب التروتسكي ـ الزينوفييفي".

مقيمًا في لوبيانكا، شارك في الاستجوابات بصفته ممثل الحزب، في الشأن الأمني. واهتم بشكل خاص بالطرق التي تسمح له بانتزاع اعترافات من السجناء الأكثر مقاومة، وكان يطلب مرارًا من المستجوبين "ما هي برأيهم حدود الاحتمال عند السجناء". وكان فخورًا بشكل خاص في نجاحه بجعل بلشيفي عتيق أبدى مقاومة شديدة

يذرف الدمع مهرارًا عند تهديده بأولاده. وقد اضطر أحد "المستجوبَين" اللذين شهدا هذا الانتصار لأن يؤكد في ما بعد: "لم أر في حياتي مجرمًا أثيمًا مثل إيجوف. فهو يأنس إلى ذلك". ولم يستحسن إياغودا كثيرًا في أن يتمركز إيجوف في لوبيانكا، غير أن يقظته رفدت بالعز الذي غُمِر به عام ١٩٣٦، وبغروره المهلِك وبأمله في دخول المكتب السياسي[١].

وفي ظل إيجوف، جرى التخلص من آخر العقوبات التي كانت تحول دون تصفية أعداء ستالين الخياليين. أما السنتان التاليتان، المعروفتان في الغرب باسم "الرعب الكبير"، فقد أطلق عليهما اسم "إيجوفشتشينا Iejovchtchina" في الاتحاد السوفياتي. وقد جرت المحاكمة الصورية التالية في كانون الثاني – يناير عام ١٩٣٧، إنها محاكمة "بياتاكوف" و"رادك" وخمسة عشر من المتآمرين المزعومين. وكان ينوي كشف ما هو أكثر من "المركز الإرهابي التروتسكي – الزينوفييفي" المفتضح أمره خلال محاكمة ١٩٣٦، إذ إن تروتسكي كان قد أنشأ كذلك "مركزًا احتياطيًا" هو المركز التروتسكي المعادي للسوفيات"، في حال انكشاف أمر المركز الأول. وقد أدين هذا المركز بالتآمر مع "عدو الشعب ليون تروتسكي" و"بعض ممثلي ألمانيا واليابان"، "من أجل إسقاط سلطة السوفيات في الاتحاد السوفياتي وإعادة الرأسمالية إليه وسلطة البرجوازية وذلك بالتخريب والانحرافية والتجسس ومختلف النشاطات الإرهابية المخصصة لزعزعة قدرة الاتحاد السوفياتي الاقتصادية والعسكرية؛ وتسريع هجوم مسلح ضد الاتحاد السوفياتي... ومؤازرة البلاد الأجنبية المعتدية وتسهيل هزيمة الاتحاد السوفياتي".

---

١ – Conquest Robert, *Inside Stalin's Secret Police: NKVD Politics 1936-1939*, Macmillan (London,1985), pp. 22-23.

والملفت للنظر أنه أسند للنظام النازي ودوائره الاستخباراتية في المحاكمة ضد "المركز التروتسكي المعادي للسوفيات" دورًا أكبر من دورها بكثير خلال المحاكمة السابقة. والجديد في الأمر هو كذلك الظهور الأول للحكومة اليابانية، كمتآمر خطير. وقد زُعم أن تروتسكي وَعَد الألمان بمنحهم أوكرانيا ومنح اليابان المقاطعات البحرية القريبة من نهر آمُوْر كمكافأة لهما على مساعدته. وقد قدم "المركز التروتسكي المعادي للسوفيات" بانتظام للألمان واليابانيين معلومات سرية "على درجة كبيرة من الخطورة"، ونظم لحسابهم عمليات تخريب زمن السلم وكُلِّف كذلك بأعمال تخريبية أبعد مدى زمن الحرب. وقد تصل هذه الأعمال إلى الحرب البكتريولوجية و"ذلك بتلويث القطارات المولجة أمر نقل الفرق ومطاعم الجنود والثكنات بالبكتيريا الفتاكة للغاية".

وفي ١٨ آذار - مارس من عام ١٩٣٧، وبمناسبة اجتماع في قاعة الطعام الخاصة بضباط الهيئة الشعبية NKVD، كشف إيجوف كذلك بعدًا مدهشًا للغاية للمؤامرة المضادة للثورة. وعندما التأم مجلسه المضطرب، فإن عددًا من مسؤولي المخابرات في إدارة إياغودا كانوا قد أصبحوا وراء القضبان، وأرسلوا إلى الريف بحجة القيام بعمليات تفتيش في المناطق.

وقد تم إيقافهم في أول محطة بعد موسكو. لقد وصلت المؤامرة حتى إلى قلب الـ NKVD كما قال إيجوف. والخائن الرئيسي هو إياغودا شخصيًا. فبعد أن عمل لحساب أوخرانا، جندته الدوائر السرية الألمانية التي استخدمته للتسلل إلى تشيكا... قبل عزله، كان لديه متسع من الوقت لزرع جواسيس في مركز أساسي من الـ NKVD؛ وقد سبق أن تم توقيف البعض منهم. ومع أن أكثرية الحضور تعرف أن هذا الخطاب كان هذيانًا محضًا، فقد وافق الجميع عليه... وعلى حد قول والتر تريفيتسكي، الضابط المسؤول في فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO الذي عقّب في ما بعد بعدة أشهر في

الغرب، "لقد صفق هؤلاء لإعطاء البرهان على أمانتهم. من يعرف؟ فلعل اعترافًا ملائمًا قد يجنبهم طلقة في الجزء الأسفل من الدماغ. وقد يتمكنون، عبر خيانة أقرب أصدقائهم، من استعادة الحق بالحياة مرة أخرى".

كان أول المتكلمين آرتوزوف؛ وقد انتهز الفرصة للانتقام من "آبراهام سلوتسكي" الذي احتل مكانه على رأس فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO في عام ١٩٣٤. وبدأ بالاعتراف "بالضلال" الجماعي الذي حال دون رؤيتهم خيانة إياغودا وأتاح له "وضع إدارة أمن الدولة السوفياتية GPU بمواجهة الحزب". وأعطى مثلاً على ذلك الدعم الذي محضته الـ GPU لمحاولات إياغودا عام ١٩٣٢ وذلك من أجل التخلص من أكولوف، رجل ستالين: "عليَّ أن أقول، بكل صدق، إن كل التنظيم الحزبي في GPU أصر على تخطي أكولوف". ثم انتقل أرتوزوف إلى الهجوم: "ها أنذا أطرح عليكم السؤال التالي: من كان في هذه الفترة مسؤول التنظيم الحزبي في الـ OGPU؟"، توقف لحظة ليأخذ السؤال مفعوله، ثم صرخ: "سلوتسكي!".

مأخوذًا بالمفاجأة، بدأ يرتبك محاولاً الدفاع عن نفسه. ثم عثر على أرض واعدة: إنني اسألك يا أرتوزوف، أين تسكن؟ من يسكن مقابل بيتك؟ ألم يكن في عداد المجموعة الأولى من الموقوفين؟ ومن كان جارك الذي يقطن فوق بيتك يا أرتوزوف؟... أوستروفسكي؟! إنه في السجن، هو الآخر. ومن كان جارك فوق بيتك، يا أرتوزوف؟... إياغودا! والآن أطرح عليكم هذا السؤال، أيها الرفاق، من يمكنه، في ظل هذه الظروف، السكن تحت السقف ذاته لإياغودا دون التمتع بثقته الكاملة والمطلقة"؟.

وسرعان ما تم توقيف أرتوزوف وإعدامه رميًا بالرصاص. أما أكثرية مسؤولي إدارة إياغودا فخضعوا للمصير ذاته خلال السنة التالية. والاستثناء الوحيد كان

سلوتسكي. فقد جومل لمدّة ما بهدف اجتذاب ضباط فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO الموجودين في الخارج إلى موسكو ـ على أمل إنقاذ دائرتهم ـ وذلك من أجل تصفيتهم. وفي شباط ـ فبراير من عام ١٩٣٨، لم يعد يمثل بقاءه أيّ مصلحة، فدُعي لتناول الشاي والحلوى في مكتب مساعد إيجوف: "ميخائيل فرينوفسكي"، ومات فورًا، بنوبة قلبية مزعومة، وقد لاحظ ضباط مجرَّبون من NKVD الذين شهدوا رفع الجثة بقعًا خاصة على الوجه ناجمة عن حامض البروسيك Prussique. وفي بيان الوفيات الرسمي الموقع من قبل "رفاق النضال"، وصف بأنه "مقاتل جريء في سبيل قضية الطبقة العاملة" : "فحتى تخوم وطننا الواسع، يعرف عناصر التشيكا اسمه. الذي يوحي لأعدائنا بالخوف". ولكن وعلى خلاف أسلافه، لم تعلق صورة سلوتسكي على جدران صالة الشرف في المديرية العامة الأولى PDG ، التابعة للـ KGB.

أما المؤامرة الخيالية الثانية "التي اكتشفها" إيجوف فأقحمت الجيش الأحمر. ففي ١١ حزيران ـ يونيو، أعلن أن المارشال "توخاتشفسكي"، بطل الحرب الأهلية والخبير العسكري الرئيسي في الاتحاد السوفياتي، تم إيقافه مع سبعة جنرالات، وقد اتهموا جميعًا بالخيانة. وأعدم الجميع بالرصاص، في اليوم التالي على الأرجح. وقد أعلن المارشال "فوروشيلوف" أن الخونة "اعترفوا بخيانتهم وكذلك بأعمال تخريب وتجسس". وقد علم بعد ذلك بأنهم كانوا ضالعين بعمل مشبوه مع تروتسكي وألمانيا النازية. ومهما بدت مثل هذه المزاعم مستحيلة، فقد عاش ستالين وإيجوف في خوف كبير من مؤامرة مضادة للثورة بحيث يبدو أنهما ارتابا قولاً بانقلاب عسكري. أما فرينوفسكي الرجل الثاني بعد إيجوف فصرّح لكريفيتسكي: "لقد اكتشفنا للتو داخل الجيش مؤامرة لا مثيل لها. وقد علمنا في الحال بمشروع اغتيال ضد نيقولاي ايفانوفيتش (ايجوف) نفسه! وقد قبضنا عليهم جميعًا. وسيطرنا على الوضع تمامًا". وقد أعطى المسؤول المساعد لفرع

تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO، "ميكائيل شبيجلغلاس" الرواية ذاتها للأحداث كما رواها منشق آخر في ما بعد هو "ألكسندر أورلوف": "إنها مؤامرة حقيقية! وهذا يلفت النظر للرعب المنتشر حتى القمة: وقد أعلن أن كل أذونات المرور إلى الكرملين أصبحت لاغية؛ وقد استنفرت فرقنا العسكرية. وكما قال فرينوفسكي: لقد كانت الحكومة السوفياتية بكاملها مرتبطة بخيط. وكان من المستحيل التصرف كما في الأحوال العادية: فالمحكمة أولاً ثم التنفيذ. وفي هذه المرة، اضطررنا للإعدام أولاً ومن ثم تم إعلام المحكمة بالضربة".

وقد ظهر في ما بعد أن الغستابو كان يريد استغلال الذهان الهذياني عند ستالين وذلك بنشر ملفات مزيفة في تشيكوسلوفاكيا للإيهام بأن "توخاتشفسكي" ينوي القيام بانقلاب بدعم من ألمانيا. ومع ذلك ظهر أن تدخل الغستابو غير مجدٍ... وكان ستالين قد قرر تصفية المؤامرة العسكرية الخيالية حتى قبل أن يلفت الرئيس بنيس Benès نظره. وقد أباد ستالين وإيجوف تلقائيًا قيادة الجيش الأحمر العليا بمثابرة تجاوزت إلى أبعد الحدود، أحلام الغستابو الأكثر جنونًا.

ولا ريب في أنه لم يُعرف أبدًا العدد الصحيح لضحايا الايجوفشتشينا. وكجواب على طلب سري من المكتب السياسي عام ١٩٥٦ قالت الـ K.G.B إن عدد الذين أوقفوا هو حوالي تسعة ملايين شخص في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٥ و١٩٤٠، من بينهم سبعة ملايين ماتوا بسبب المجاعة... وفي الحقيقة، فإن عددهم هو أكثر بكثير من ذلك[1]. ويهزأ ماكابر Macabre قائلاً: إنه ومن بين المؤسسات الثلاث التي من

---

١ - Lewis Jonathan et Whitehead Phillip, *Stalin, A Time for Judgement*, Metheun (London,1990) p. 109.

المفترض بها حماية الدولة السوفياتية من "أعداء الشعب" ظهر أن أخطرها هي: الحزب والجيش الأحمر والهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD.

إن مئة وعشرة من ١٣٩ عضوًا في اللجنة المركزية القادمين من مؤتمر الحزب المنعقد عام ١٩٣٤ تمت تصفيتهم أو اعتقالهم. وظهر مرة أخرى تسعة وخمسون فقط من ١٩٦٦ مندوبًا في المؤتمر اللاحق للعام ١٩٣٩. أما أعضاء المجلس العسكري الأعلى الثمانون فأعدم منهم بالرصاص خمسة وسبعين. وقد قتل أو اعتقل أكثر من نصف عدد ضباط الجيش الأحمر ـ البالغ ٣٥ ألف رجل على الأرجح. وقد تعرضت إدارة الـ NKVD إلى عمليتي تطهير. وهناك ١٨ مفوض في أمن الدولة التابعة لإياغودا من المستوى الأول والثاني جرى إعدامهم بالرصاص، ما عدا سلوتسكي الذي مات بالفعل مسمومًا، تحت رعاية ايجوف ومن أصل ١٢٢ رجل يحتلون المراكز الرسمية العليا في عهد إيجوف في العامين ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، فإن ٢١ موظفًا فقط كانوا في مراكزهم عام ١٩٤٠ في عهد خلفه....

وانتصرت الايجوفشتشينا على ما تبقى من مثالية قادة تشيكا الأوائل، المقتنعين بالطبع الضروري لوحشيتهم من أجل بناء مجتمع جديد والتغلب على الثورة المضادة. وكان أحد الشهود العيان على التحول الفكري الطارئ لدى محققي الـ NKVD هو الكاتبة "ناتاشا ماندلستام Mandelstam" زوجة الشاعر المغدور "أوسيب ماندلستام": "إن جيل الشباب الأول العامل في تشيكا الذي أبعد وأبيد عام ١٩٣٧، يتميز بأذواق مرهفة وضعف إزاء الأدب ـ بالتأكيد ما عدا الكتاب المشهورين. وقد قال كريستوفوروفيتش لِـ"أُسيب" بحضوري إنه كان من المفيد للشاعر أن يختبر بنفسه الخوف (كنت قد قلت لي ذلك بنفسك) مصدر الوحي الممكن، وعلى وجه الدقة سيعرفه في العمق". لقد مات ماندلستام في مخيم، وجرى إعدام محققه،

كريستوفوروفيتش[1]. وكان خلفاؤه قليلي الثقافة وأقل مثالية كذلك. فداخل الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، كما وداخل الحزب، ترتب على الشروط التي حصل في ظلها الرعب أن استمر في الحياة فقط رجال دون أخلاق ومستعدون للوشاية بالآخرين والنجاة بحياتهم. إن مجموعات المنفذين في الهيئة الشعبية NKVD الموجودين حول مخيمات المجاعة Goulag تحولوا غالبًا إلى سكارى. فقد كانوا يتلقون كل صباح قدحًا من الفودكا حين ذهابهم لاستعادة سلاحهم الآلي من مركز الحراسة. ثم يلجأون إلى دفع ضحايا اليوم في شاحنات، والسير بهم حتى خنادق حفرها معتقلو القانون العام وبعد جعلهم صفوفًا، يبدأ إطلاق النار عليهم. "كان البعض يستمر صامتًا والبعض الآخر يزعق بأنه كان شيوعيًا صالحًا، ويموت الآن بريئًا... وأما النسوة، فيَبكينَ ويتزاحمن متدافعات". وفي بعض الأماكن، كان الرماة النخبة التابعون للهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، يرصفون السجناء جنبًا إلى جنب ليروا كم بإمكانهم أن يقتلوا بطلقة واحدة. وعند انتهاء العمل، تعود مفارز الإعدام إلى المخيم، ترد سلاحها إلى مركز الحرس، يتناول كل واحد ما طاب له من الفودكا ثم يهرع الجميع إلى النوم[2].

وكان في عداد ضحايا الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD شيوعيون روس علاوة على بعض الأجانب. وقد تم فضح أكثرية الأعضاء الرسميين في الكومنترن والشيوعيين غير الروس القاطنين في موسكو على أنهم "عناصر عدوة" أو "جواسيس أجانب" وبعد ذلك جرى رميهم بالرصاص. والأكثر تعرضًا لهذه الأعمال كان أعضاء

---

١ - Mandelstam Nadela, *Hope against Hope*, Collins (London,1971), pp. 75-76, et *Hope Abandoned*, Collins (London,1974).

٢ - Razgon Lev, *The Executioner's Song*, (Moscow News,1988) No. 48; Poznyak Zenon, *Kuropaty* (Moscow News,1988) No. 41.

الأحزاب الشيوعية غير الشرعية وعائلاتهم الذين لا يستفيدون من حماية بلدهم الأصلي لهم. وكانت أكثريتهم قد عرفت السجن في الخارج، وكان على الدوائر السرية الرأسمالية، كما يُعتقد، تجنيدهم كعملاء لديها. فالحزبان غير الشرعيين اللذان يضمان أكبر عدد من الجواسيس "الخياليين" - حسب قادتهم في المنفى - كانا الحزب البولوني واليوغوسلافي. فقد كان البولونيون محط كل الظنون... وعند موت لينين: جرى تصنيف قادتهم اليهود إلى جانب تروتسكي. وقد أعدموا جميعًا. وها هو مانويلسكي Manovilsky يعلن في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٣٩: "فمن أجل إفساد الحركة الشيوعية حاول الجواسيس الفاشيون ـ التروتسكيون إنشاء "عصابات" و"زمر" مصطنعة داخل عدة أحزاب شيوعية وتشجيع الانشقاقات بين هذه العصابات. والملوث بشكل خطير بالعناصر المعادية، كان الحزب الشيوعي البولوني، حيث نجحت عناصر فاشية في أن تتبوأ مراكز قيادية".

وكان ستالين يرتاب، وبالقدر نفسه تقريبًا، بالحزب الشيوعي اليوغوسلافي إذ إن زعيمه الأول لاسيما فاركوفيي اختلف معه حول مسألة القوميات عام ١٩٣٥. وللمفارقة، فإن الشيوعي الوحيد اليوغوسلافي المشهور الذي أوحى له بالثقة كان جوزيف برُوْز المعروف بتيتو. المخالف رقم واحد للكتلة الشيوعية بعد الحرب. ويروي هذا مستعيدًا ذكرياته: "عام ١٩٣٨. وعندما كنت في موسكو... ناقشنا ضرورة حل الحزب الشيوعي اليوغوسلافي. وقد تم إيقاف كل القادة اليوغوسلاف الموجودين حينها في الاتحاد السوفياتي. كنت وحيدًا، وقد أصبح الحزب ضعيفًا دون قيادة. وكنت هناك، وحيدًا"...

وفي شباط - فبراير من العام ١٩٣٨، شكلت المحاكمة الصورية لواحد وعشرين عضوًا في "كتلة المعارضة اليمينية والتروتسكية" الفرصة الأخيرة لكشف حجم

المؤامرة المضادة للثورة الخيالية القائمة ضد روسيا الستالينية. ووجد كل من بوخارين وريكوف وإياغودا أنفسهم - لكي لا نذكر المتهمين الأكثر شهرة - مأخوذين بالجرائم ذاتها الأشد خطورة كذلك: التجسس، التخريب ، الإرهاب، الاستعدادات بهدف غزو أجنبي، تجزئة الاتحاد السوفياتي، تفكيك النظام السوفياتي وإعادة إحياء الرأسمالية. وحتى الآن، فإن التروتسكيين غير متهمين سوى... بالتآمر مع الدوائر السرية الألمانية واليابانية: وأضيف إلى ذلك هذه المرة تعاون مع الدوائر البولونية والبريطانية، ويقال بأنّ تروتسكي نفسه كان قد اشتغل لحساب الألمان منذ العام ١٩٢١ ولحساب البريطانيين منذ العام ١٩٢٦. وكان إياغودا، ومنذ زمن طويل، "محاطًا بالجواسيس الألمان واليابانيين والبولونيين مثل غيمة من الذباب". فقد كشفت المحاكمة السابقة أن تروتسكي ومختلف الفئات المضادة للثورة العاملة تحت قيادته كانت قد وعدت بتقديم أوكرانيا لالمانيا، والمقاطعات البحرية من منطقة أمور لليابان: وفي شباط - فبراير من عام ١٩٣٨، اكتشف أنهم وعدوا كذلك أن يقدموا "بيلاروسيا" إلى بولونيا، و"أوزبكستان" إلى بريطانيا العظمى. وقد ظهر الإرهاب التروتسكي أشد دهاءً وأقوى مما كان يفترض. لم يكن إياغودا ليكتفي بالمشاركة في مصرع كيروف، إنما كان أحد الأوائل الذين مارسوا "طرق التخريب الطبية" ونظموا عملية تسميم سلفه مجنسكي والكاتب الكبير "مكسيم غوركي"، ورئيس مجلس الدولة للتخطيط المدعو "ف. كويبيتشيف". وهذا الذي كان قد صمم كذلك تسميم إيجوف شخصيًا، وقد كان توقيفه في الوقت المناسب قبل تنفيذ ذلك الأمر...

إن الشيء الرئيسي الجديد في المؤامرة المزعومة المكشوفة خلال هذه المحاكمة كان الأهمية المتزايدة المعطاة لدور الحكومات الغربية ودوائرها الاستخباراتية. فلم يعد التروتسكيون مجرد مساعدين للدوائر الأجنبية وإنما "العبيد"، "المرتبطين بأسيادهم".

وقد أعلن النائب العام السوفياتي، أندريه فيشنسكي في مرافعته: "إن كتلة المعارضة اليمينية والتروتسكية ليست بأي حال من الأحوال تجمّعًا سياسيًّا، وإنما عصابة من الجواسيس وعملاء لدوائر الاستخبارات الأجنبية... ونحن نملك البراهين الكاملة الصريحة في هذا الموضوع. ومن هنا الأهمية الكبيرة الاجتماعية والسياسية والتاريخية لهذه المحاكمة".

ومنذ محاكمة شختي قبل عشر سنوات، أصبح دور الاستخبارات الأجنبية في المؤامرة الساعية لإسقاط النظام السوفياتي، كما يرى ستالين وكذلك الهيئة الشعبية للعمل الداخليNKVD، ذا أهمية متزايدة. وفي روايتها الأخيرة، فإن أطروحة المؤامرة أسندت إلى أصول الدولة بالذات هذا "العمل الشيطاني للدوائر السرية الأجنبية" في كل نشاط مضاد للثورة: "إن كل تاريخ الثورة المضادة البورجوازية في الاتحاد السوفياتي مرتبط بالمحاولات الثابتة للأوساط الأكثر رجعية من البورجوازية العالمية في إسقاط سلطة السوفياتات. فلم تحصل أية مؤامرة جدية إلى هذا الحد أو ذاك ضد السلطة السوفياتية دون مشاركة مباشرة وفعالة من الرأسماليين الأجانب والأوساط العسكرية".

وقد حضر دبلوماسي بريطاني شاب، مركزه في موسكو، هو السير "فيتزروي ماكلين" محاكمة "كتلة المعارضة اليمينية والتروتسكية". فهناك مصباح ضعيف ينير مربط الحصان الخاص في عمق الصالة. وعرف ماك لين، وقد أخذته الدهشة، شارب ستالين المسدول وسحنته الصفراء... مع أنه لم يهتم صراحة بأي تفصيل عن الرعب، ولا حتى عرف أسماء أكثرية ضحاياه... فقد رفع ستالين ذراعيه مواجهًا... وقد روى، والد غورديفسكي وبعض الأعضاء القدماء في الـ K.G.B لهذا الدبلوماسي إنه وبعد موت كيروف كان الدكتاتور يستقبل يوميًا إياغودا، ثم في وقت متأخر من المساء إيجوف. ولم يكن من النادر أن تستمر اللقاءات الليلية مع هذا الأخير من الساعة

العاشرة حتى الثانية صباحًا... وكان لستالين مصلحة في الاتكال على وسواس اضطهاد الشخصيات المفاتيح داخل الحزب والهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD والجيش، وكان يرتاح كذلك لاكتشاف عدد كبير من "أعداء الشعب" في أوساط متواضعة. وكان أتباعه الموثوقون أكثر من غيرهم مثل كاغانوفيتش يقومون بجولات في الريف للتأكد من الحصول على هذه الكوتا من "الاكتشافات" أو تجاوزها. ولم ترضِ أبدًا الأرقام الحاصلة ستالين حتى في المرحلة الأشد وطأة من الرعب الكبير. وفي وقت لاحق يصف ميكائيل شريْدر، قائد ميليشيا منطقة إيفانوفو، جولة قام بها كاغانوفيتش عام ١٩٣٧. فخلال إقامته، كان هذا الأخير يتصل هاتفيًا بستالين عدّة مرات يوميًا لإعلامه بعدد الموقوفين. ومع أن عناصر الـ NKVD المحليين كانوا يلجأون، ومن أجل ابتزاز اعترافاتهم حول أعداء خياليين للشعب، إلى "أعمال تعذيب عنيفة"، على حد قول شريْدر، فإن كاغانوفيتش كان يطالب كذلك، وبعد كل مكالمة هاتفية، باعترافات على وجه السرعة. وفي أحد الأيام، طلب ستالين، بحضور شريْدر، إعلامه بآخر رقم لديه؛ وكالعادة فقد خاب ظن ستالين، وسمع شريدر زميله يكرر عدة مرات: "مفهوم، رفيق ستالين. سألح على مسؤولي دائرة الـ NKVD لكي لا يكونوا كثيري التسامح ويسرّعوا إلى الحد الأقصى عملية تحديد هوية أعداء الشعب".

إن "أعداء الشعب" الذين كانوا يتصلون بالخارج، كانوا يتوقعون إكراههم على الاعتراف بأنهم كانوا جواسيسَ كذلك. وبعد ذلك بسنوات كثيرة، كان غورديفسكي يعثر من وقت لآخر على ملفاتهم في أرشيفات الـ K.G.B. وهناك حالة نموذجية إلى حد بعيد وجدها في بداية عمله، أنها ملف شيوعي ألماني يدعى "ستيرم Sturm"، بقي محفورًا في ذاكرته، فعام ١٩٣٧، كان ستيرم قد تاه وأشرف على الموت جوعًا ما بين أوكرانيا والفولغا. وعندما عثرت الـ NKVD عليه في "كويبيتشف Kouibytchev" وهي

"سامرا القديمة"، كان قد تحول إلى استجداء خبزه. وبعد استجوابه عدة مرات، اعترف، وهو منهوك القوى، بأنه كان جاسوسًا ألمانيًا. وأعدم بالرصاص.

وحتمًا انتهى الرعب بامتلاك ديناميته الخاصة. فالحاجة، بالنسبة لكل "عدو خيالي للشعب" في أن يبلّغ عمن هم ليسوا أقل من شركائه الخياليين الذين تدور حولهم الشبهات التي يثيرها أصدقاؤهم وأهلهم، إن هذه الحاجة وسمت مسلسل التوقيفات للعامين ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ بمتوالية شبه هندسية. ولكن ستالين يبقى المسؤول الرئيسي عن الرعب، والرجل الذي كان يريد أن يتسع نطاق العنف قدر الامكان. ولتطوير الطابع المسرحي للمحاكمات الصورية، لم يتردد في إباحة اختلاق الأدلة. ولم يداخله أي أثر للشك حتى أنه آمن إيمانًا شديدًا، مثله في ذلك مثل إيجوف، بموضوع مؤامرة واسعة. تتضمن الجدلية اللينينية الحتمية فكرة هجوم ما، وتقترن هذه الفكرة العبثية، بالدوائر السرية الأمبريالية وغلمانها التروتسكيين. وفي رسالة مفتوحة نشرت أثناء محاكمة "كتلة المعارضة اليمينية والتروتسكية" استخدام ستالين تعابير لينين الخاصة لتبرير موضوعته عن المؤامرة: "إننا نعيش ليس في دولة فقط وإنما في منظومة من الدول، والأمر غير الوارد هو تعايش الجمهورية السوفياتية مع الدول الامبريالية إذ وعلى المدى البعيد سينتهي الأمر بأن ينتصر هذا الطرف أو ذاك. إنما من الآن فصاعدًا، فإن سلسلة من الصراعات الرهيبة ستحصل لا محالة بين الجمهورية السوفياتية والدول البرجوازية... ولا يجب أن ننسى أننا نعيش في ظل تهديد دائم بالغزو".

من "العبث والحمق"، كما يرى ستالين، الاعتقاد أن أعداء الاتحاد السوفياتي في الخارج لن ينتهزوا أول فرصة للمباشرة بالهجوم: "إن الوحيدين الذين يتمسكون بهذه الأفكار هم المتجسسون العميان أو أعداء الشعب". ووفقًا للمبادئ اللينينية، من غير

المعقول أن لا يحاول الامبرياليون إسقاط دولة العمال والفلاحين الوحيدة في العالم. وإذ يعتزمون هزيمتها، فمن واجب دوائر مخابراتهم بالضرورة محاولة هدم هذه الدولة. وإذا أريد دحض الموضوعة الستالينية عن المؤامرة في العمق - دون تناول التفاصيل - فلا بد من مهاجمة اللينينية بالذات.

وكان قد أظهر رد فعل لينين على "مؤامرة لوكهات"، قبل ذلك بعشرين سنة، المفهوم المانوي الذي صنعه لنفسه عن عالم مقسوم بين الظلام البرجوازي والنور البلشفي، وهذا ما دفعه باستمرار للاعتقاد بأنه ضحية مؤامرة ما. وهناك مجموعة ملفات نشرت في كانون الأوّل ـ ديسمبر عام ١٩٣٧ من شأنها أن تشير إلى "مجد الذكرى السنوية للتشيكا NKVD - GPU"... ومن أحاديث لينين ضد دسائس الثورات المضادة: "خيانة مدبرة في صفوفنا"، "تخريب الإنتاج الغذائي الذي يرمي ملايين الأشخاص في خطر المجاعة" و"منظمة واسعة مخصصة للتجسس"... وقد نادى قائد الثورة "بإجراءات مستعجلة لكشف المؤامرات التي لا تحصى" والتي دبّرها تكتل من المهاجرين الروس البيض والامبرياليين الأجانب: "إن الحل الوحيد هو امتلاك منظمة تشيكا معرفة أقل عمل وحركة للمتآمرين، ومعاقبتهم مباشرة دون أيّ محاولة لردهم إلى جادة الصواب"...

غير أن وسواس الجاسوسية والتخريب الأشد جموحًا لدى ستالين كان لا يمكن تصوره لدى لينين الذي وجد "أنه من المضحك الادعاء بأن الأجانب العاملين في إدارة بعض الهيئات التجارية يشكلون خطرًا أو أنه ليس بالإمكان مراقبتهم"... إن أي عنصر اتهام في المحاكمات الستالينية لم يكن ملحوظًا في حياة لينين.

لقد كانت روسيا أكثر عرضة للمؤامرات في عهد ستالين منها في عهد لينين، وذلك لسببين اثنين: أولاً: إن عشرين سنة من الاشتراكية والحصار الرأسمالي ولّدت

شعورًا بعدم الأمان في البلد. فالأمل الأساسي في تصدير الثورة أخلى المكان للقلق والدفاع عن الثورة في الداخل الذي يطرح مشاكل خطيرة. وفي رسالة مفتوحة له في شباط عام ١٩٣٨ قال ستالين: "إن كل عون من البروليتاريا العالمية يجب أن يندرج ضمن جهودنا الخاصة لتعزيز الدفاع عن بلدنا وتقوية الجيش الأحمر والبحرية وتعبئة البلد بأكمله في المعركة ضد الهجومات العسكرية وضد محاولات إعادة العلاقات البرجوازية". ثمّ إن وسواس الجاسوسية الذي وسم عهد ستالين، ناجم كذلك من أن خروتشيف وصفه في ما بعد بالشخصية "الحذرة بشكل مرضي". فقد كان يرى "أعداء" و"مرائين" و"جواسيس" في كل مكان وفي كل شيء"... تستعيد أرملة ألكسندر كوساريف (ساشا) سكرتير الكومسمول آخر لقاء لزوجها مع الطاغية بمناسبة وليمة في الكرملين على هذا النحو:

"لم يرفع ستالين كأسه فقط، ولكنه ضمه إليه وعانقه. وعندما عاد إلى مقعده. قال شاحبًا مضطربًا. ساشا: "لنعد". وعندما تركنا الصالة. سألته عما جعله ينقلب إلى هذه الدرجة. فأجاب: "عندما قبلني ستالين: أسر إليّ: إذا كنت خائنًا. سأقتلك". وبعد ذلك بعدة أشهر أُعدم كوساريف بالرصاص...

وكان أكبر عالم نفس سوفياتي لما بين الحربين، فلاديمير بِخْتِرِف قد شخّص ومنذ عام ١٩٢٩ مرض ستالين بالذهان الهذياني والفصام، حتى يبدو أنه دفع لقاء ذلك غاليًا من حياته. وفي عام ١٩٨٩، أكدت ندوة لكبار المحللين النفسيين السوفيات على هذا التشخيص باعتباره شيئًا بسيطًا جدًا: خلافًا للشخصيات المصابة بالذهان الهذياني فعلاً، فقد كان ستالين يحتفظ بطاقته الحسابية الباردة ـ وبطريقة داهية غالبًا ـ وكذلك بحس عميق بانتهاز الفرصة. مع ذلك سيكون من الصعب عدم كشف نزعة ذهانية واحدة على الأقل في هذه الشخصية "الحذرة بشكل مرضي".

وعلى غرار ستالين كان إيجوف يتحرك في العالم ذاته. فقد كان يصر، في السر وفي العلن، على أن الدوائر السرية الأجنبية كانت قد نظمت "شبكة من الدسائس يشكل في داخلها الأعداء من كل حدب وصوب جبهة مشتركة"... وكان قد قال بمناسبة اجتماع لكبار ضباط الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD: "فمن الأفضل أن يتعذب عشرة أبرياء من أن يهرب جاسوس واحد". وكان سيِّد الـ NKVD يعيش في خوف دائم من أن يُصرع على أيدي خونة حتى من داخل الـ NKVD. ومن أجل الوصول إلى مكتب لوبيانكا القلعة فإن على الضباط ولوج المصعد حتى الطابق الخامس واتباع ممرات طويلة، ثم النزول مرة أخرى على درج حتى الطابق الأول، ثم اجتياز ممرات أخرى وركوب مصعد أخير حتى مكتب السكرتير الخاص الواقع في الطابق الثالث. ويجري عادة مراقبة أوراقهم على طول هذا الخط المتعرج... فربما اعتقد إيجوف أن إياغودا حاول تسميمه، كما جرى التأكيد على هذا الأمر في محاكمة "كتلة المعارضة اليمينية والتروتسكية". وكان ستالين كذلك يتخذ احتياطات كبيرة لحماية نفسه ضد محاولات تسميمه. فهناك شخص من خدمه يهتم فقط بتحضير قهوته مستعملاً أكياسًا صغيرة مختومة محفوظة في بناء مقفل ويفتح بوجود عنصر من الـ NKVD. وفي أحد الأيام، وجد العنصر الختم مكسورًا وتم نقل مندوبة الشاي إلى لوبيانكا...

وكان القسم الأكبر من الشعب السوفياتي يقبل الموضوعة الرسمية في أنه يعيش في ظل التهديد الواسع لمؤامرة يدبرها الجواسيس والمخبرون المأجورون لدى الدوائر الأجنبية. ففي كل مصنع، يقيم ضباط الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD لقاءات للعمال لكي يشرحوا لهم الأخطار التي يتعرضون لها بوجود عناصر إمبريالية في ما بينهم. فكل فيلم تقريبًا، بما في ذلك المسرحيات الكوميدية مضطرة لإظهار بعض الجواسيس. وفي بداية مرحلة ايجوفشتشينا، فإن عددًا من المخبرين والجواسيس

الخياليين الموقوفين من الـ NKVD، والمقتنعين بأنهم ضحايا خطأ مأساوي... ظهروا كذلك مقتنعين بذنب أعداء الشعب الآخرين. وكان أقدم منفيـي الكولاك يسمعون غالبًا هذا النوع من الكلام من فم القادمين الجدد ويدينونهم على تكرارهم باستمرار اللازمة نفسها[1].. وقد آمن الذين التقطوا الطابع المزيف للمحاكمات الصورية أكثر الأحيان بالمدعى عليهم "المذنبين موضوعيًا". أما مناضلو الحزب، فإنهم من جهتهم، أخذوا كل كلمة بمعناها الحرفي. وروت "إيفجينا غانسبرغ" أنه عندما أتت الـ NKVD لإيقاف زوج إحدى صديقاتها عام ١٩٣٧، صرخت هذه الأخيرة: "هل كان يكذب علي يا ترى؟ في الواقع، كان ضد الوطن طوال هذا الوقت". وقد أجابها العنصر ببسمة مسلية: "تحسنين صنعًا إذ ترتبين شؤونه". وهذا ما رفضت القيام به من أجل عدو للحزب. وعندما توجه المحكوم عليه نحو سرير ابنه النائم لتقبيله لآخر مرة، قطعت عليه طريقه قائلة: "لم يعد لابني أبٌ"[2].

إن هذا الحماس هو على كل حال أقل إثارة للدهشة، ومن السذاجة التي اختبرها العديد من المراقبين الأجانب والتي افتضح أمرها مع ذلك منذ بداية الثلاثينات أثناء المجاعة. ويؤكد سفير الولايات المتحدة، "جوزيف دافي" في تقرير موجه إلى دائرة الدولة على أن المحاكمات الصورية قدمت "براهين" لا يمكن الارتياب بها عقليًا... تبرر الحكم الصادر". وبرأي "والتر دورانتي"، كان واضحًا أن "مؤرخي المستقبل قد يقبلون الرواية الستالينية للأحداث". وقد ظهر السير "برنارد بارس"، أكبر الاختصاصيين الإنكليز في التاريخ الروسي "متأثرًا" بكامل سير المحاكمات: "إن

---

١ - Ivanov-Razoumnik R. V., *The Memoirs of Ivanov-Razumnik*, Oxford University Press (London,1965) p. 342

٢ - Ginsburg Evgenia, *Into the Whirlwind* (London, 1967), pp. 20-21.

التفسير الذي على أساسه تصرف ستالين أولاً لنزع سلاح طابور خامس محتمل... ليس مبررًا البتة". أما "آل وب Les Webb" ففكروا، من ناحيتهم أن المتهمين "تصرفوا بصورة طبيعية وعقلانية، كما يفعل كل إنجليزي إذا كان النسق الجزائي المصطنع لهذا البلد لا يجبره على الخضوع إلى روتين لا يخدم المتهمين إلا عندما تستمر ريبة بالأحداث أو بالنسبة للذنب أو بالنسبة لبراءة الأفعال المطروحة". إن سذاجة كهذه لم تختف مع ستالين.

وداخل الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، فإن عددًا من الناجين من الإرهاب أو من المجندين للحلول محل هؤلاء الذين تمت تصفيتهم، كانوا قد استقروا بهدف أساسي هو البقاء بأي ثمن. مصدومين أم مرهقين من جراء العمل فقد كانوا يفضلون عدم التفكير كثيرًا بخلفيّة الأفعال الوحشية التي يرتكبونها، غير أن أكثريتهم كانت تقر بحقيقة المؤامرة الخيالية التي يقاتلونها. وقد لاحظ "ميكائيل غورخيف"، وهو مهندس دخل إلى الـ NKVD عام ١٩٣٨، أنّ أكثرية المجندين الجدد كانوا "أولادًا بسطاء، أعضاء في الحزب"، وكانوا قد تعلموا أن "أعداء المجتمع الاشتراكي" يحاولون تهديم نظامنا السوفياتي وقتل قادتنا وأنه لا بد من قتل هؤلاء المخبرين. وخلال الأيام الأولى لتأهيلهم. شاهد مع رفاقه دون أن يرف لهم جفن نوبة تعذيب فلاح، مقتنعين بأنه كان من المهم كشف دوره في المؤامرة... وقد شرح عضو آخر في الـ NKVD، صديق طفولة للمنشق لاحقًا "فيكتور كرافتشنكو"، أنّ الإرهاب كان ضروريًا بشكل مطلق... من أجل تحرير البلد من الخونة والجواسيس: "فإذا وقعت في أيدينا، فلن يكون ذلك بالتأكيد دون سبب"[١].

---

١ - Kravchenko Viktor, I Chose Freedom, Schribner's (New York,1946) p. 232.

لقد ظهر أعضاء حرس الـ NKVD القديم أقل سذاجة، وهذا يفسر ولا ريب لماذا تمت تصفية العدد الكبير منهم، غير أنه وحتى الناجين من عهد دزرجنسكي لم يعد بإمكانهم التمييز بشكل جيد، الصواب من الخطأ في ما يتعلق "بالجواسيس" و"المخربين" الذي يجب كشفهم. وتحفظ أرملة المنشق "إينياس بورتسكي" الملقب بـ"إينياس ريس" الذي مات اغتيالاً، بذكرى "أبراهام سلوتسكي"، مدير فرع الاستخبارات الأجنبية في تشيكا INO من عام ١٩٣٤ حتى العام ١٩٣٨، كرجل "محبوب، لطيف المظهر"، عمل ما بوسعه لإنقاذ بعض ضحايا الإرهاب. مع ذلك "كان سلوتسكي رجلاً مليئًا بالمتناقضات. وقد جرى الحديث عن عدة حالات بعد العام ١٩٣٦، تشفع فيها شخصيًا للحيولولة دون توقيف شخص ما. وكان يبكي أحيانًا حين يروي قصة استجواب متهم خلال المحاكمة، ومع ذلك كان بإمكانه في اللحظة التالية إدانة الرجل ذاته، واعتباره "تروتسكيًا فاشيًا"...

إن مطاردة الجواسيس والمخربين خلال عهد ستالين وضعت سلوتسكي وكل من يفكر على شاكلته في مأزق لا يمكن الخروج منه. فهؤلاء لم يتجاهلوا أن أكثرية ضحايا عهد إيجوف كانوا أبرياء. إنما وكلينينيّين أوفياء، فقد كانوا مجبرين على أن يصدقوا الموضوعة القائلة إن روسيا السوفياتية كانت باستمرار مهددة بدسائس الإمبريالية الدولية والتي تحاول دوائرها السرية بالتأكيد تدميرها.

في الحقيقة، فإن المؤمرات الوحيدة المعادية للسوفيات التي نظمتها دوائر الاستخبارات الأجنبية في ثلاثينات القرن العشرين والتي تمثل خطرًا حقيقيًا كانت المحاولات الألمانية واليابانية في استغلال الذهان الهذياني المصاب به ستالين والـ NKVD وذلك بدفعهم لتصديق مؤامرات خيالية تمامًا. لقد فهم سلوتسكي والحرس

القديم لفرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO جزئيًّا الموقف، غير أنه لم يكن باستطاعتهم فعل الكثير. فقد كانوا عزّلاً ماديًّا ومعنويًّا: ساقطين في شرك إيديولوجيتهم عن عالم من الدسائس لا يمكنهم التخلص منه دون تخليهمْ عن اللينينيَّة[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص١١٤ ـ ١٥٥.

الـ GPU والمتآمرون الخياليُّون

يقول باحثون إن التاريخ السري للمديرية الأولى في الـ .K.G.B، الـذي أُعِدَّ العـام ١٩٨٠ بمناسبة العيد الستين لإنشاء فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبيـة INO، يلحظ أن الهدف الرئيسي لدائرة أمن الدولة GPU في الخارج كان، وحتى بداية ثلاثينـات القرن العشـرين، حركـة الحـرس الأبيـض، وخاصـة المركـز العـام لاتحـاد القـوى الروسـية المشتركة ROVS (الروس البيض المهاجرين) في باريس.

عام ١٩٢٥ وبعـد اعـتراف الحكومـة الفرنسية بالاتحـاد السـوفياتي، تمركـزت الــ GPU في باريس. ومنذ ذلك الحين، توجهت بكليتها لمراقبة الـ ROVS وتدبير عمليـات ضد هذه المنظمة. وقد أصبحت هذه أكثر فأكثر هدفًا مكشوفًا. وبرأي زعيمها الجـنرال "كونيبوف" فإن ٩٠٪ من الدياسبورا الروسية البيضـاء، المعززة بمليـون مـن الأعضـاء تقريبًا، بقوا مواطنين مغلوبين على أمرهم، غير أنَّ البـاقي فقد تدريجيًا كـل أوهامـه. وحسب الإحصاءات التي وضعها كوتيبوف، فإن ٣٠,٠٠٠ روسـي أبيـض، مـن أصـل ٣,٠٠٠,٠٠ أقاموا في فرنسا، من الذين ضعفت معنوياتهم من جراء مظاهر الحرمان، وسوء أحـوال بلدهـم والخـوف علـى مصـير أقربـائهم البـاقين فـي الاتحـاد السـوفياتي، أصبحوا فريسة سهلة للـ GPU.

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص١٦٠.

رغم دروس تروست Trust أواسط العشرينات، فقد برهن كوتيبوف عن سذاجة غريبة عندما يكون المقصود أخطارًا ناجمة عن تسلل سوفياتي في محيطه. وقد نجحت عناصر من دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU في التسلل حتى إلى القيادة العليا للحرس الأبيض، ومن بين هؤلاء الأميرال "كريلوف"، الذي كان يأمل، على ما يبدو، في الالتحاق بالبحرية السوفياتية؛ والجنرال "مونكفيتز Monkevitz" الذي غطّى انتحاره المزيف في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٢٦ هربه إلى الاتحاد السوفياتي، وقائد أركان كوتيبوف أثناء الحرب الأهلية، الجنرال ستيفن[1].

لم تكتف الـ GPU بالبحث عن المعلومات بواسطة عناصر متسللة. فقد حاولت زعزعة جماعة الروس البيض. كما أن كشف خداع تروست قد جرى تنسيقه بطريقة تؤذي أشد الأذى قابلية التصديق لدى كوتيبوف. فقد أسرّ الدوق الكبير نيقولا، ابن عم القيصر، أن هذا الأخير كان "خيّب ظنه إلى حد بعيد" وأن "رانجل Wrangel"، قائد أحد الجيوش البيضاء خلال الحرب الأهلية"، دفعه للتخلي عن كل محاولة في حبك مؤامرة ضد البلاشفة في الاتحاد السوفياتي. غير أن كوتيبوف لم يستسلم. فالبرغم من الاحتقار الذي سببه له تروست، فإن سذاجته سمحت لعناصر الـ GPU المحرضة باللعب به بسهولة. ففي تشرين الثاني - نوفمبر من العام ١٩٢٩، أوضح أمام الجنرال الأبيض القديم دنيكين: "أنّ هناك حركات كثيرة موجودة في روسيا. ولم يأت إلينا أي عنصر من هناك لمقابلتي من أجل العمل مع منظماتهم السرية". وقد قام "ستيفن"، رئيس أركانه القديم، وبناءً على طلبه، برحلتين سريتين على الأقل إلى روسيا للقاء هؤلاء المتآمرين الخياليين. وعند عودته، نقل جوًا من التفاؤل إلى "كوتيبوف" كانت حيثياته الكاملة قد أملتها عليه إدارة أمن الدولة السوفياتية GPU.

١ - Grey Marina, *Le Général meurt à minuit*, Plon, (Paris,1981) chap. 4, 10, 17.

كان "كوتيبوف" شخصية من المسرح التراجيدي ـ الكوميدي. أمّا أصدقاؤه فكانوا يسمونه بـ "الجنرال الفولاذي". ومع ذلك فإن صورة "كورنيلوف" آخر قائد أركان قيصري ينطبق عليه أكثر القول المأثور: "رجل يحمل قلب أسد ودماغ خروف". وقد أحسنت صنعًا الـ GPU بتركه في باريس، وخداعه ثم التقليل من اعتباره تباعًا. وقد ساهمت هذه الطريقة بتحطيم معنويّات الدياسبورا الروسية البيضاء. إلاّ أنّه لا تشيكًا ولا خلفاؤها كانوا قادرين على وضع تقويم موضوعي للقوى المضادة للثورة. ففي ظلّ ستالين، كان التهديد الذي تشكله الثورة المضادة بشتى أشكالها مبالغًا فيه دائمًا وإلى حد بعيد... إلى درجة أن كوتيبوف نفسه بدا خطيرًا جدًا على رأس اتحاد القوى المشتركة الروسي ROVS، ويجب تصفيته. وبما أنه رفض اقتفاء خطى سافانكو وريلّي بالتهاون في جرّه إلى الاتحاد السوفياتي فقد نظمت الـ GPU عملية خطفه. وكان ستالين شخصيًا قد اتخذ القرار بذلك...

كان "سيرجي بوزيتسكي"، الضابط المرسل من موسكو لإعداد هذه العملية، قد لعب دورًا في قضيتي السنديكا والتروست. فقد حصل الخطف قبيل الحادية عشرة من صباح الأحد في ٢٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٠، في وسط شارع من الدائرة السابعة في باريس. وقد بدا أن ستيفن كان قد نصب الفخ. فقد أخبره في الحقيقة أن ممثلين عن حركة سرية معادية للسوفيات قدموا من الاتحاد السوفياتي ـ ولم يكن هؤلاء سوى مندوب دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU في باريس "نيقولاي كوزمين" ومسؤول رفيع المستوى "غير شرعي" هو "أندريه فيكنر"، ويرغبون بلقائه سريعًا وينتظرونه في سيارة... وكان شرطي باريسي شيوعي حاضرًا... ورأى أحد المارة "أنّ الجنرال يؤخذ عنوة"... وهذا ما حصل فعلاً... لكي يمر الخطف على أنه عملية توقيف... وهذا ما حصل كذلك. وفي هذا اليوم بالذات، أي السادس والعشرين من كانون الثاني ـ

يناير، في بداية بعد الظهر، حضر ستيفن إلى مسكن كوتيبوف وطلب رؤية الجنرال، فأجابته زوجته بأن زوجها لم يعد بعد رغم اضطراره لحضور قداس تذكاري. ونجح ستيفن بإقناعها بتأجيل إعلام الشرطة لعدة ساعات. فقدّم أولاً تفسيرات عدة تبرّر هذا الغياب الطويل، ثم أشار عليها القيام ببحث بين أعضاء جماعة الروس البيض. وخلال ذلك، كانت السيارة التي تقل المخطوف تسير بأقصى سرعتها نحو شواطئ المانش. وقد رآه شاهد عيان استجوبته دائرة الأمن، يُدفع إلى متن باخرة سوفياتية. غير أنَّ عملية الخطف لم تجر كما خُطِّط لها. فالمخدر وضعف قلب الجنرال عجَّلا أجله. أما استجواب الـ GPU له، والمفترض أن يكشف آخر أسرار المؤامرات البيضاء ضد النظام السوفياتي، فلم يحصل أبدًا... لقد توفي الجنرال إثر نوبة قلبية على بعد أقل من ١٧٠ كلم من المرفأ السوفياتي "نوفوروسيك".

بعد خطف كوتيبوف، جندت المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPY جنرالاً مهاجرًا آخر في باريس، هو "نيقولاي سكوبلين"، القائد السابق لفرقة بيضاء خلال الحرب الأهلية. أمّا زوجته المغنية "ناتاشا بلفيتسكايا Plevitskaîa" المعروفة باسم "حسّون كورسك"، فكانت تحن إلى بلدها، وكانت على اتصال بالـ GPU منذ عدة سنوات. وفي منتصف عشرينات القرن العشرين، التمست الإذن بالعودة إلى الاتحاد السوفياتي، غير أن دزرجنسكي رفض طلبها؛ لقد كانت "وبالنسبة للمهاجرين الأغلى ثمنًا"، حسب قوله... وفي الأسابيع التي تلت اختفاء كوتيبوف، راح الزوج سكوبلين يقوم بزيارات يومية لزوجة كوتيبوف لإظهار تعاطفه معها وتحرّي آخر أخبار التفتيش.

"كان سكوبلين وزوجته يرددان أمامي غالبًا أن زوجي هو على قيد الحياة"، هذا ما تتذكره السيدة كوتيبوف."وفي يوم وقد دهشت من يقينهما، قالت لي بلفيتسكايا إنّها رأت

ذلك في الحلم. لقد اعتقدت حينها أنها تقول ذلك لتسليتي". وكان عليها أن تكتشف في ما بعد أنّ كليهما كانا من عناصر دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU.

إن موهبة بلفيتسكايا في النفاق، إضافة إلى ملكتها في التأثير بالمهاجرين وهي تنشهد، "آه يا أمنا روسيا، فَتَحْت معطفك الثلجي"، وقصائد وأغانٍ أخرى، كل ذلك سمح لها ولزوجها بالتسلل داخل جماعات الروس البيض في كل أوروبا. وحوالى عام ١٩٢٥، طلبت من دزرجنسكي الإذن بالعودة إلى الاتحاد السوفياتي، غير أنه رفض طلبها: إنها تؤدي بين البيض الكثير من الخدمات الرائعة[1].

"وخلال سنوات طويلة، أنكرت الـ GPU، ثمّ الـ NKVD والـ K.G.B بسخط، مشاركتها بأي شكل من الأشكال بخطف كوتيبوف. وفي عام ١٩٦٥ فقط أقرّت الـ K.G.B بالحقيقة، مصادفة، في بيان عن وفيات منظمي عملية الخطف: "لقد شارك المفوض في دائرة أمن الدولة "سيرجي فاسيليفتشر بوزيتسكي" في الحرب الأهلية. وكان هذا البلشفي اللينيني النشيط تلميذاً لـ "ف. إ. دزرجنسكي"، فلم يشارك فقط في أسر قاطع الطرق سافانكو وتحطيم "تروست"، إنما نجح أيضًا بهذه العملية الباهرة، وهي أسر كوتيبوف والكثير من أعضاء الحرس الأبيض، المتآمرين ومدبري عمليات التدخل العسكري الأجنبي خلال الحرب الأهلية. وقد ترأس مرتين إمرة اللواء الأحمر وتلقى عدة أوسمة من منظمة تشيكا"[2].

---

١ - Grey, *Le général meurt à minuit*, pp. 83-84; Heller Mikhail et Nekrich Alexandre, *Utopia in Power*. Summit Books (New York, 1986).

٢ - Dziak John J., *Chekisty, A History of the KGB*, Lexington Books, (Lexington,1988), p. 99.

وكان خليفة كوتيبوف على رأس اتحاد القوى المشتركة الروسي ROVS، الجنرال "إيفجني كارلوفيتش ميللر"، وهذا الآخر ساذج مثل سلفه. ومع أنه كان له لحية وشاربٌ عسكريان، فإن وجهه الدائري والأحمر وعينيه الزرقاوين وهيئته المرحة تمنحه مظهر ولد طيب وليس الرجل الوقور المهيب. إن أول قراراته كان وضع أكثر إمكانات الـ ROVS بين يدي رجل نصّاب يدعى "إيفان كروجر Kreuger". وعندما سقط دماغه في آذار ـ مارس عام ١٩٣٢، كانت الأموال قد اختفت منذ زمن طويل. وفي الصيف السابق، وحتى قبل انفجار فضيحة كروجر، كتب دنيكين بحذر إلى أحد أصدقائه: "لقد غرق الـ ROVS في الفتور. ولا يتجلى وجوده سوى بدسائس مستمرة. إنها ورطة حقيقية!". وقد كانت أكثر الدسائس جدية هي التي قام بها الجنرال شاتيلوف. ودون أي تشجيع من دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU، انطلق هذا بسلسلة من المؤامرات لتهديم سلطة "ميللر Miller" وتحدّى كذلك جنرالين روسيين أبيضين للمبارزة. وبالرغم من إبطال هذين اللقاءين، هددت الحكومة الفرنسية بسحب إقامته، ثم أذنت له أخيرًا بالبقاء شرط امتناعه عن التعاطي بالسياسة تحديدًا. وهكذا ترك الـ ROVS وعمل سائق تاكسي مثل الكثير من القيصريين الذين سقطوا في ظروف مادية صعبة[١].

وبسبب إدارة ميللر الخرقاء ودسائس شاتيلوف، راح اتحاد القوى المشتركة الروسي يتزعزع دون أي دفع من الـ GPU، غير أن هذه سرعت كذلك زواله. فمن بين كل جواسيسها المتسللين إلى ROVS، كان الجنرال سكوبلين الأكثر نشاطًا وفعالية. ففي عام ١٩٣٣، كلفه ميللر مسؤولية عمل سري في فنلندا. وبعد ذلك بسنة، أدخل

---

١ - Grey, *Le général meurt à minuit*, ch. 20.

سكوبلين خفية إلى روسيا عنصرين من الـ ROVS بمساعدة الدوائر السرية الفنلندية. وسرعان ما أوقفت الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD هذين العنصرين، غير أنه أتيح لهما الوقت الكافي لانتزاع مسدسيهما... ونجحا في عملهما الباهر وهو العودة إلى فنلندا. ومع ذلك، فقد رفض الفنلنديون كل تعاون مع المنتقلين عبر الحدود ولمّحوا بقوة إلى أنهم يملكون معلومات تمكنهم من اعتبار سكوبلين كعنصر في الـ GPU أما ميللر، المهان، فدافع عن هذا الرجل "الضحية الدائمة للدسائس والوشايات الرخيصة" ودعاه بـ "قائد التجسس المضاد في الخارج"...

عام ١٩٣٤. أجبرت الضرورات المالية على تركيز المقر العام لاتحاد القوى المشتركة الروسي ROVS في أمكنة أقل كلفة. فقد قدّم للاتحاد رجل أعمال مهاجر يدعى "سيرجي ترتياكوف" شقّة في الطابق الأرضي بإيجار زهيد. ومن دون علم من ميللر، كان ترتياكوف عنصرًا في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD (واسمه الرمزي هو ايفانوف Ivanov). وعند نقل ميللر المركز الجديد لـ ROVS، كان ترتياكوف قد جهّزه بنظام تنصت كامل. وخلال الأسابيع التالية كان ترتياكوف يمضي عدة ساعات يوميًا في غرف تقع فوق المركز تمامًا، مدونًا أحاديث ميللر مع مرؤوسيه. وإن تبادل برقيات مؤرخة في نهاية العام ١٩٣٤ تشهد على عمله هذا، ومنها:

"من باريس إلى المركز: يبدو لنا أنه من الضروري الإشارة إلى وعي واخلاص إيفانوف في عمله. فبالرغم من مرضه الخطير في ليل ٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر، فقد أمضى اليوم التالي في استقبال المعلومات، كما يمكنكم ملاحظة ذلك عند رؤية هذه الملاحظات".

ومنها أيضًا:

"من المركز إلى باريس: امنحوا إيفانوف إعانة ليتمكن من العناية بنفسه وكمكافأة على عمله الواعي والمخلص. حددوا أنتم المبلغ، لكن على أن لا يتجاوز قيمة أجره الشهري".

يشير التاريخ السري للمديرية الأولى أنه ومنذ عام ١٩٣٣، أزاح تروتسكي، ميللر والـ ROVS كهدف أساسي في الخارج. فخلال الإحدى عشرة سنة والنصف، هي مدّة نفيه، في تركيا من بداية ١٩٢٩ حتى صيف ١٩٣٣، وفي فرنسا من صيف ١٩٣٣ حتى صيف ١٩٣٥، وفي زوريخ من صيف ١٩٣٥ حتى نهاية ١٩٣٦ وفي المكسيك من كانون الثاني - يناير ١٩٣٨ حتى مصرعه في آب - أغسطس ١٩٤٠، كان محيطه، مثله في ذلك مثل ميللر، مخترقًا دائمًا من الـ GPU والـ NKVD. ففي الفترات الأولى فإنّ الأخوين "سوبولفيسيوس"، وهما ولدا تاجر يهودي غني من ليتوانيا ومعروفان في ما بعد باسم سويل ودكتور ريشار سوبلن"، قد لقيا في هذا المجال نجاحًا كبيرًا. وابتداء من ربيع ١٩٢٩ وخلال ثلاثة أعوام، كان الأخوان يعتبران من بين الأكثر قربًا من تروتسكي. فقد اطلعا على الرموز والحبر الخفي وعلب البريد التي يستخدمها المنفي في مراسلاته السرية مع أنصاره في الاتحاد السوفياتي. وكان تروتسكي يودِعهما جزءًا كبيرًا من رسائله، وكانت تسلم بكاملها إلى دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU وكان ذلك شأن أنصار تروتسكي السوفيات. وقد قاما غالبًا بزيارات لأنصار تروتسكي في فرنسا وألمانيا ودائمًا لصالح الـ GPU. وبعد تحولهما إلى عميلين سريين سوفياتيين، ها هما يظهران ثانية في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية[1].

---

1 - Vereeken George, *The GPU in the Trostskyit Movment,* New Park Publications (Londres,1976) ch 2.

الحقبـة الوحيـدة التـي عـانت فيهـا الــ GPU صعوبـات فـي التسـلل إلـى محيـط تروتسكي كانت في العـام ١٩٢٩، فـي بدايـة نفيـه إلـى تركيـا. فقـد علمـت الــ GPU، من أحـد عملائهـا ولا ريـب، بـأن تروتسـكي كـان قـد تلقـى زيــارة سـرية مـن أحـد المتعاطفين معه، العضو في دوائرها الخاصة. وهـذا الرجـل كـان "إيـاكوف بليومبيـن". وكونه اشتراكي ثوري عضو في تشيكا، قَتَل عـام ١٩١٨ الكونـت "ميربـاش"، سـفير المانيا، وذلك رغم أوامر دزرجنسكي، ومـع ذلـك أعيد الاعتبـار إليـه بعد ذلـك بمـدّة وجيزة. وقد اجتاز بعد ذلك المراتب حتى وصل إلى مركـز "المنـدوب غيـر الشـرعي" في اسطنبول.

قبِل بليومبين نقل رسالة من تروتسكي إلى رادك، ودائمًا حسب رواية الـ K.G.B، "تتحدث عن طريقة لإجراء اتصالات غير شرعية مع الحركة التروتسـكية السـرية فـي موسكو". لم يحجز تريليسر هذه الرسالة مباشرة. وعلى الأرجح، وبالاتفاق مع إياغودا، أمر الجميلة "ليزا غورسكايا"، عميلة الـ GPU، "أن تترك تعصبها البورجوازي" وتفتـن بليبومبين من أجل اكتشاف الحجم الحقيقي للمؤامرة المعقـودة مـع تروتسـكي ثـم العمـل بطريقة ما ليعود بها إلى موسكو... من الناحية التركية، كُلِّفَ بالعملية مندوب الـ GPU "الشرعي" ناحوم (ليونيو) الكسندروفيتش إتانغون (المعروف بـ نعوموف) الـذي اشـتهر بعد ذلك بعدة سنوات كونه نظم مصرع تروتسكي. وبعد عدة أسابيع، عندما تـم إيقـاف بليومبين في موسكو، أدرك، ولـو متـأخرًا، أن المـرأة الشـابة كـانت عميلـة محرّضـة. "ليزا، صرخ بها، لقد غدرت بـي!" وكـان أول بلشـفي يعـدم لتعاطفـه مـع المعارضـة. وبرأي أورلوف. "واجه إعدامه بشجاعة" ثـم صـرخ قبيـل إطـلاق النـار عليـه: "العمـر الطويل لتروتسكي!" وبعد ذلك بوقت قصير، تزوجت غورسكايا مندوب الــ GPU فـي برلين ثمّ في واشنطن في ما بعد، "فاسيلي ميخائيلوفيتش زاروبين". .

راح مؤيدو تروتسكي في روسيا يتناقصون بسرعة كبيرة خلال نفيه. وتحولت المعارضة اليسارية بقسميها الأكبر إلى الخط الستاليني مقتنعة بأنه "لا يمكننا أن نكون على حق ضد الحزب" حسب الكلمات الخاصة لتروتسكي عام ١٩٢٤. وفي تقرير كان قد تلقاه هذا الأخير ، وعلى الأرجح من الـ GPU نهاية العام ١٩٢٩، فإن أنصاره في المنفى أو في السجن كانوا يقدّرون بألف شخص كحد أقصى. وقد كتب إلى مجموعة من المخلصين السوفيات له، وهو ثابت في موقفه: "...حتى إذا بقي في المنفى ليس ٣٥٠ شخصًا مخلصًا لرايتهم، إنما ٣٥ فقط، وحتى إذا لم يبق منهم سوى ثلاثة، فإن هذه الراية ستخفق دائمًا".

إن السياح المتعاطفين مع الأحزاب الشيوعية الغربية، المتوجهين إلى الاتحاد السوفياتي، وأكثر الأحيان الخاضعين لرقابة الـ GPU الشديدة، تابعوا القيام بدور سعاة البريد بين تروتسكي ومجموعة أصدقائه المتناقصة يومًا بعد يوم. وهناك رسائل كتبها أكثر الأحيان "غولاغ" على أوراق رَزم خشنة، أو أحيانًا على أوراق السجائر المخبأة أو المموهة بمجموعة من الوسائل البارعة، استمرّ وصولها إليه بالقطارة وهو في تركيا وخلال عدة سنوات. وفي يوم من الأيام، تلقى علبة كبريت محشوة بصفحات مكتوبة بأحرف صغيرة تتكلم عن محاولة سياسية كاملة، ثم وبنهاية العام ١٩٣٢، توقفت "القطّارة"...

لم يكن عدد مناصري تروتسكي في الغرب كبيرًا أبدًا. وكانوا مقسومين بين بعضهم البعض. ومع أن التروتسكيين أظهروا ميلاً دائمًا إلى التجزئة ("فحيث يكون تروتسكيان، فهناك ثلاثة ميول") فإن هذا التشتت تسارع تمامًا والتهب من جراء نشاط عملاء الـ GPU المحرضين خلال ثلاثينات القرن العشرين. وقد نجح الأخوان سوبولفسيوس في إثارة التروتسكي المشهور النمساوي "كورت لاندو" ضد تروتسكي

نفسه، ممّا أدى إلى طرده من الحركة! وفي آذار ــ مارس عام ١٩٣٣، نجح "هنري لاكروا"، وهو عنصر محرض آخر من الـ GPU بكسب ثقة تروتسكي وأعلن فجأة أن "المعارضة التروتسكية في إسبانيا لا تتلقى أي دعم، فهي ليست معروفة ولا مفهومة. فالشغيلة يدعمون الاتحاد السوفياتي والشيوعية عامة، المجسَّدة بالحزب الشيوعي الإسباني".

في تقارير الـ GPU المنتظمة، كان باستطاعة ستالين رؤية البراهين المطمئنة على تذويب التروتسكيين النافذين وعلى صراعاتهم الداخلية داخل حركة مخترقة كليًا. غير أن ستالين كان غير قادر على تقييم موضوعي، إذ إن تروتسكي أصبح بالنسبة له وسواسًا دائمًا يمنعه من النوم. وقد استنتج إسحاق دويتشر: "إن الجنون الذي يطارده (أي ستالين) وحقده عليه واعتبار أن تشفّيه هو الهم الأول للشيوعية العالمية وللاتحاد السوفياتي، جعله يضع هذا الهم فوق كل مصلحة أخرى سياسية وتكتيكية وفكرية، إلخ، ويتحدى ستالين كل وصف: عمليًا لا نجد في التاريخ مثالاً واحدًا على سلطة تحشد مثل هذه الإمكانيات ومثل هذه الدعاية ضد فرد بذاته"...

إذا كان ستالين قد طارد تروتسكي الحقيقي، فيصبح من الصعوبة بمكان تفسير هذا الوسواس. غير أن تروتسكي الخاص به كان شخصية خرافية، وليدة فكرة "الحذر بشكل مرضي". ويفارق تدريجيًا صورة الرجل الذي نفاه. وبينما كان خطر هذا "التروتسكي" الخرافي يحتل مكانًا مهمًا في فكر ستالين، فإن تأثير وسلطة تروتسكي الحقيقي سارتا حسب منحى متناسب عكسيًا. حتى إنه لم يوفّق بإيجاد مركز أمن تجتمع فيه المعارضة. صورة تروتسكي تأخذ أبعادًا خيالية بينما يتراجع ويتقهقر تروتسكي الحقيقي. وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٣٢، ترك تركيا بحثًا عن موقع آخر، غير أنه اضطر للعودة إليها بعد أربعة أسابيع: لم تقبل أيّ حكومة منحه سوى تأشيرة

مرور. وفي نهاية المطاف، وأثناء صيف عام ١٩٣٣، تلقى أذنًا بالإقامة في فرنسا ولكن ليس داخل باريس. وقد خضع لقيود عديدة، وأُبعد أخيرًا في تموز ـ يوليو عام ١٩٣٥. وهكذا أقام في النروج حيث حُدِّدت، هذه المرة كذلك، نشاطاته السياسية حتى إبعاده باتجاه المكسيك نهاية العام ١٩٣٦...

خلال ثلاثينات القرن العشرين، لم يعد منظِّمُ الحركة الأساسي تروتسكي بالذات، بل أصبح منظمها ابنه "ليف سدوف" الذي ترك تركيا إلى برلين عام ١٩٣١، ثم وبعد ذلك بسنتين أقام في باريس بعد وصول هتلر إلى السلطة. وحتى وفاته عام ١٩٣٨، أدار سدوف إصدار "نشرة المعارضة (Biulletin Oppozitni) وحافظ على اتصالات مع مؤيدي تروتسكي المنتشرين... أما محيط سدوف، فمثله مثل محيط والده، كان مخترقًا من الـ GPU ثم من الهيئة الشعبية للعمل الداخلي الـ NKVD. ومنذ العام ١٩٣٤ حتى وفاته، كان أمين سره ومساعده المقرَّب عميلاً للـ NKVD. وهذا الانتروبولوجي من الأصل الروسي هو "مارك زبورويسكي" المعروف بـ"إتيان" الذي ساعده على إصدار "النشرة" والمحافظة على اتصالاته مع من تبقى من المعارضة في روسيا. وكانت ثقة سدوف بزبورويسكي كبيرة جدًا حتى أنه عهد إليه بمفتاح علبة رسائله، وتركه يأخذ بريده والاحتفاظ بالملفات في بيته وأرشيفات تروتسكي الأشد سرية...

في عهد مجنسكي وإياغودا، اقتصرت عمليات دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU ثم الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD ضد تروتسكي وأنصاره على المراقبة والاختراق والزعزعة. ومع وصول إيجوف، تورطت الـ NKVD في تصفية القيادة التروتسكية. وفي كانون الأول ١٩٣٦، خلق إيجوف هيئة للمهمات الخاصة، وضعت تحت قيادته الخاصة، وكان على "مجموعاتها المتحركة" في الخارج أن تقوم بأعمال

القتل التي يطلبها ستالين...وكان ميدان عملها الرئيسي خلال السنتين التاليتين هو إسبانيا.

عندما اشتعلت الحرب الأهلية في إسبانيا في تموز ـ يوليو ١٩٣٦، لم تتصرف موسكو مباشرة. وكان الكرملين مقتنعًا، ولكن عن خطأ، بأن الحكومة الجمهورية ستُلْحِق بقوميي فرانكو المتمردين هزيمة سريعة. ومع ذلك، وعند تسلم "مارسيل روزانبورغ"، الدبلوماسيّ المجرِّب، مهماته في ٢٧ آب ـ أغسطس، كسفير في مدريد، رافقته حاشية مهمة، ومن بين هؤلاء كان الجنرال "جان برزين" قائد البعثة العسكرية.

إن هذا القائد السابق للإستخبارات العسكرية، الطويل، الأشيب، الصموت، كان يعامل أحيانًا ـ يا لَسخْرية القدر ـ كإنجليزي. وكان في عداد المستشارين العسكريين كذلك الجنرالان "غوريف" و"كوليك" والمارشالات الثلاثة "مالينويسكي"، "روكوسوفسكي" و"كونييف". ومن بين ضباط الجيش الأحمر، المقاتلون السريون في الحرب الأهلية بهويات متعددة يمكن ذكر الجنرال "لازار سترن" المعروف بِـ "إلياس اميليو كليبر"، الذي منحته الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD جواز سفر كندي وجنسية "خرافية". وأصبح في نهاية العام ١٩٣٦ يُعرف عالميًا "بمنقذ مدريد". وهناك الجنرال "مات زالكا" المعروف بـ "لوكاكس Lucacs" وهو روائي هنغاري ومتطوع في الجيش الأحمر، وكان آمر الفرق الأممية الأكثر شعبية؛ والجنرال "جانوس غاليسز" المعروف بـ"غال" وهو من أصل هنغاري والأقل شعبية ولا ريب من بين كل آمري الفرق الأممية؛ والجنرال "ديمتري بافولوف" المعروف بـ "بابلو"، وهو على الأرجح آمر الوحدات الجمهورية المدرّعة الأكثر كفاءة. أما الجنرال "كارول سويرسويسكي Swierczewski" المعروف بـ "والتر" والضابط في الجيش الأحمر فقد كان من أصل

بولوني وسمي بنائب وزير الدفاع في الحكومة الشيوعية البولونية بعد الحرب العالمية الثانية[١].

وكانت إسبانيا الجمهورية تأوي كذلك، ولكن بسرية كبيرة، وحدة قوية من الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD بقيادة المنشق لاحقًا "ألكسندر أورلوف". وقد وصل هذا الأخير في أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٣٦ بهدف أساسي هو تحقيق انتصار الستالينية على ما عداها من الفرق الماركسية التي ترهقها. وفي كانون الأول أعلمت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية (CEIC) الحزب الشيوعي الإسباني بما يلي: "مهما حدث، لا بد من سحق التروتسكيين، وفضحهم أمام الجماهير كأداة سرية فاشية. فهم يحرضون لصالح هتلر والجنرال فرانكو ويحاولون شق الجبهة الشعبية، ويقودون حملة من الدسائس ضد الاتحاد السوفياتي ويقدمون مساعدة فعالة للفاشية في إسبانيا"...

إن أكثرية الـ ٣٥,٠٠٠ شاب من المتطوعين الأجانب، وأكثريتهم شيوعيون، والذين توجهوا إلى إسبانيا للالتحاق بالفرق الأممية والدفاع عن الجمهورية لم يظهروا هذا التعصب المتزمت. فبالنسبة لهم، كما وبالنسبة للجزء الأكبر من اليسار الأوروبي والذين آمنوا عن خطأ بأن التمرد الفرانكي ينظمه هتلر وموسوليني، فإن هذه الحرب كانت حملة صليبية ضد الفاشية العالمية. وقد "أمدت العديد منهم ومن بينهم الشاعر "و. هـ. أو دان W. H.Auden" بمشاعر حادة عن وجودهم: "ماذا تقترح؟ بناء المدينة الفاضلة؟ سأقوم بذلك. موافق. أو بالأحرى فعل انتحار، موت رومانسي؟ جيد، أقبل ذلك، إذ أين خيارُك، قرارُك. نعم، أنا إسبانيا"... وحتى ستالين شخصيًا أُخذ بهذه الحالة الفكرية، ففي تشرين الأول ـ أكتوبر، كتب رسالة مفتوحة لقادة الحزب الشيوعي

---

١ - Thomas Hugh, *The Spanish Civil War*, Hamish Hamilton, (London,1977), ch. 27.

الاسباني يقول فيها: "إن تحرير إسبانيا من نير الرجعيين الفاشيست ليس الهمّ الخاص بالإسبان وحدهم، بل هو القضية المشتركة لكل الإنسانية التقدمية"...

لكن وفي ما هو أبعد من التهديد الفاشي، بقيت مخاطر التسلل التروتسكي الشغل الشاغل لستالين. ففي باريس، أكبر مركز لتجنيد الفرق الأمميّة، كان المتطوعون غير المنتمين لأي حزب شيوعي يُستجوبون من ضباط الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD الذين لا يكشفون عن هويتهم. وكان على هؤلاء الذين يحملون جوازات سفر التخلي عنها عند دخولهم إسبانيا: وكان يصار إلى إرسال الملفات إلى المركز في موسكو بالمحفظة الدبلوماسية. وقد اكتفت الـ NKVD بألفي جواز سفر أميركي لمنحها لعناصرها غير الرسميين... وكان مخيم الفرق الأممية في الباسيت تحت إشراف مديرية سياسية في الكومنترن بقيادة ممثل فرنسي من اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، هو "أندريه مارتي". وقد عمل هذا لحساب المخابرات العسكرية السوفياتية منذ عدة سنوات وشارك بحماس في حرب الهيئة الشعبية للعمل الداخلي الـ NKVD ضد التروتسكية. ولم يعد أي شيوعي غير روسي خاضعًا مثله لفكرة استئصال الهرطقة المعادية للستالينية. ويأتي في خطّه جماعة من الموظفين الكبار في الكومنترن. وكان بعضهم مثل مساعدَيْه الإيطاليين "ليفي لانفور" المعروف بـ"غالوا"، و"غيسب دوفيتوريو" المعروف بـ"نيقوليتي"، يمقتان تعصب مارتي المتزمت. أما الآخرون فكانوا، مثل مارتي، عقائديين ستالينيين: ومن بين هؤلاء القائد اللاحق للـ RDA "والتر ألبرخت"، الذي قاد وحدة ألمانية مخصصة لكشف "التروتسكيين" الألمان والنمساويين والسويسريين داخل الفرق الأممية[1].

---

١ - Dallin David J., *Soviet Espionage,* Conn., Yale University Press (New Haven,1949), p. 500 sqq.

ومع ذلك لم يتمكن دعم متطوعي الفرق الأممية للجمهوريين من أن يكون على مستوى المساعدة التي قدمتها ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية لأعوان فرانكو. كان هتلر يعرف جيدًا أن فرانكو كان تقليديًا تمامًا وليس فاشيًا، غير أنه كان يعتبر إسبانيا حقل مناورة مثالية لتكرار شامل لتقنيات الـ"بليتزكريغ Blitzkrieg" التي استخدمها بنجاح في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. وبهذا أنقذ تدخلُه السريع منذ صيف ١٩٣٦ التمرُّد العسكريَّ من الهزيمة ووضع فرانكو على طريق النصر النهائي.

كان الجمهوريون يعانون من ضعف خطير آخر. فبينما كان "القوميون" يمثلون جبهة موحدة، استمر الجمهوريون منقسمين على بعضهم . ومع أن الروس لم يسببوا هذه الانقسامات فقد تمكنوا من تحويلها إلى حرب أهلية حتى داخل الحرب الأهلية. ففي عام ١٩٣٧، ذهبت معركة ستالين ضد التروتسكية بعيدًا إلى حد أنها تقدمت على الحرب ضد فرانكو. وكان ستالين يرتاب بأن حزب العمال الموحّد الماركسي في إسبانيا (POUM) لا يشكل قاعدة للهرطقة الكبرى في إسبانيا. فقد أظهر هذا الحزب في الواقع عواطف تروتسكية، رغم الانتقادات القاسية التي وجهها له تروتسكي نفسه. وهذا أندري نين، السكرتير الخاص السابق لتروتسكي في موسكو والشريك المؤسس للحزب عام ١٩٣٥، أصبح مستشارًا عدليًا لمنطقة كاتالونيا حتى تجريده من مهامه من قبل الشيوعيين في كانون الأوّل - ديسمبر من العام ١٩٣٦.

وفي أيار - مايو من العام ١٩٣٧، باشر الشيوعيون الإسبان بتدمير حزب العمال الموحّد الماركسي (التروتسكي) POUM بمساعدة الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD؛ وهذا مسؤول فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO، "سلوتسكي"، يعلم المندوبين: "إن كل يقظتنا منصبة على المعركة الضارية ضد العصابات التروتسكية والفاشية والـ POUM"... وفي حزيران - يونيو، أوقف نين وعُذِّب بوحشية وأخيرًا

سُلخ حيًا بسبب رفضه الاعتراف بجرائمه الوهمية. وقد حاول الشيوعيون في ما بعد، إنما دون نجاح، إخفاء موته مدعين أن مغاوير نازيين خطفوه... وبعد ذلك بمدّة قصيرة، خُطف "إروين وولف"، وهو سكرتير خاص آخر لتروتسكي، كان قد عمل لحسابه خلال منفاه في النروج، ونُقل إلى برشلونة وصُفّي على أيدي الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD... وهناك العديد من المتعاطفين مع حزب العمال الموحّد الماركسي POUM من جنسيات مختلفة ماتوا في ظروف غامضة، وكانوا من أنصار تروتسكي السابقين ومنهم: "كيرت لاندو"، "مارك رين" إبن "رافائيل أبراموفيتش"، الزعيم المنشفي القديم "جوزي روبلز" المحاضر القديم في جامعة جون هويكنز في الولايات المتحدة! والصحافي "روبرت سمايلي" إبن قائد حركة عمال المناجم في بريطانيا. وهناك العديد من العسكريين من قاعدة، الـ POUM أعدموا رميًا بالرصاص بعد محاكمات ميدانية قصيرة وغير شرعية أقامها الشيوعيون، أمّا آخر القادة الأحرار فقد جرى اعتقالهم في حزيران - يونيو من العام ١٩٣٧. أمّا محاميهم، "بنيتو بابون" المرعوب من فكرة كونه مجرمًا، ففر إلى الفيلبين...

وفي أيار - مايو من العام ١٩٣٧، سُمّي "د. جون نغران" رئيسًا للحكومة الجمهورية. وكان على علم بجزء من أعمال الإرهاب التي ارتكبتها الـ NKVD، غير أنه أظهر سذاجة عجيبة... وعند نهاية الحرب، وعندما كشف القوميون (أي جماعة فرانكو - حلفاء هتلر) للعالم السجون الخاصة بدائرة الأمن في إسبانيا الجمهورية (SIM) التي تديرها NKVD اعتبرها نغران إشاعة فاشية، وبعد ذلك بعشر سنوات، اعترف بأنه كان مخدوعًا[1].

١ - Lecoeur Auguste, *Le Partisan*, Flammarion (Paris, 1963), p. 72.

وبينما كانت الـ NKVD و SIM تتخلصان وبالقدر المتاح من السرية، من أنصار الـ POVM، كان الفرنسي أندريه مارتي المقرب من ستالين يدبّر حملة عامة على نمط مطاردة الشعوذات وذلك ضد الخونة التروتسكيين. "وبرأي مارتي"، كما كتب شيوعي فرنسي عمل معه، "فإن العدو الأخطر كان موجودًا داخل الفرق الأممية وفي الميدان الشرعي وليس في الجهة الأخرى". وقد فسَّر مارتي الأمور مخالفًا النظام العسكري تمامًا كإشارة على مؤامرة تروتسكية مخصصة "لتجزئة وإرباك الفرق الأممية". وقد كلفه لقبه "جزار الألباسيت" إذ استدعاه الحزب في باريس لتبرير نفسه. وقد اعترف دون صعوبة بأنه أمر بإعدام ٥٠٠ عنصر من الفرق. وبرأيه، فإن هؤلاء الرجال كانوا قد ارتكبوا "كل أنواع الجرائم"، وكانوا "جواسيس لحساب فرانكو". وهذا "إرنست همنغواي"، ورغم تعاطفه الكبير مع الفرق الأممية، يرى في مارتي "مجنونًا" مثل البقية. كان مهووسًا بإعدام الأشخاص... إنه يطهّر أفضل من سولفارسون".

كانت "المجموعات المتحركة" التابعة للـ NKVD نشيطة خاصة في اسبانيا، غير أنها كانت تهتم كذلك بالتروتسكيين والخونة الآخرين حتى في أميركا الشمالية. ففي الخامس من حزيران ـ يونيو مثلاً من العام ١٩٣٧، تركت الأميركية "جولييت ستيوارت بوانتز" وقد خاب ظنّها بالـ NKVD، غرفتها في النادي المنزلي التابع لتجمع النسوة في منهاتن، لكي لا تعود أبدًا. إلاّ أنّه قد ثبت في ما بعد أن حبيبها السابق، الروسي وعضو الـ NKVD المدعو "شاشنو إيستن"، قادها إلى فخ جهنمي... وقد دفن جسمها خلف حائط قرميدي في بيت من بيوت قرية "غرينويش".

إن أكثرية "أعمال التوريط" حصلت مع ذلك في الجهة الأخرى من المحيط الأطلسي. فخلال صيف عام ١٩٣٧، علمت الـ NKVD عبر "مارك زبورويسكي" ولقبه "ايتان"، أنّ أحد ضباطها في أوروبا الغربية أقام علاقات سرية مع القائد

التروتسكي الهولندي المهم هانك ستيفليات. وقد أُرسلت "فرقة متحركة" يقودها المسؤول المساعد في فرع تشيكًا للاستخبارات الأجنبية INO هو "ميخائيل شبيجلغلاس"، وهو رجل صغير القامة أشقر، ذو بنية قوية، وعينان جاحظتان، أرسلت إلى باريس لتعقب وتصفية المذنب. وفي ١٧ تموز - يوليو، تلقى كريفيتسكي، مندوب الـ NKVD في البلاد المنخفضة، الأمر بالعثور على شبيجلغلاس في منتزه مَعارض "فانسان"، وقد كشف له هذا الأخير أن الخائن المقصود هو "إينياس بورتسكي"، ولقبه "لودويك"، و"ريس"، وهو عنصر غير رسمي، بولوني يعمل في باريس. وقبل ذلك بقليل، كان بورتسكي قد أودع رسالة مختومة إلى ضابط من الـ NKVD يعمل في البعثة التجارية السوفياتية، وذلك لينقلها هذا إلى روسيا. ولم يتوقع بالطبع أن تفتح رسالته قبل وصولها إلى المركز في موسكو. وقد اطلع شبيجلغلاس كريفتسكي على مضمون الرسالة. ويقول باحثون[1]: إذا كنا قد أثبتنا خوف ستالين وايجوف الهذياني جراء رؤية الـ NKVD وقد اخترقها حزب تروتسكي سري، فلم يكن بالإمكان التصرف على نحو آخر. لقد تضمن المغلف رسالة موجهة إلى اللجنة المركزية وتعلن ارتداد بورتسكي وتعدد جرائم ستالين وتدعو إلى "معركة ضارية ضد الستالينية". وتستنتج: "وأحسب أني أكرّس جهودي المتواضعة للقضية اللينينية. أريد متابعة المعركة، إذ وحده انتصارنا - انتصار الثورة البروليتارية - يمكنه إنقاذ العالم الرأسمالي والاتحاد السوفياتي من الستالينية، إلى الأمام من أجل معارك جديدة! فلتحيا الأممية الرابعة!".

وبعد ذلك بستة أسابيع، أي في الرابع من أيلول — سبتمبر، وجد جسم بورتسكي وقد غربله الرصاص مطروحًا على ناحية طريق لوزان في سويسرا. وكان قد دعا

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص١٧٢.

شبيجلغلاس صديقة لعائلة بورتسكي هي "جرتريد شيلدباش"، اليهودية الألمانية الشيوعية، لإيقاعها في الفخ. وقد اضطرت لأن تكتب إلى بورتسكي طالبة منه رأيه العاجل. التقت شيلدباش بورتسكي وزوجته في مقهى في لوزان. وفي آخر لحظة، كانت غير قادرة على أن تقدم إلى السيدة بورتسكي، رغم تعليمات الـ NKVD، علبة من الشوكولا المسمّم بمادّة الاستركتين، وقد عثرت الشرطة السويسرية على ذلك في ما بعد. غير أنها توصلت لجذب بورتسكي إلى طريق فرعي حيث رشقَه بالنار عن كثب قاتل من الـ NKVD من موناكو، "فرنسوا روسي" ولقبه "أبيات". وفي آخر لحظة، أيقن بورتسكي أنه وقع في فخ: فعندما كُشف على جثته، كان لم يزل يمسك خصلة شيباء من شيلدباش. وقد حاولت الـ NKVD تضليل الشرطة السرية بأثر مزيف وذلك بأن أرسلت لها رسالة غير معنونة تحدد الجثة على أنها لمهرب سلاح دولي، غير أن الفشل كان من نصيب هذه المناورة. ومع أن روسي وشيلدباش استطاعا الإفلات، فإن عشيقة روسي كشفت دورهما في هذه الجريمة. وقد وجدت الشرطة في محفظة روسي المتروكة خارطة مفصلة لبيت تروتسكي في مكسيكو.

كان الجنرال ميللر، مسؤول اتحاد القوى المشتركة الروسي، الضحية الثانية "للمجموعات المتحركة". ففي كانون الأوّل ـ ديسمبر من عام ١٩٣٦، وصل سلوتسكي، مسؤول فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO إلى باريس لتدبير أمر خطفه. وعبر البريد، طلب إلى كريفتسكي، المندوب في البلاد المنخفضة، أن يضع تحت أمرته عنصرين قادرين على تقمص شخصية ضابطين ألمانيين. لم يفهم كريفيتسكي السبب من وراء هذا الطلب إلا بعد ثمانية أشهر وذلك بعد خطف ميللر. لقد اختفى هذا في وضح النهار في الثاني والعشرين من أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٣٧، مثله في ذلك مثل كوتيبوف قبل ذلك بسبع سنوات. غير أنه وعلى عكس سلفه، كان قد ترك عند

أمين سره الجنرال "كوزونسكي" رسالة يتم فتحها في حال عدم عودته. وتكشف الملاحظة أن ميللر كان لديه موعد مع الجنرال سكوبلين عند الساعة الثانية عشرة والنصف وأنه سيلتقي "بإثنين من الألمان": الأول هو ملحق عسكري في بلد مجاور والآخر من السفارة في باريس. وانتهى الأمر بأن تم تحديد هوية سكوبلين كعميل للـ NKVD. وعشية خطفه، أرسل الجنرال كودورف نائب رئيس اتحاد القوى المشتركة الروسي ROUS وكوزونسكي من يفتش عن سكوبلين في المقر العام للـ ORVS لسؤاله عن مكان اختفاء ميللر. متجاهلاً وجود الرسالة، أجاب سكوبلين بأنه لم يره طوال النهار. وعندما أطلعاه على كلمة ميللر، استمر سكوبلين ينكر ذلك. حينئذٍ طلبا منه مرافقتهما إلى دائرة الشرطة، عندها دفعهما وانحدر على الدرج بسرعة وفرّ هاربًا. فانطلقت الرصاصات، وأعاق مطارديه نور الدرج الخافت، وعندما وصلا أخيرًا إلى الشارع، كان سكوبلين قد اختفى. لقد هرب من باريس إلى إسبانيا، وهناك قامت بتصفيته ولا ريب الـ NKVD، أما بالنسبة لنتاشا بلفيتسكايا، فقد أدينت في أيلول ـ سبتمبر رغم غياب زوجها. فباعترافها بالذنب كونها شاركت في عملية الخطف، صدر الحكم عليها بعشرين سنة مع الأشغال الشاقة. وقد توفيت في السجن في أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٤٠.

أثناء محاكمة بلفيتسكايا كشف الادعاء، معتمدًا على نتائج أحد تحقيقات دائرة الأمن، أنه تم اقتياد ميللر إلى مكان في السفارة السوفياتية حيث تمّ تخديره هناك، ووضع لاحقًا في محفظة كبيرة نقلت في شاحنة صغيرة من نوع فورد إلى سفينة شحن سوفياتية راسية في مرفأ هافر... وهناك عدة شهود رأوا عملية نقل المحفظة على متن السفينة. مع ذلك، فقد كان ميللر حيًا داخل المحفظة، مخدرًا أشد التخدير. وبخلاف كوتيبوف، قبل ذلك بسبع سنوات، فقد بقي حيًا. وقد تم استجوابه بقسوة مرة واحدة في

موسكو وحكم عليه سرًا ومن ثم أعدم رميًا بالرصاص. أما استجوابه وتصفيته فلم يكونا على كل حال كافيين لإقناع المركز بأن الحرس الأبيض لم يعد يشكل خطرًا ما. ولم تكشف التسجيلات التي قام بها ترتياكوف في المقر العام لاتحاد القوى المشتركة الروسي ROVS بعد خطف ميللر أيّ مؤامرة جدية معادية للسوفيات، واستنتج المركز أن العنصر التحق بالمتآمرين وأبرق إلى المقر في باريس: "تعتقد أن إيفانوف خاننا وأنه أرسل إلينا مجرد افتراءات"... وفي الحقيقة كان المركز هو الذي خان نفسه بالمؤامرات الخيالية.

كان لاختفاء ميللر فعل الكارثة على الـ ROVS. فقد اتهم بعض الحرس الأبيض عن خطأ كوزونسكي، أمين سره العام، بمشاركته في هذه المؤامرة. وتم نقل المقر العامّ للـ ROVS إلى بروكسيل. وهناك تحت قيادة الجنرال ارخانغلسكي، ظهرت المنظمة مصابة، مثخنة بالجراح أكثر مما كانت عليه في عهد ميللر.

وفي بلجيكا كذلك ارتكبت الـ NKVD جريمتها التالية. لقد تم نقل المنشق عن دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU "جيورجي اغابكوف" إلى الغرب منذ تسع سنوات. وبعد مطاردات طويلة، قتل في بداية العام ١٩٣٨ على أيدي "مجموعة متحركة". وقد طورد منشقان حديثان كذلك وقتلا.

إن "كرفيتسكي" مندوب الـ NKVD في البلاد المنخفضة" و"ويللي مونزنبرغ" فنان منظمات جبهة الكومنترن الماهر، اعتُبرا مذنبين كونهما رفضا عام ١٩٣٧ الالتحاق بموسكو حيث كان ينتظرهما موت مؤكد. وفي تموز - يوليو من العام ١٩٣٨، طورد الكسندر أورلوف، المندوب في إسبانيا الجمهورية كونه رفض كذلك العودة إلى موسكو بناءً على دعوة المركز له...

غير أن "أعداء الشعب" الأساسيين المطاردين من قبل الـ NKVD في الخارج كانوا دائمًا وأبدًا القادة التروتسكيين. وشكّل ثلاثة رجال منهم أهداف الـ NKVD المفضلة وهم: "ليف سدوف" إبن تروتسكي والمنظم الأساسي للحركة؛ "رودولف كليمان" أمين سر الأممية الرابعة المؤسسة رسميًا في أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٣٨؛ وأخيرًا "ليون تروتسكي" نفسه، "الهرطوقي الكبير والمنفي في مكسيكو". وقد تأجج خوف ستالين من أن تكون الحركة التروتسكية قد اخترقت الـ NKVD من جرّاء ارتداد "كريفيتسكي"، صديق بورتسكي في تشرين الأول ـ أكتوبر من العام ١٩٣٧. وفي الشهر التالي، تم تقديم كريفيتسكي إلى جانب سدوف بواسطة محامي أرملة بورتسكي: "عندما رأيت سدوف، وأسرّيت له بصدق بأني أتيت ليس للالتحاق بالتروتسكيين ولكن من زاوية التعاطف ولطلب النصح... وقد استقبلني بمودة... وكنت التقي به كل يوم تقريبًا بعد هذا اللقاء الأول. وأعجبت بابن ليون تروتسكي هذا كشخصية مميزة. ولن أنسى أبدًا المساعدة والراحة التي وفّرها لي في تلك الأيام التي كنت فيها ملاحقة من قبل عناصر ستالين. وكان لم يزل شابًا إنما يمتلك مواهب استثنائية. كأنه ساحر... جيد التثقيف وفعّال. وقد تمسكت قرارات الاتهام في هذه المحاكمات التي حصلت في موسكو بمبالغ ضخمة تلقاها من هتلر وميكادو... وعندما تعرفت عليه، كان يعيش كثوري صادق، يعمل بدأب كل يوم من أجل قضية المعارضة، سيء التغذية، رث الملابس"...

غير أن كريفيتسكي جَهِلَ أن "زبوروبسكي"، ولقبه "إتيان"، الأكثر قربًا من بين مساعدي سدوف، كان عنصرًا من الـ NKVD. واضطر ستالين للجوء إلى تفسير هذه اللقاءات شبه اليومية بين سدوف وكريفيتسكي على أنها نذير شؤم... وقد لعبت ولا ريب دورًا في قراره بالانتقال إلى الفعل وتصفية سدوف.

كان لدى تروتسكي، كأبٍ لجوج، الملكية التعيسة في نزع أية ثقة لأولاده بأنفسهم. ولم يشارك كريفيتسكي إعجابه بإخلاص وفعالية ولده. وبينما كان سدوف يتخبط في ظروفٍ مادية متزعزعة جدًا ليُخرج "النشرة" إلى النور وللمحافظة على اتصالاته مع الحركة المنقسمة، كتب له والده في كانون الثاني من العام ١٩٣٨ من مكسيكو رسالة قاسية جدًا جاء فيها: "إني غير راضٍ أبدًا على الطريقة التي تدار بها "النشرة"، وأنا مضطر مرة أخرى لطرح مسألة نقلها إلى نيويورك".

ومن أجل تلبية طلبات والده اللجوجة، اضطر سدوف لأن يرجئ عدة مرات إجراء عملية، رغم نوبات متكررة لالتهاب الزائدة. وفي الثامن من شباط ـ فبراير عام ١٩٣٨، وبعد نوبة خطيرة جدًا، ظهر واضحًا أنه لا يمكن تأخير الأمر أكثر من ذلك. وتمكن إتيان من اقناعه أنه ومن أجل إحباط مراقبة الـ NKVD، يجب عدم إجراء العملية في مستشفى فرنسي بل في عيادة صغيرة خاصة بإدارة مهاجرين روس. ولم يقدّر سدوف هذا الأمر، بل إن هذه المؤسسة كانت فعلاً مخترقة من عناصر الـ NKVD. وحسب اعترافه الخاص، أخطر إتيان الـ NKVD فور استدعائه سيارة وأجريت العملية لسدوف في المساء وظهر أنه يتعافى خلال بضعة أيام. وكونه نقل دون تأخير عنوان العيادة إلى الـ NKVD، رفض إتيان ولأسباب أمنية مزعومة، كشف العنوان أمام التروتسكيين الفرنسيين. وكان الزائران الوحيدان إذن هما زوجته جانّ وهو بالذات. وفي الثالث عشر من شباط ـ فبراير، أصيب سدوف بتوعك مفاجئ وغير مفهوم، وشوهد تائهًا يهذي في الممرات. وأصاب القلق الشديد الجراح لحالته بحيث أنه سأل جانّ إذا كان قد حاول أن ينتحر... وأوضحت زوجته وهي مغرورقة بالدموع أن زوجها تعرض للتسميم على أيدي الـ NKVD. وتفاقمت حالة سدوف بسرعة، ورغم عدة عمليات نقل دم، توفي في خضم آلام مبرّحة في السادس عشر من شباط ـ فبراير.

وكان عمره اثنين وثلاثين عامًا. وعزا تحقيق روتيني وفاته إلى تعقيدات ما بعد العملية وإلى إغماء ناجم عن مقاومة واهنة. غير أن التقرير يتضمن تشويهات حادّة. ومع أنه لا يوجد أي برهان شكلي عن تورطها بالقضية، وهذا ليس مفاجئًا أبدًا، فإن الـ NKVD وحسب كل احتمال هي المسؤولة عن هذه الجريمة. فقد كانت خُصِّت بشعبة طبية كاملة إلى الغرفة التي دبر أمرها على الأرجح إياغودا وقد تلقت تجهيزًا على مستوى صيدلية. وكانت تجري في هذه الغرفة تجارب حول استخدام مختلف أنواع المخدرات والسموم. ومنذ اللحظة التي جذبت فيها الـ NKVD سدوف إلى عيادة مُخْتَرَقَة ولا ريب، فالاحتمال ضعيف أنها لم تحاول قتله. وقد هيأ موت سدوف للـ NKVD حرية الاختيار داخل المنظمة التروتسكية. فقد أصبح إتيان مسؤولاً عن إصدار "النشرة"، وحافظ على اتصاله مع اللاجئين من روسيا ستالين الذين يحاولون الالتحاق بتروتسكي وأصبح الصلة الرئيسية بين مناصريه في أوروبا. وتوصل لإفساد العلاقة بين تروتسكي وسنيفلييت Sneevliet، وتشديد التوتر بين جانّ وعمها، وتأجيج الفتنة سرًا بين مختلف الجماعات التروتسكية. وكان إتيان على يقين من ثقة تروتسكي به حيث سأله عن كيفية الرد على سنيفلييت وعلى الآخرين الذين يظنون أنه يعمل لحساب الـ NKVD. فنصحه تروتسكي بإنذارهم أن يدعموا اتهاماتهم أمام لجنة مستقلة.

ثم هاجمت الـ NKVD رودولف كليمان Klement، مسؤول منظمة المؤتمر التأسيسي للأممية الرابعة الذي كان من المفروض أن ينعقد مع نهاية العام. فقد اختفى هذا من منزله الباريسي في الثالث عشر من تموز - يوليو. وبعد حوالي خمسة عشر يومًا، تلقى تروتسكي رسالة من كلمان، عن طريق بريد نيويورك، متهمة إياه بأنه تحالف مع هتلر... وببعض الجرائم الخيالية الأخرى. وأرسلت كذلك نسخًا عنها إلى العديد من أنصار تروتسكي الفرنسين... وقد قيل في هذه الرسالة إما أنّها خطأ من

الـ NKVD وإما أنّها كلمات ملفّ كتبه كلمان تحت تأثير مسدس موجه إلى صدغه. ولا ريب بأن الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD كانت تنوي إخفاء كليمان بعد هذا الاتهام المُخْتَلَق. إنما وبعد وصول الرسالة بقليل لفظ نهر السين جسدًا مقطوع الرأس تعرف عليه إثنان من التروتسكيين الفرنسيين على أنه جسد كليمان وذلك بفضل ندوب كانت بادية على يدي المغدور في حياته..

لقد داهم الأجل الأممية الرابعة حتى قبل ولادتها. فقد افتتح مؤتمرها التأسيسي غير بعيد من باريس في الثالث من أيلول ـ سبتمبر، في منزل الفرنسي "ألفريد روسمر"، صديق تروتسكي القديم. وشارك فيه واحد وعشرون مندوبًا فقط يمثلون مجموعات صغيرة تنتمي إلى أحد عشر بلدًا. وأما "الشعبة الروسية" التي كان قد تم إعدام كل أعضائها المخلصين قبل هذه الحقبة، فكانت ممثلة بعميل الـ NKVD إتيان. وكان المدعو "رامون مركادر" ولقبه "جاك مورنار" و"فرانك جاكسون"، عشيق الأميركية "سيلفيا أجلوف"، شارحًا ومناضلاً تروتسكيًا، وكان حاضرًا كذلك على هامش المؤتمر. ويستنتج "إسحاق دويتشر"، كاتب سيرة تروتسكي، أنّ الأممية، المؤسسة للتو، لم تكن "سوى مجرد وهم"؛ فتأثيرها كان معدومًا تقريبًا خارج دائرة من أنصار تروتسكي كانت تضيق شيئًا فشيئًا وهي مقسومة على نفسها. أما هو المقطوع عن العالم من جرّاء نفيه في المكسيك، فلم يعد يسيطر على الوضع بشكل جيد. ومع اعترافه "بالتفاوت بين قوانا الآن ومهمتنا في المستقبل"، بقي متفائلاً: "فخلال العشر سنوات المقبلة، سيثير برنامج الأممية الرابعة انخراط مليون رجل، وسيصبح ملايين الثوار قادرين على الانقضاض للاستيلاء على السماء والأرض".

لا ريب في أن رجل الدولة الوحيد الذي أخذ هذه النبوءات على محمل الجد كان ستالين بالذات. فالرسائل التي وجهتها الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD إلى

مراكزها في الخارج وتلك التي وجهها الكومنترن إلى أعضائه من الأحزاب، تأسف دائمًا للقليل من الطاقة المخصصة لتحطيم التروتسكية. وها هو "غورديفسكي" يتذكر كذلك اللهجة الغاضبة لإحدى البرقيات، دليلاً على المناخ السائد في تلك الفترة، الموجهة إلى استكهولم وأوسلو: "إن الحملة ضد العصابات الإرهابية التروتسكية تجري بسلبية لا تطاق في بلادكم"...

لقد بقي تروتسكي في عالم ستالين العقلي، الخصم الأشد خطرًا من هتلر. فمع هذا الأخير استشف ستالين إمكانية تسوية ما وربما كان ذلك منذ أواسط ثلاثينات القرن العشرين. أما مع تروتسكي، فالأمر مختلف، إنه صراع حتى الموت[1].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص١٦٠ ـ ١٧٧.

لافرنتي بريا

ولد "لافرنتي بافلوفيش بريا"، في جورجيا عام ١٨٩٨. وعندما اندلعت ثورة تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٧، كان أحد زعماء العمّال على مستوى القواعد، وكان من أتباع "جوزيف ستالين"، وعمل في المخابرات السريّة بناءًا على توصية "ستالين" حيث أبرز مهارات عالية في تصفية "الجيش الأبيض"، وقام بتهريب عدد من جنود "الجيش الأحمر" لينضمّوا إلى "الجيش الأبيض" باعتبارهم فارّين من اضطهاد البلاشفة، وذلك لاختراق "الجيش الأبيضّ وتصفية المعارضين للنظام البلشيفي، ونظّم عمليات الرقابة الدقيقة والمباشرة على "تروتسكي" من خلال متابعته في كافة البلدان التي فرّ إليها، وهي تركيا وألمانيا والدنمارك وأخيرًا المكسيك، حتى وضعت خطة تصفيته جسديًا. وتمكّن من إدارة شبكة مخابرات داخليّة وخارجيّة ضخمة قوامها عناصر من البوليس السري، وقد استطاع وهو رئيس لجهاز "التشيكا" أن يقوم بقمع المعارضة الداخليّة والحزبيّة، بزج أفرادها في "مخيّمات الاعتقال الجماعيّة" التي تمّ إنشاؤها... وشجّع فكرة ضمّ عملاء ذوي كفاءة عالية إلى الجهاز حتّى يتمكنوا من التعامل مع العلماء ورجال الفكر والثقافة والأجانب ويكونوا في مستواهم العلمي والثقافي.

في عهده أنجزت المخابرات الروسيّة أعمالاً ناجحة للغاية ومميزة خارج الاتحاد السوفياتيّ، منها عمليّات "سورج" في اليابان، و"الأوركسترا الحمراء" في ألمانيا ودول أوروبّا... ونفّذ جهاز المخابرات الروسيّة في عهده العديد من عمليات اغتيال الخصوم السياسيّين للثورة البلشيفيّة داخل روسيا وخارجها... وقد انهمك في السنوات الأخيرة

من حكم ستالين بتثبيت مركزه ليصبح خليفة لستالين في الحكم بعد وفاته بلا منافس، ويقال إنّ ستالين، في أواخر أيّامه، أراد التخلّص من بريا وإعدامه بتهمه التقصير في كشف المؤامرات الداخليّة ضدّه... ويتّهم بريا من قبل بعض الأوساط بأنّه كان وراء موت ستالين... وقد حاول استلام السلطة بعد موت ستالين من خلال قوّة المخابرات السوفياتيّة ودورها في الحياة العامّة، إلاّ أن المكتب السياسيّ للحزب الشيوعي السوفياتيّ قد أفشل محاولة "بريا" للإستيلاء على الحكم، وقدّمه لمحاكمة أصدرت قرارًا بإعدامه.

شغل بريا منصب رئاسة المخابرات الروسية "تشيكا" من عام ١٩٣٨ حتّى عام ١٩٥٣، وأصبح عضوًا في المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ عام ١٩٤٦، واعتقل في ٢٦ حزيران ـ يونيو ١٩٥٣، وأعدم في ٣٠ تشرين الأوّل ــ أكتوبر ١٩٥٣. ويعتبر لافرنتي بريا من أهم الشخصيّات في تاريخ حقبة الحكم "الستاليني" للاتّحاد السوفياتيّ، وأكثر العناصر صلابة وقدرة على ارتكاب كافة الجرائم للحفاظ على الحكم الستاليني[١].

دشنت نهاية آخر محاكمة كبيرة عامة، في آذار ـ مارس ١٩٣٨، بداية هدوء الرعب الكبير في الاتحاد السوفياتي. ففي شهر تموز ـ يوليو، عين "لافرانتي بريا Beria" مسؤول الـ NKVD فيما وراء القوقاز مساعدًا أول لإيجوف، وعندما فصل هذا في الثامن من كانون الأوّل ـ ديسمبر، كانت السلطة الفعلية قد صارت إلى بريا. وكان ستالين يتفادى أن يأخذ على عاتقه علنًا أحداث الرعب الكبير. فقد كان من السهل، عند

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٦٩ ـ ٧٠.

طرد إيجوف أن يجعل منه كبش محرقة مقابل كل تجاوزات تلك المرحلة، على الأقل تلك البادية منها للعيان.

لقد هاجم بريا "سفتلانا" ابنة ستالين كونها "صورة رائعة حديثة لمومس ماكرة وتجسيدًا للغدر الشرقي والتملّق والرياء"... وكذلك كان بريا ماجنًا بطريقة لا تُصدّق. فقد استغل موقعه في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD للإيقاع بالكثير من النساء الشابات. وكان يخطفهن غالبًا في موسكو من وسط الشارع، وفي أكثر الأحيان كنّ طالبات، لإغوائهن وهتك أعراضهن. ومَن يُبدي تذمره من الأهل أو الأزواج ينتهي به الأمر غالبًا إلى الـ"غولاغ" حيث يقضي بقية حياته...

في ظل بريا أخلى الرعب الكبير المكان لرعب أشد انتقائية. إنما واصلت عملية مطاردة تروتسكي سيرها من جديد. وقد أصبح تروتسكي الحقيقي في موسكو قليل الشبه بتروتسكي الخرافي الذي يتسلط على مخيلة ستالين المحمومة. ففي الأول من أيار - مايو تقاطر إلى مكسيكو عشرون ألف شيوعي مكسيكي في ظل يافطات تعلن: "فليخرج تروتسكي! تروتسكي برّا!" وحتى لو اعتمدنا الأرقام التي قدمتها بطانة المنفى فلم يكن في المدينة أكثر من ثلاثين تروتسكيًا نشيطًا، منقسمين إلى عدة زمر متناقسة... ولكنّهم بتغلبهم على خلافاتهم، تناوبوا الحراسة حول بيت تروتسكي في "كويواكان Coyoacan"، واستمرّت الـ K.G.B حتى آخر عهدها تعتبر مصرع تروتسكي كإحدى "مسائلها الحية" الأكثر أهمية، فهذه صالة الشرف الخاصة بالمديرية الأولى المبنية في العام ١٩٧٩، تعرض صورةً وتأبينًا لنعوم (ليوند) الكسندروفيتش إيتانغون، مدبر عملية القتل هذه. وكان إيتانغون هذا متورطًا في أعمال شائنة منذ تصفية بلومين العام ١٩٢٩. وكان اليهودي الوحيد من الـ NKVD الذي بقي على قيد الحياة بعد عمليات التطهير. ويذكر أحد ضباطه أنه كان رجلاً قصيرًا وسمينًا، أصلع،

جبهته ضيقة، والعينان ثاقبتان[1]. وقد شارك في الحرب الاسبانية باسم "الجنرال كوتوف"، مستشارًا لدى الفرق الأممية حول تقنيات حرب الغوار خلف الخطوط "القومية"، وفي هذه الحقبة، سقط في حب شيوعية من برشلونة هي "كاريداد مركادير دل ريو"، فجندها إلى جانبه مع ابنها رامون كذلك[2]. كما أثبت ذلك اكتشاف خريطة مفصّلة لبيت تروتسكي من قبل الشرطة السويسرية في محفظة روسّي بعد مصرع بورتسكي، فقد أصبح تروتسكي هدف مراقبة دؤوبة تقوم بها الـ NKVD منذ وصوله إلى مكسيكو. وقد سنحت الفرصة للمنشق لاحقًا "فلاديمير بتروف" عام ١٩٨٤، بقراءة أحد الملفات الخاصة بمصرع تروتسكي. كان هذا الملف بسماكة تفوق العشرة سنتيمترات ويتضمن عدة صور أُخذت داخل الدارة: مثل الحرس، الأسوار، تروتسكي مع زوجته، تروتسكي يحتسي الشاي مع أصدقاء له، كلب تروتسكي... وعدد كبير جدًا من المواضيع. لا ريب في أن عناصر الـ NKVD الذين تسللوا إلى حاشية المنفي على فترات ودرجات متفاوتة اسقطوا بالتبادل هوياتهم. ويتذكر بتروف أن الأول من بينهم كان امرأة، أمينة سر جُنِّدت خلال المنفى من النروج. غير أن الجاسوس الأكثر أهمية في بطانة تروتسكي كان ولا ريب "رامون مركادر Ramon Mercader".

كان مركادر قد تلقى تدريبًا عاليًا. فشهور الاستجوابات الكثيفة التي تعرض لها بعد توقيفه لم تكشف أبدًا هويته الحقيقية التي لم تُعرف قبل العام ١٩٥٣، أو أي شيء عن عمله لحساب الـ NKVD.

---

١ - Khokhlo Nikolaï, *In the Name of Consciemce,* F. Muller, (LondON,1960), p. 42.

٢ - Don Levine Issac, *The Mind of an Assassin,* Weidenfeld and Nicholson(London1959) pp. 32-35.

ذكي للغاية، يتحدث عدة لغات بطلاقة، كان هذا المصارع كذلك منقطع النظير بكتمانه، وُهِب طباعًا باردة فريدة من نوعها. وقد اعترفت سيلفيا أجلوف بأنها لم تشك يومًا بحبه لها قبل مصرع تروتسكي. وقد أثبتت أيضًا اختبارات نفسية متقدمة أن مركادر يتمتع بفترة ارتكاس سريعة بامتياز وبذاكرة بصرية شبه تصويرية. لقد كان قادرًا على إيجاد طريقه في الظلام الدامس، والتعلم بأقصى سرعة والاحتفاظ بتعليمات معقدة. كان بإمكانه كذلك فك رموز بندقيّة باسم مخترعها الألماني في الظلام وتركيبها في ثلاث دقائق وخمس وأربعين ثانية...

وفي أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٣٩، التحق مركادر بسيلفيا أجلوف في نيويورك، وكان بحوزته جواز سفر كنديٌّ مزيف، حصل عليه بفضل متطوع من الفرق الأممية، باسم "فرانك جاكسون Jacson، وقد كتبته الـ NKVD على هواها فأصبح "Jackson". وفي نيويورك، اتصل بمندوب الـ NKVD "غابيك أوفاكيميان"، والذي عبره تمر أكثرية تعليمات موسكو الخاصة بالتحضير لعملية القتل... وحسب تعليمات الـ NKVD، حلَّ مركادر في مكسيكو في تشرين الأوّل ـ أكتوبر عن طريق مكتب يهتم بالاستيراد والتصدير. ومن هناك، اتصل بوالدته وبنعّوم ايتانغون، عشيقها. وفي كانون الثاني ـ يناير ١٩٤٠، نجح مركادر بإقناع سيلفيا أجلوف بالالتحاق به في مكسيكو. وهنا، وكما توقع، ستتصل بعظيمها وتعمل من أجله شهرين كأمينة سر. وكان يصطحبها مركادر إلى دارة تروتسكي ويأتي لإعادتها بعد كل زيارة. وخلال الشهرين اللذين قضتهما في مكسيكو، لم يحاول مركادر التسلل إلى قلب الدارة، غير أنه أصبح شخصية مألوفة لدى الحرس واستطاع اكتساب ثقة صَديقَي تروتسكي الفرنسيين، "ألفريد" و"مارغريت روسمر". وبُعيد رحيل سيلفيا أجلوف إلى نيويورك في آذار ـ مارس عام ١٩٤٠، أذن هذان الفرنسيان لمركادر بالتسلل إلى داخل الدارة للمرة الأولى...

وفي هذه المرحلة، قام مركادر بدور الجاسوس المتسلل وليس بدور القـاتل. كـانت الدارة قد تحولت إلى معقل حصين؛ فقد جرى تحصينها بحواجز من الفولاذ، وأشـرطة حديديـة مكهربـة وحـرس دائـم مؤلـف مـن عشـر عنـاصر مـن الشـرطة وإنــذار آلــي ومجموعة شـبه رسـمية مـن المتعـاطفين. كـانت مهمـة مركـادر الأساسية هـي الـتزود بمعلومات تتعلق بأنظمة الدفاع عن الدارة وعـن حرسـها وسكانها وذلـك بهدف تدبير هجوم مسلح. وقاد الهجوم بالذات الرسام المكسـيكي المشـهور الشـيوعي "دافيد ألفـارو سيكيروس Siqueiros"، المحارب القديم في الفرق الأممية خلال الحرب الإسبانية. وفي الثالث والعشرين من أيار ـ مايو، قبيل الصباح بأربع ساعات، نجح أكـثر مـن عشـرين رجل مغوار يرتدون لباس الشرطة والجيش ويقودهـم سيكيْروس مـن مفاجـأة الحـرس وشلهم... ورشقوا في الحال كل غرفة بالرشيشات. أما تروتسكي وزوجتـه فنجـوا مـن الهجوم بأن اختبأوا تحت السرير، وكشفت الشرطة على أكـثر مـن ستين أثـر لطلقـات على حائط غرفتيهما. وقد دعم الرسام في ما بعد روايـة قليلـة الشبه بمـا حصـل؛ وقـد يكون الهدف من هذه الإغارة هو الاحتجاج بصورة مأساوية ضد وجود تروتسـكي فـي مكسيكو وليس قتله. أخلى سبيله بكفالـة، وقـد نجـح سـيكيْروس بـالهرب مـن المكسـيك بمساعدة الشاعر الشيوعي التشيلي "نيرودا".

بعد خمسة أيام على هذا الهجوم، التقـى مركـادر بـالمَنْفِيّ لأول مـرة. لطيـف مثـل عادته، قدّم إلى "ليف"، حفيد تروتسكي، طائرة شراعية منمنمة. وشـرح للصغير كيـف يتمكن من جعلها تطير. وخلال الأشهر الثلاثة التالية، قام بحوالي عشر زيارات للدارة، كان لا يطيل المكوث أبدًا ويحمل معه وجبات جاهزة. ولم يلتقِ تروتسكي سوى مرتين أو ثـلاث مـرات. وقـد زار ولا ريـب مرتيـن نيويـورك للقـاء أوفاكيميـان وتدبير آخـر الإجراءات قبل عملية القتل. وفي العشرين مـن آب ـ أغسـطس، حضـر مركـادر إلـى

الدارة حاملاً معه رسالة يدوية، قبل تروتسكي إعطاء رأيه بها. وكان مزودًا بخنجر خيّط إلى بطانة مشمّعة، وبمسدس في الجيب الأول، ومنقر ثلج في الجيب الآخر. أما سلاح الجريمة فيجب أن يكون المنقر، وقد يتناول المسدس عند تعثر عملية هروبه... أما كيفية استعمال الخنجر فبقيت سرية؛ فلربما أخفاه داخل مشمّعه في حال تم اكتشاف ما عداها من أسلحة.

لقد سبق أن استخدمت الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD طرقًا مشابهة. فخلال شتاء ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، استدعى بريا ضابطًا من الـ NKVD وطلب منه إذا كان لديه من القوة ما يجعله يقتل رجلاً بضربة واحدة. "نعم، أيها الرفيق المفوّض" أجاب بوكوف. حينئذٍ شرح له بريا أن سفيرًا سوفياتيًا من الشرق الأوسط يعتزم الانتقال إلى الغرب. وأرسل بوكوف إلى المكان المقصود، برفقة مساعد وذلك بمهمة هي ردّ الدبلوماسي "سالمًا". وبوصوله سلمه المندوب قضيبًا من الفولاذ خبّأه في ثيابه. وعاد بوكوف في الحال، برفقة مساعده قاصدًا السفير المزعوم بزيارة مجاملة. وتدبر بوكوف أمره وتسلل خلف السفير ولطمه لطمة واحدة، مميتة على الجمجمة. وفي الحال لف الرجلان الجسد في سجادة لتفادي بقع الدم، وشحناه في سيارة وانطلقا لدفنه خارج المدينة. أما زوجة السفير فأُعلمت بأن زوجها، المدعو على عجل إلى موسكو، يأمرها بأن تأخذ القطار مع أولادها وتلتحق به. وحسب كل احتمال، فقد تم توقيفهم في الطريق وحوّلوا إلى معسكر عمل مخصص لـ "أعداء الشعب"[1].

كان مركادر يستعد لقتل تروتسكي بضربة واحدة على الجمجمة من الخلف ثم الهرب قبل اكتشاف الجثة. وبينما كان تروتسكي في مكتبه، منكبًا على مقالته، أخرج

---

١ - Vladimir et Evdokia, *Empire of fear,* André Deutsch (London,1956), pp. 80-82 Petrov

مركادر المنقر من جيبه، أطبق عينيه وضربه بكل ما أوتي من قوة. غير أن الضحية لم تمت على الفور. أطلق "صرخة حادة، مخيفة"... "وتبقى هذه الصرخة ترنّ في أذني مدى الحياة"... قال مركادر في ما بعد. واستدار وعضّ بعنف يد قاتله. ثم وقبل أن تتلاشى قواه استولى على المنقر... المزوّد من جهة بمنقر ومن الأخرى بقطعة حديد... وفي الغد، أي في ٢١ آب ـ أغسطس من العام ١٩٤٠. توفي تروتسكي في المستشفى.

يركز ملف الـ K.G.B على أدق التفاصيل في عملية القتل هذه. وعلى حدّ قول بتروف، يذهب التقرير حتى إلى تحديد أن الضربة القاضية لطمته بالطرف العريض وليس بالطرف المسنن للمنقر... وقد حُكم على مركادر بالسجن خمس وعشرين سنة. وهربت والدته وإيتانغون وعادتا إلى الاتحاد السوفياتي حسب خط سير مرسوم سلفًا. وفي موسكو استقبل بريا السنيورة مركادر، وقدمها إلى ستالين في الكرملين الذي منحها وسام لينين. وبعد عدة سنوات... وقد أضناها الندم، شرحت الأمر لممثلي الحزب الشيوعي الإسباني في المركز العام للكومنترن على هذا النحو: "لم أعد أشكل أية فائدة لهم (للـ NKVD)... وأنا معروفة في الخارج. وصار من الخطورة بمكان استخدامي. غير أنهم يعلمون كذلك أنني لم أعد كما كنت... فكاريداد مركادر لم يعد وببساطة كاريداد مركادر، بل الأسوأ من بين المجرمين... فلم أعبر كل أوروبا فقط من أجل كشف عملاء تشيكًا، الذين تخلّوا عن الجنة. وبهدف قتلهم دون رحمة. وإنما ارتكبت أفعالاً أشد خطورة، كذلك!... لقد جعلت من ابني قاتلاً ـ فعلت ذلك من أجلهم ـ إن رامون، هذا الولد الذي رأيته يخرج في يوم من الأيام من بيت تروتسكي، مقيدًا، مضرجًا بالدماء، لا يمكنه العودة إليّ. وكان عليَّ أن أفرَّ في اتجاه وليونيد (ايتانغون) في اتجاه آخر"...

وعلى مدى عشرين عامًا من السجن، احتفظ رامون مركادر بإيمانه الستاليني سليمًا معافى. وأصر على أن التاريخ سيعتبره جنديًا في الثورة العالمية كونه قدم خدمة كبيرة للطبقة العاملة بتخليصها من قائد كان قد خانها. وكان يرتاح لإنشاد "La jeune garde الحرس الشاب" مشددًا على الكلمات الأخيرة: "إنما نعمل للقضية العادلة!" ولو أنه كان قد قبل أن يكشف هويته الحقيقية أو صلاته بالـ K.G.B، فلربما أفرج عن مركادر بناءً على وعد بالعودة إلى السجن، غير أنه رفض ذلك دائمًا وأمضى مدة العقوبة كاملة. وعند إخلاء سبيله عام ١٩٦٠، ترك المكسيك إلى كوبا ثم قفل عائدًا إلى الاتحاد السوفياتي عن طريق تشيكوسلوفاكيا. أما طلبه الانضمام إلى الحزب الشيوعي السوفياتي فقد رفض...وخارج الـ K.G.B، فإن قاتل تروتسكي أصبح وفي عهد ما بعد الستالينية، الاستعادة الهائلة لهذيان ينتمي إلى الماضي[١].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص١٧٨ ـ ١٨٢.

فيليكس دزرشنسكي، وجان برزين

لم يكن هناك رجال كثيرون كان يمكنهم التقدم بمطالب إلى فلاديمير لينين ثم الحصول عليها، وكان "فيليكس دزرشنسكي" واحدًا من بين هؤلاء القلائل. وذات ليلة من خريف ١٩١٧، اضطر لينين إلى الإيماء برأسه بعلامة الموافقة على مطالب تقدم بها دزرشنسكي لتولي مسؤولية مهمة أراد الزعيم البولشفي منه القيام بها.

وهذه المطالب كانت متشددة على نحو واضح: دزرشنسكي أبلغ لينين أنه يمكنه أن يترأس هيئة جديدة يطلق عليها "اللجنة الفرعية للأمن"، ولكن شريطة إعطائه سلطة كاملة وغير مشروطة وغير خاضعة لإشراف أحد. وكان إذعان لينين لهذه المطالب ناشئًا في جزء كبير منه عن حقيقة احترامه لشخصية دزرشنسكي، أحد أقدم رفاقه في السلاح. وهذا يدل أيضًا على الثقة العالية في قدرات دزرشنسكي، ذلك أنه من الواضح أن هذه المهمة كانت مستحيلة.

في نظر لينين، فإن اللجنة الفرعية للأمن يمكن أن تضطلع بمهام أمنية كبيرة بعد الانقلاب البولشيفي القادم، وكما اعترف لينين لأول مرة، فإن المحاولة الانقلابية عبارة عن مغامرة جريئة محفوفة بالأخطار، ويمكن إحباطها في أي لحظة من جانب قوات حكومة كيرينسكي الموجودة في السلطة، أو من جانب العناصر المونشفية العديدة المناهضة، أو من جانب بقايا القوات القيصرية الكبيرة الموجودة في معظم أنحاء البلاد، أو من جانب جهاز الاستخبارات القيصري "أوخرانا"، أو من جانب مجموعة

مؤلفة من كل هذه العناصر في مجموعها. وقال لينين ذات مرة إن "السلطة موجودة في الشوارع، وهي تنتظر أحدهم لتوليها". ولكن الحقيقة هي أن فيليكس دزرشنسكي هو الرجل الذي جعل الانقلاب البولشيفي أمرًا ممكنًا.

تحرك دزرشنسكي بسرعة خاطفة، وألقى القبض على كل من وجدهم من ضباط كيرينسكي، وعرض عليهم القيام بدور ناشط مع البولشيفيك، تحت التهديد بالقتل أو السجن. ومن قاعدة قوة البولشيفيك في سانت بطرسبورغ استولى دزرشنسكي على كل وسائل الاتصالات، بما فيها البريد والتلغراف والتليفون. وكانت كل العناصر غير البولشفية محرومة من استخدام هذه الوسائل. ولذلك فعندما قام لينين بانقلابه، لم يكن الكثيرون في حكومة كيرينسكي يعرفون ما حدث إلا بعد فوات الأوان. وعمل تعتيم الاتصالات أيضًا على شل حركة المناهضين لانقلاب لينين، ولما حاولوا تحريك انقلاب مضاد، كان البولشيفيك تولوا بالفعل زمام السلطة.

ومع هذا، فهناك فرق كبير بين تولي السلطة وبين المحافظة عليها. وفي كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٧، بعد شهر فقط من انقلاب البولشفيك، وفي وقت كانت فيه قبضتهم على روسيا غير واضحة المعالم، طلب لينين من دزرشنسكي تكوين قوة أمنية لحماية الثورة الناشئة، وتوسيع نطاق سلطتها في كافة أنحاء البلاد. ومرة أخرى، تقدم دزرشنسكي بمطالب، وحصل عليها، وهي عبارة عن سلطة مطلقة لفعل ما يريد دون أي توجيه من مصدر أيًا كان. وبهذه السلطة، شرع ذزرشنسكي في تكوين جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا" وهو عبارة عن هيئة أصبحت أكثر وأوسع وأنجح منظمة استخباراتية في التاريخ. وهذا الجهاز جعل دزرشنسكي رجلاً أسطورة وواحدًا من أعظم الجواسيس في كل العصور.

وفي الأيام السوداء من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٧، كانت احتمالات ارتفاع دزرشنسكي وجهازه إلى مثل هذه المستويات مطلبًا بعيد المنال، ذلك أن جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" في لحظة تكوينه، كان يضم عددًا محدودًا من الرجال، وليس هناك له مقر، ولا سيارات أو ناقلات، ولا ميزانية، ولا تجربة سابقة، سواء على صعيد الأمن الداخلي أو العمليات الاستخباراتية. ولكن هذا الجهاز كان يملك عقل وقلب دزرشنسكي، الرجل الذي جعل الروس يعتقدون أنه وُلد جاسوسًا.

وفي حقيقة الأمر، فعلى الرغم من ماضيه الثوري، فإن دزرشنسكي وُلد في العام ١٨٧٧ لعائلة بولندية أرستقراطية ثرية، ولكنه تحول عن حياة الرغد سنة ١٨٩٧، وذلك حينما انضم، كطالب جامعي، إلى الحزب الشيوعي الاشتراكي. ولم يشرح دزرشنسكي الأسباب التي جعلته يمضي قدمًا في هذا التحول السياسي، ولكن يمكن أن تكون أسبابًا باهظة الثمن. وبعد انشغاله جاسوسًا بين الخلايا الثورية الاشتراكية في روسيا وبين المبعدين في الخارج، ألقى رجال جهاز الاستخبارات القيصري "أوخرانا" القبض عليه مرتين، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين في معسكرات الأشغال الشاقة في سيبيريا، حيث اشتغل عاملاً في مناجم الفحم.

وفي العام ١٩٠٣، حينما حدث الانقسام بين البولشفيك والمونشفيك، اتخذ دزرشنسكي قرارًا مصيريًا، ذلك أنه ألقى بكل ثقته إلى جانب البولشفيك، واجتمع إلى لينين، ونشأت صداقة حميمة بين الرجلين، وهي صداقة استمرت مدى الحياة. وما أثار اهتمام لينين بهذه الشخصية البولندية النحيفة ذات اللحية الصغيرة تلك الصفات التي تثير إعجابه في بعض الرجال: قساوة القلب، والاهتمام الأعمى بالقضية الثورية، والذكاء الحاد، والمواهب التنظيمية. كما فهم لينين، فإن هناك هاجسين تسلطا على حياة

دزرشنسكي: الاشتغال "سيفًا ودرعًا" للثورة البولشيفية، والعمل على إقامة حكومة شيوعية في بلاده بولندا.

ولكن قبل تحقيق تلك الأحلام، واجه دزرشنسكي التحدي الأعظم، وهو المحافظة على حياة الثورة البولشفية الناشئة. وكانت هناك أخطار كثيرة تعرض لها النظام الجديد: الخطر الأول هو أن روسيا، من الناحية الفعلية، كانت في حالة حرب مع ألمانيا. والخطر الثاني هو أنه كانت هناك قوات كبيرة معادية للبولشفيك تحتل أجزاء واسعة في الأراضي الروسية، وتعلن عن اعتزامها القيام بحملة عسكرية مقدسة للقضاء على البولشيفيك. والخطر الثالث هو أن الدول الغربية، التي شعرت بالقلق تجاه هدف لينين المعلن في توقيع معاهدة سلام منفردة مع ألمانيا وإخراج روسيا من الحرب، كانت تهدد علانية بالتدخل.

وفي غضون أسابيع بعد تكوين جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا"، بدأ دزرشنسكي في إقامة الدليل على مواهبه، الأمر الذي جعل زملاءه البولشيفيك يلقبونه "فيليكس الحديدي". واختار دزرشنسكي الآلاف من العمال، معظمهم من الأشداء وشبه المتعلمين، الذين يقومون بتنفيذ أبسط قواعد النظام التي يضعها رؤساؤهم: "إفعل ما تؤمر به، وإلا واجهت عقوبة الإعدام أو السجن مدى الحياة".

وصرح دزرشنسكي عندما أرسل مجموعة مسلحة للقضاء على المنشقين عن النظام البولشيفي في كافة أنحاء روسيا: "نحن نناصر الرعب المنظم". وبين ليلة وضحاها، أقام دزرشنسكي نظامًا بيروقراطيًا للاستخبارات البولشيفية، ونقل مقر قيادته من سانت بطرسبورغ (لينينغراد) إلى بناية في موسكو كانت مقرًّا لإحدى شركات التأمين. وقام دزرشنسكي بتحويل هذه البناية إلى مكاتب استخبارات وزنزانات. وأصبح موقع جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا" الجديد في شارع "لوبيانكا" واحدًا

من أقذر العناوين في كل أنحاء روسيا، ذلك أن الروس كانوا يفضلون قطع مسافة طويلة مشيًا على الأقدام بدلاً من المشي على الرصيف المحاذي لموقع البناية. وكان خوف الروس مفهومًا، وله ما يبرره، ذلك أن آلافًا من المواطنين الروس اختفوا وراء الجدران، ولم تعرف مصائرهم إلا بعد بضعة أسابيع، وذلك عن طريق ورقة حكومية صغيرة إلى عائلاتهم تفيد باتهامهم بالقيام بأنشطة معادية للثورة، وإعدامهم تبعًا لذلك.

ومع حلول الشهور الأولى من العام ١٩١٨، تمكن دزرشنسكي من تكوين نظام محكم للرقابة في البلاد، وذلك بهدف التصدي لاندفاع أي حرب أهلية أو مواجهة أي ضغوط خارجية من دول أجنبية (وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان وفرنسا أرسلت قوات لاحتلال الأراضي الروسية). وبلغت قوة جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا" حوالي ١٠٠،٠٠٠ رجل تساعدهم شبكة كبيرة من المخبرين.

وفي ظل وجود رقابة داخلية محكمة، تمكن دزرشنسكي من تحويل اهتمامه إلى بعض التهديدات الاستخباراتية الخارجية التي تواجه النظام الجديد. واختار دزرشنسكي مجموعة من ألمع العملاء في جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا" لتكوين قسم لمكافحة التجسس، وذلك بهدف متابعة السفارات الغربية العديدة باعتبارها مصادر محتملة لعمليات سرية واسعة النطاق ضد نظام لينين. واتضح في وقت لاحق أن هذا التصرف كان صحيحًا، ذلك أن الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين كانوا يتعاونون في ما بينهم على تنظيم عناصر معادية للبولشيفيك للإطاحة بنظام لينين في انقلاب مدعوم من الدول الغربية يستهدف إلقاء القبض على جميع الزعماء البولشيفيك وجعلهم يمشون في مسيرة مذلة في شوارع موسكو الرئيسية بالملابس الداخلية قبل إعدامهم.

واخترع دزرشنسكي حلاً نموذجيًا لهذه المشكلة، ذلك أنه أمر بتكوين منظمة جديدة تتألف من عناصر منشقة مزعومة، وهي عبارة عن مجموعة من الجنود اللتوانيين

الذين تولوا من قبل أمر توفير الحماية إلى لينين. وقام قائد هذه المجموعة بمفاتحة الدبلوماسيين الغربيين، وعرض عليهم وضع رجاله تحت تصرفهم. وكشفت الاجتماعات اللاحقة مع الدبلوماسيين الغربيين الغافلين عن معظم تفاصيل المحاولة الانقلابية. ومن خلال إضافة جهود عميل آخر، وهو دبلوماسي شيوعي فرنسي، تمكن دزرشنسكي من تكوين صورة متكاملة عن خطة الانقلاب، هذا بالإضافة إلى تفاصيل أخرى عن سلسلة الشبكات التابعة لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 وجهاز استخبارات وزارة الخارجية الأميركية.

وفي خريف ١٩١٨، ضرب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 ضربته. ومن خلال سلسلة من عمليات الاضطهاد، قام دزرشنسكي بإلقاء القبض على جميع العملاء والمتعاونين مع الدول الغربية، من بينهم الجاسوس الأميركي الرئيسي في روسيا، زينوفون كلاميتانو، وهو رجل أعمال يوناني - أميركي. (وأيضًا قتل أحد عملاء جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في تبادل لإطلاق النار). وكان انتصار دزرشنسكي حاسمًا: جميع عملاء الاستخبارات الغربية في روسيا، وهو أكثر من ٢٠٠ شخص، اختفوا وراء جدران لوبيانكا، وهي ضربة لم يتمكن الغرب من الشفاء منها. ولكن هذا كله كان بمثابة مقدمة محدودة لعملية رعب واسعة النطاق، وهذه العملية نشأت بعد محاولة الثوريين الاشتراكيين اغتيال لينين. ومن خلال شعوره بالغيظ تجاه محاولة الاعتداء على حياة الرجل الذي يكن له احترامًا كبيرًا، بدأ دزرشنسكي حملة أطلق عليها اسم "الرعب الأحمر". وكبداية، قام دزرشنسكي باعتقال حوالي ٥٠٠ شخص من المسؤولين السابقين في النظام القيصري، مع أن أحدًا منهم لم يكن له أي ارتباطات بمحاولة اغتيال لينين التي أسفرت عن اصابته بجروح بالغة، وأطلق عليهم النار في

الحال. وبعد ذلك، قام باعتقال الآلاف من الروس، ووضعهم في لوبيانكا. ولم يعد أحد منهم إلى بيته أبدًا.

وهذا "الرعب الأحمر" لقي موافقة تامة من لينين، حتى أنه بدأ في استخدام دزرشنسكي كرجل قادر على حل المشاكل المستعصية. ولكن كانت هناك مشكلة لم يستطع دزرشنسكي إيجاد الحلول لها، وهي مشكلة بولندا. وانطلاقًا من اعتزامهم إعادة الشعب البولندي إلى الحظيرة الروسية، قام الروس بغزو بولندا في ١٩٢٠، وأدى النجاح المبكر إلى قيام لينين بتعيين دزرشنسكي رئيسًا للسوفيات البولنديين، بهدف الإعداد لحكومة شيوعية في أعقاب الانتصار الروسي الحتمي. ولكن المقاومة البولندية تعاظمت وألحقت الهزيمة بالروس.

وعاد دزرشنسكي إلى روسيا، حيث واجه تهديدًا جديدًا جاء في هذه المرة من داخل الحكومة البولشيفية. ولم يكن جميع البولشفيك راضين عن وسائله، وربما كان أبرزهم ليون تروتسكي، رئيس الجيش الأحمر. وفي رأي تروتسكي، فإن دزرشنسكي يملك سلطات واسعة، ووجود رجل واحد يكون مسؤولاً عن الأمن الداخلي والاستخبارات الخارجية معًا يشكل سابقة خطيرة. ومن خلال محاولة لتوجيه ضربة عنيفة إلى دزرشنسكي، قرر تروتسكي تكوين منظمة استخبارات خاصة به، وأطلق عليها الدائرة الرابعة في الجيش الأحمر، ثم أطلق عليها في وقت لاحق وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU. وفي محاولة لتشكيل العناصر المكونة لهذه الوكالة، اختار تروتسكي عددًا من ضباط الجيش الواعدين، هذا بالإضافة إلى عدد من عملاء جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا". ومن بين المجموعة الأخيرة كان هناك أحد اللتوانيين الذي برهن عن مواهب فطرية في عالم التجسس، وكان اسمه جان برزين.

في ذلك الوقت، لم يكن تروتسكي يملك أي فكرة عن أهمية الدور الذي يمكن أن يقوم به برزين في تاريخ الاستخبارات السوفياتية. وجان برزين، الذي كان اسمه الحقيقي بيتر كيوزيس، كان ثوريًا طيلة سنوات شبابه. ومع حلول ١٩١٩، اعتبر واحدًا من ألمع الثوريين، ولما بلغ الثلاثين من العمر، كان واحدًا من زعماء ليتوانيا السوفياتية. ولما فشلت محاولة الزعماء فرض الثورة في ليتوانيا وفق النمط البولشفي، هرب جان بيزين إلى الاتحاد السوفياتي. وهناك اختاره دزرشنسكي للانضمام إلى جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا". وجرى الاعتراف بقدراته مبكرًا، ومع حلول ١٩٢٠، أصبح جان برزين مسؤولاً عن قسم التسجيل التابع لجهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا"، وهو القسم الذي يتولى العمليات الاستخباراتية الخارجية. وبعد عام، وعلى نحو لم يبعث على ارتياح دزرشنسكي، انتقل جان برزين إلى وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU الجديدة.

وكان برزين يتخذ موقفًا انتقاديًا تجاه الطريقة التي يدير بها جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" العمليات الاستخباراتية الخارجية، ذلك أنه لم يشعر بالارتياح تجاه اعتماده على الشيوعيين الأجانب في التجسس، وجادل بأن الشيوعيين معروفون لدى أجهزة رجال البوليس ووكالات الاستخبارات. ومن ناحية أخرى، فلم يكن برزين راضيًا عن منهج جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" في استخدام قتلة جائرين كعملاء للاستخبارات الخارجية دون تدريب. وفي رأي برزين، فإن الاستخبارات الحديثة، وبخاصة في أوروبا الغربية، تطلب استخدام عملاء متورطين قادرين على العمل تحت غطاء الاشتغال بالأعمال التجارية، أو شيء من هذا القبيل.

وكانت هناك فرصة أمام برزين للبرهنة عن صحة نظرياته في ١٩٢٤، وذلك حينما أصبح رئيسًا لوكالة الاستخبارات السوفياتية GRU. وبالنظر إلى أنه كان معروفًا

بكنيته "الرجل العجوز" بسبب رأسه الأصلع وملامح الشيخوخة المبكرة، فإن بيرزين كان شخصية محبوبة جدًا بين عملائه. وقام بتنظيم برنامج تدريب صارم، وأشرف بنفسه على تفاصيل تطبيقه. وكان صديقًا شخصيًا للكثيرين من عملائه، الذين اعتبروا برزين رجلاً ذكيًا ومبدعًا. وفي بعض الأحيان، كان بعض العملاء الذين قام برزين بتجنيدهم يميلون إلى الممارسات اللاأخلاقية في التجسس، ومن بين هؤلاء ليبا دومب، وولتر كريفيتسكي، وروث كوتشنكي، وريتشارد سورج.

ولم يكن دزرشنسكي يشعر بالارتياح تجاه ظهور وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU، ومنافستها لجهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا"، وهي منافسة استمرت لفترة طويلة لاحقة واستنزفت كل طاقة بيرزين في غاية الأمر. وفي هذه الأثناء، كان دزرشنسكي منهمكًا في متاعبه السياسية الخاصة به، ذلك أن "الرعب الأحمر" الذي أوجده جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" بدأ في التسبب بحدوث تفاعل بين الشعوب السوفياتية، الأمر الذي حمل لينين على كبح جماح دزرشنسكي. وكان دزرشنسكي في ذلك الوقت يعاني من السل الرئوي المزمن، ومات بسببه في ١٩٢٦.

ومع حلول ١٩٣٦، وبينما كان برزين مكلفًا في مهمة إلى إسبانيا لإدارة العمليات الاستخباراتية السوفياتية في الحرب الأهلية الإسبانية، أصبحت وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU سابقة على جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" من حيث الأهمية. (أطلق على جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا" في ما بعد بعد اسم جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB). ونتيجة لذلك، أصبحت العلاقات بين وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU وبين جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB متأزمة. وكان برزين لديه أعداء في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، وعلى رأسهم النجم الناهض، لافنتري بيريا، الذي كان مقربًا من ستالين. وفي ١٩٣٧، جرى استدعاء

برزين إلى موسكو "للتشاور"، ولما طلب زملاؤه في وكالة الاستخبارات السوفياتية GRU الهروب، قال برزين مستسلمًا: "يمكنهم أن يطلقوا علي النار هنا، ويمكنهم أن يطلقوا علي النار هناك". وذهب برزين إلى موسكو، وبعد ساعة من وصوله، أطلقوا عليه النار في بناية لوبيانكا.

وهكذا، بقي على التاريخ أن يصدر حكمه على اثنين من أعظم الجواسيس الذين أنجبهم الاتحاد السوفياتي: برزين، بعد إطلاق النار عليه، أصبح شيئًا مهملاً، ولم يذكر التاريخ اسمه إلا بعد موت ستالين في ١٩٥٣، حينما تقرر إحياء ذكراه كواحد من أعظم الجواسيس السوفيات، ودزرشنسكي، الواقع بالقرب من بناية لوبيانكا، ولكن في أواخر ١٩٩١، أصدر الشعب الروسي حكمه النهائي عليه، حينما جروا تمثاله الكبير إلى ساحة الخردة[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ (مكتبة مدبولي،١٩٩٩) ص٢٨٠ ـ ٢٨٨.

جان كارلوفيتش برزين وريشار سورج

ضمن العشرين صورة الخاصة بأبطال الاستخبارات السوفياتية المعلقة على جدران صالة الشرف في المديرية الأولى، هناك واحدة فقط ليست لضباط من الـ K.G.B. والمقصود الجنرال "جان كارلوفيتش برزين"، آمر مفرزة من الـ" "تشيكا" خلال كل الحرب الأهلية، والأكثر شهرة كقائد، من العام ١٩٢٩ حتى العام ١٩٣٥، لدوائر الاستخبارات العسكريّة السوفياتية: في الدائرة الرابعة في قيادة الأركان العامة أوّلاً، ثمّ في وكالة الاستخبارات السوفياتية العسكرية CRU.

وُلد برزين في ليتونيا Lettonie عام ١٨٩٠، التحق بالثوار السريين عندما كان لا يزال يافعًا، وتعرض للسجن مرارًا وللأعمال الشاقة في سيبيريا. وفي عام ١٩١٩، خدم في الحكومة الليتونية السوفياتية المؤقتة. وفي غضون سنواته الأولى في الاستخبارات العسكرية، فإن أقرب مساعديه، والذين كان لهم مسارات مشابهة، عُرفوا باسم "القسم الليتوني"، وبالطريقة ذاتها فإن ضباط دزرجنسكي الأساسيين أشير إليهم على أنهم "القسم البولوني". في عام ١٩٣٥، أرسل برزين في مهمة لحساب الجيش الأحمر في الشرق الأقصى، ثم استدعي في آب ـ أغسطس عام ١٩٣٦ ليصبح رئيس البعثة العسكرية السوفياتية لدى الحكومة الجمهورية الإسبانية. وبعد ذلك بسنة، تلقى الأمر بالعودة إلى روسيا إبّان الرعب الكبير وتمّت تصفيته.

يدين برزين بشهرته إلى المديرية الأولى العامة للتجسس PDG، وهي فرع من الـ KGB، وذلك لمشاركته في عملية توسيع جمع المعلومات حول الخارج من ناحية اعتراض وفك الرموز وناحية عملاء التسلل. وفي بداية ثلاثينات القرن العشرين، ساهم بإنشاء وحدة للاعتراض وفك الرموز، التي تشكلت من المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU ومن المديرية الرابعة داخل الفرع الخاص Spets Otdel للـ OGPU بقيادة "غلوب بوكي"، ومن الـ OGPU، ومع الكولونيل "ب. خاركفيتش" من المديرية الرابعة كمساعد. وكان ذلك من أجل الإمساك بالإصغاء المدني والعسكري معًا. وكانت الوحدة الأكثر سريّة من بين وحدات الـ OGPU. وحتى عام ١٩٣٥ كانت هذه الوحدة متمركزة ليس في لوبيانكا بل في بناء مفوضية الشعب للشؤون الخارجية على جسر كوزنتسكي. وحسب "إيفدوكيا كارتسيفا" وفي ما بعد "بتروفا"، التي التحقت بالوحدة عام ١٩٣٣، كان لدى الكادر الأمر المحدد بأن لا يعطي عنوانه إلى أي شخص، وحتى إلى الأهل... ومثل كل النساء الشابات في الوحدة، عاشت كارتسيفا في خوف من رئيسها...

كان بوكي يسير منحني الظهر واعتاد بغرابة ارتداء المشمَّع كل السنة. وتقول كارتسيفا: "كانت عيناه زرقاوتين جامدتين وثاقبتين... تمنحان الآخرين الشعور بأنه يكره مجرد رؤيتهم". ومع أنه بلغ الخمسين من عمره، فقد كان بوكي يتفاخر بمآثره الجنسيَّة... وكان يرتِّب بانتظام عمليات عربدة مع عطلة نهاية الأسبوع في شقته. وعندما استعلمتِ كارتسيفا عن الحفلات لدى أحد زملائها، أجابها: "إذا تكلمت في هذا الموضوع مع أي إنسان، سيجعل حياتك لا تحتمل. إنك تلعبين بالنار".

عاشت كارتسيفا في خوف من أن تكون ضيفة شقة بوكي... وخلال عملها الليلي، وعندما كانت تشعر أنها الأشد ضعفًا، كانت ترتدي "ثيابها الأكثر بساطة والأقل

انشراحًا خوفًا من جذب انتباه لا ترحب به". ورغم الفساد الشخصي لرئيسها، فإن الوحدة المختلطة من OGPU ومن المديرية الرابعة كانت الأكثر أهمية في العالم والأفضل تجهيزًا بوكالات اعتراض وفك الرموز. واستفادت بشكل خاص من معونة تجسسية كلاسيكية متقدمة بما لا يقاس عن أيّ وكالة عسكرية غربيّة. إن أكثرية الوكالات باستغلالها المعلومات المقدمة من العملاء اكتسبت من وقت لآخر مواد مرمزة، إنما وخلال الثلاثينات، فإن الـ OGPU وحدها والمديرية الرابعة، وعلى أساس الخط المرسوم من قبل الأوخرانا قبل الثورة، منحت ما اكتسب همها الأكبر.

خلال السنوات الأولى من حياة الوحدة المختلطة لاعتراض وفك الرموز، فإن عمليات الاعتراض التي كان لها التأثير الأكبر على السياسة السوفياتية أثرت كذلك على اليابان. عاملة في القسم الفرعي الياباني للوحدة، اكتشفت ايفدوكيا بتروفا أن أمن مواد الشيفرة اليابانية يحققه العملاء... ومن بين هؤلاء، كان هناك وعلى مدى الثلاثينات، أعضاء من السفارتين اليابانيتين في برلين وبراغ...

أما السبب الأهم لشهرة برزين، إن كان في KGB أم في GRU "وكالة الاستخبارات العسكرية السوفياتية"، فهو تكيفه مع تقنيات التسلل التي طورتها الـ OGPU في العشرينيات، وبشكل أساسي ضد الهجرة البيضاء، أو تقنيات التسلل إلى المؤسسات الأجنبية ودوائر الاستخبارات في الثلاثينات. وحسب التاريخ السري الذي أعد للاحتفاء بالذكرى الستين لولادة فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO عام ١٩٨٠، فإن هذه الاستراتيجية المعدة بمناسبة النقاشات بين برزين وأرتوزوف،

---

١ - Petrov Vladimir et Evdokia, *Empire of Fear,* André Deutsch (London,1956), pp. 129-131.

ومسؤول الـ INO وبياتنيتسكي مسؤول مكتب الكومنترن الغربي OMS ــ فرع الاتصال، يبدو أن برزين ترأس هذه النقاشات. وفي بداية الثلاثينات، بقيت أهداف فرع تشيكًا للاستخبارات الأجنبية INO في مجال التسلل تتمثل بالبيض، الملاحقين كذلك من التروتسكيين. وكان برزين الأكثر اهتمامًا باستخدام عملاء تسلل لجمع معلومات أجنبية. ومع ذلك فقد تابعت المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU والهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD عمله بعناية. وقد تشابكت مسؤوليات المديرية الرابعة والـ OGPU ـ NKVD مرارًا في الثلاثينات. فقد جمع عملاء المديرية الرابعة معلومات سياسية أكثر من تلك العسكرية. أما الـ OGPU ـ NKVD فجمعت غالبًا معلومات عسكرية أقل من المعلومات السياسية. وكلتاهما استخدمتا بصورة متزايدة شبكات مكتب الكومنترن الغربي OMS الاستخبارية.

وكان عميل التسلل لدى برزين والذي عرف النجاح أكثر من غيره هو "ريشار سورج" الذي سيم في العام ١٩٦٤، أي بعد عشرين عامًا على وفاته، بطلاً للاتحاد السوفياتي. وكرست له سلسلة من السير الذاتية الرسمية المليئة بالإطراء ـ وشيء نادر بالنسبة لعميل أجنبي ـ إصدار طوابعي خاص.

عندما وصل سورج إلى الفرع الرابع عام ١٩٢٩، أذهل عميل الكومنترن هيد ماسّينغ بـ "مظهره الأخاذ" واصفًا إياه "كعلاّمة رومانسي ومثالي"، مليء بالسحر: "لعينيه زرقة زاد صفاؤها، كعيون المغول قليلاً، بحواجب كثيفة، ميزته أنه يبدو لاهيًا دون سبب".

---

١ - Massing Hede, *This Deception*, Ivy Books (New York,1987), p. 59..

كان سورج المولود في القوقاس عام ١٨٩٥ إبنًا لألماني عمل في البترول، وهو برأيه "قومي تمامًا وإمبريالي" ومن أم روسية. أنهى دراسته في برلين، جُرح في إحدى معارك الحرب العالمية الأولى، فقد أوهامه من جرّاء "عدم جدوى" الخراب الذي سببه الصراع والتحق بالجناح الثوري للحركة العمالية. وقد أقنعته الثورة البلشفية "ليس فقط بتقديم الدعم النظري والإيديولوجي للحركة بل وبالمساهمة فيها بشكل فعّال".

نال بعد الحرب دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هامبورغ واشتغل كمناضل شيوعي. ومع نهاية العام ١٩٢٤، التحق بموسكو، وبدأ العمل لصالح مكتب الكومنترن الغربي OMS مع بداية العام ١٩٢٥ وحصل على الجنسية السوفياتية. ومن عام ١٩٢٧ حتى العام ١٩٢٩، أرسله OMS في سلسلة من مهمات الاستخبارات في ألمانيا، وكما أكد في ما بعد، إنكلترا واسكندينافيا.

وفي تشرين الثاني - نوفمبر من العام ١٩٢٩، جنده الجنرال برزين شخصيًا في المديرية الرابعة، مع أنه بقي كذلك على علاقة بـ بياتنيتسكي والـ OMS. وكانت مهمته الأولى هي الاهتمام بشبكة تجسس في شنغهاي منتحلاً شخصية صحافي ألماني. وهناك جنّد صحافيًا يابانيًا أصبح في ما بعد عميله الأكثر أهمية، إنّه "هوتسيمي أوزاكي"، شاب مثالي ماركسي من عائلة غنية، تهيأت له علاقات ممتازة مع الحكومة اليابانية.

في كانون الثاني - يناير عام ١٩٣٣، عاد سورج إلى موسكو، وتلقى تهنئة برزين بالذات على عمله في شنغهاي. أما تعيينه، الأهم بما لا يقاس، فكان في طوكيو. وفي طريقه إليها، مر في ألمانيا وبقي فيها عدة أشهر، موطدًا انتحاله شخصية صحافي، منصبًا نفسه عضو شرف في الحزب النازي - وحضر الدكتور غوبلز بنفسه عشاء وداعه في برلين. وبوصوله إلى طوكيو في أيلول - سبتمبر عام ١٩٣٣، توصل ببراعة وسرعة إلى اكتساب رضى السفير الألماني. وقد تباهى بذلك، بعد توقيفه، أي

بعد هذا التاريخ بثماني سنوات: "إن كوني ترددت بنجاح على السفير الألماني في اليابان واكتسبت ثقة عناصر السفارة بشكل كامل... كان قاعدة منظمتي في اليابان... وحتى في موسكو، فإن كوني تسللت حتى إلى قلب السفارة واستخدمت ذلك في نشاطي التجسسي اعتُبر مدهشًا للغاية، ودون مثيل في التاريخ"...

وقد نسي سورج أن هناك عدة اختراقات أخرى لا تعتبرها موسكو أقل "روعة". ورغم ذلك فشبكته هي التي قدمت أفضل المعلومات حول السياسة الألمانية واليابانية والمأخوذة من مصادر إنسانية.

وخلال القسم الأكبر من السنوات الثماني التي أمضاها سورج في طوكيو، اعتبر الكرملين اليابان الخطر الأساسي الذي يهدد الاتحاد السوفياتي. لقد دمرت الأزمة الكبرى في بداية ثلاثينات القرن العشرين جذور الديمقراطية الطرية في اليابان. وبرأي أكثرية العسكريين اليابانيين، فإن الرد الوحيد على المسائل الناجمة عن الجمود الاقتصادي هو حكومة قوية في الداخل وتوسع في الخارج. لقد خلفت الأزمة مناخًا معينًا ساد الرأي العام ومكّن الجيش من التخلص من وصاية السياسيين والحصول على الدعم الشعبي خدمة لطموحات العسكريين في ضم الأراضي. وفي أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٣١، فجّرت الفرق المتمركزة قرب سكة الحديد في جنوب منغوليا، والتي كانت تمتلكها اليابان، جزءًا من الخط، وأدانت الحكومة الصينية على هذا العمل. واستخدمت ما راح يعرف باسم "حادث منغوليا" حجة لتباشر احتلال هذه المنطقة. ثمّ وافقت الحكومة اليابانية على حل قدمته عصبة الأمم تدعوها فيه لسحب فرقها، غير أنّه بمواجهة الحماس الشعبي الوطني الذي كان يجتاح البلد، ظهر رجال السياسة عاجزين عن فرض إرادتهم على الجيش. وفي بداية عام ١٩٢٢، أوجد الجيش الدولة الدمية في منغوليا ونصب عليها زعيمًا إسميًا

هو آخر أباطرة سلالة ماندكو. وبذلك أشرفت اليابان على منطقة طويلة متاخمة لحدود الاتحاد السوفياتي.

حتى حوالى العام ١٩٣٥، كانت موسكو تنظر إلى ألمانيا كتهديد عسكري أقل خطرًا من اليابان. وخلال عدة سنوات، شهدت صعود النازية بهدوء يقارب المراعاة، معتبرة إياها علامة احتضار الرأسمالية الألمانية وليس إنذارًا بحرب غزو نحو الشرق. وفي الوقت الذي أصبح فيه هتلر مستشارًا في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٣٣، راح الكومنترن يضغط على الشيوعيين الألمان لكي يصوبوا نيرانهم نحو اليسار، على العدو الاشتراكي ـ الديمقراطي، وليس على العدو النازي اليميني. ومع أن ماكسيم ليتفينوف، مفوض الشعب للشؤون الخارجية، احتج على "الأفكار المتطرفة في معاداتها للسوفيات" لدى النظام النازي في تقرير عام عن السياسة الخارجية السوفياتية عند نهاية العام ١٩٣٣، فهو يشير إلى أن التهديد الأساسي لم يزل مصدره اليابان. وفي الأعوام التالية، ارتكزت السياسة الخارجية السوفياتية تجاه اليابان وألمانيا، وكذلك مثيلتها السياسة الغربية، على التهدئة. وكانت الأفضلية لتفادي الحرب مع كليهما[1].

مع وصوله إلى طوكيو في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٣٣، تلقى سورج الأمر "بدراسة دقيقة جدًا لمسألة معرفة هل تنوي اليابان مهاجمة الاتحاد السوفياتي". وكتب بعد توقيفه، بعد ذلك بثماني سنوات: "كانت تلك ولسنوات عديدة المهمة الأكثر أهمية بالنسبة لي ولمجموعتي؛ ولن يكون من الخطأ القول أنّ في ذلك يكمن الهدف الوحيد لمهمتي في اليابان... مقدّرًا الدور الرفيع والموقف الذي يتبناه العسكريون اليابانيون في السياسة الخارجية. بعد حادث منغوليا، راح الاتحاد السوفياتي يرتاب بشدة في أن

---

١ - Adam B., *Expansion and Coexistence: Soviet Foreign Policy 1917-1973,* Holt Ulam - Rinechart (New York,1974) pp. 200-208.

تباشر اليابان مهاجمة الاتحاد السوفياتي، وقد بلغت شدّة ذلك الارتياب أن أصبح رأيي الذي عبّرت عنه مرارًا، والذي لم يخالطه هذا الارتياب، لم يكن دائمًا موضع اهتمام وتقدير كافٍ في موسكو".

وإذا كان القلق السوفياتي من هجوم ياباني مبالغًا فيه، فهو لم يكن يفتقر إلى أساس. فقد كان الجيش الياباني مقسومًا منذ عدة سنوات بين زمرتين متنافستين، الكودو - ها Kodo-ha، التي تنادي بالحرب مع روسيا، والتوسي - ها Tosei-ha الأقل ميلاً للمغامرة والتي كانت طموحاتها تنصب على الصين. واقتضى انتظار العام ١٩٣٦، أي بعد انقلاب الكودو - ها الفاشل، إذِ انتصر التوسي - ها تمامًا على منافسيه. مذ ذاك، عاد الغرب يطلب من اليابان عدم التدخل في الصين مثله في ذلك مثل "الرجل الذي ينصح آخر بعدم الزواج من امرأة حامل منه" على حد قول وزير الحرب الياباني. وعندما باشرت إمبراطورية الشمس الصاعدة حربًا مفتوحة في تموز - يوليو من العام ١٩٣٧، كان قد سبق لها وأحكمت مراقبتها المباشرة على القسم الأساسي من الشمال الشرقي الصيني[١].

وفي العام ١٩٣٥، عندما رأى هيد ماسينغ ثانية سورج لأول مرة منذ العام ١٩٢٩، وجده وقد تغير بسبب إقامته في الصين واليابان. ومع انه احتفظ "بمظهره المدهش"، فقد بقي مخلصًا للشيوعية، أما ما كان يتمتع به من سحر التبحّر الرومانسي والمثالي فقد تلاشى". وقد وصفه صحافي ياباني على شاكلة "نازي نموذجي، مدعٍ ومتغطرس...، يستشيط بسهولة، سكيرًا كبيرًا"... وهي صورة ساعدته على اكتساب

---

١ - Richard Storry, *A History of Modem Japan, Penguin Books* (Hardmondsworth,1960)

ثقة السفارة الألمانية. أما اتصالاته الأسهل داخل السفارة فكانت مع الكولونيل "أوجن أوت Eugen Ott" الملحق العسكري منذ آذار ـ مارس عام ١٩٢٤ وزوجته التي كان له معها علاقات متنوّعة. وكان يمرّ بين يدي سورج الجزء الأكبر من المعلومات حول القوى المسلحة اليابانية والخطط العسكرية التي يرسلها أوت Ott إلى برلين. وكذلك العديد من الملفات التي تتلقاها السفارة حول السياسة الألمانية في الشرق الأقصى. وقبل ذلك عندما وُعِد الكولونيل بمنصب سفير في نيسان ـ إبريل العام ١٩٣٨، كان سورج قد اعتاد أن يتناول كل صباح فطوره معه، فيحدثه بالشؤون اليابانية ويحرر أول دفعة من تقاريره إلى برلين. وكان العضو الأهم في شبكة سورج، أوتسيمي أوزاكي، قد وسّع من اتصالاته مع مراكز القرار في السياسة اليابانية، وذلك بصفته عضوًا في هيئة الخبراء التابعة لرجل الدولة الأول في البلد. الأمير كونو Konoe.

مع نهاية العام ١٩٣٥، استطاع سورج تصوير ملفٍّ في الاستقبالية[1] يفيد بعدم وجود احتمال مباشر لهجوم ياباني ضد روسيا. وسورج هذا بالذات استطاع أن يستشرف بدقة غزو الصين في تموز ـ يوليو من العام ١٩٣٧ وكرر تأكيده الذي يرى فيه عدم وجود خطة لغزو سيبيريا...

يتضمن المدح السوفياتي لسورج كله تشويهات متعمدة لم تكن قد توضحت دائمًا في الغرب. وفي الحقيقة، فقد استخدمت تقاريره عادة لإخفاء نجاحات المخابرات السوفياتية في موضع اعتراض وفك الرموز، وهو الشكل من الاستخبارات الذي لا يجب ذكره في الاتحاد السوفياتي حتى في عهد الغلاسنوست. حتى أنه قد تكون

---

١ ـ الاستقبالية La prospective: علم يدرس الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي تدفع تطور العالم العصري والتنبؤ بالأوضاع التي يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأسباب.

عمليات اعتراض وفك الرموز المنصبة على اليابان مصدرًا للمعلومات أكثر أهمية من سورج. فالملف الذي أيقظ أكثر من غيره المخاوف من هجوم ياباني كان على الأرجح برقية محلولة مرسلة من الملحق العسكري الياباني في موسكو، الليوتنان كولونيل "يوكيو كازاهارا"، المؤيد لزمرة كودو ـ ها، إلى قيادة أركانه في آذار ـ مارس عام ١٩٣١، قبل ستة أشهر من "حادث منغوليا" وقبل أكثر من سنتين من وصول سورج إلى طوكيو: "سيكون قدر اليابان المحتوم محاربة الاتحاد السوفياتي، عاجلاً أم آجلاً. ستأتي هذه الحرب اليابانية ـ السوفياتية عاجلاً، وهذا أفضل لنا. علينا أن نعي أن كل يوم يمر يعزز موقف الاتحاد السوفياتي. بالاختصار، أتمنى أن تقرر السلطات حربًا خاطفة مع السوفيات وتتخذ الإجراءات اللازمة".

من الواضح أن موسكو كانت تخشى أن لا يكون "حادث منغوليا" المقدمة لهجوم ضد الذي يدافع عنه كازاهارا. وقد عززت مخاوفه ملاحظات هيراتا، سفير اليابان في موسكو، التي قدمها لجنرال ياباني زائر، ملاحظات مبوبة في برقية يابانية أخرى، جرى فك رموزها: "تاركين جانبًا مسألة معرفة هل على اليابان أن تحارب السوفيات أم لا، لا بد من تبني سياسة أكثر قسوة تجاه الاتحاد السوفياتي، كوننا صممنا على ضربه في كل مرة يصبح ذلك مناسبًا. وعلى كل حال لا يجب أن يكون الهدف القادم هو الدفاع عن أنفسنا ضد الشيوعية بل بالأحرى احتلال سيبيريا الشرقية"...

وخلال شتاء ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ عاشت موسكو رعبًا حقيقيًا إزاء احتمال حرب يابانية. وقد وبخت أمانة سر الكومنترن بشدة الرفاق الأجانب كونهم لم يستوعبوا "الصلة الوثيقة بين الهجوم الياباني في منغوليا والتحضير لحرب كبرى ضد السوفيات". وفي شباط ــ فبراير من العام ١٩٣٢، طلبت عملاً مباشرًا من الأحزاب الأعضاء لتخريب إنتاج السلاح المخصص لليابان والشحنات

البحرية المتوجهة إلى هذا البلد: "فالمطلوب تعبئة حاسمة للجماهير، وبشكل أساسي ضد نقل السلاح والذخائر المشحونة إلى اليابان في أي قطار رأسمالي وانطلاقًا من مرافئ كل بلد رأسمالي".

وقد بلغ ذعر موسكو حدًا جعلها تعلن في آذار ـ مارس ١٩٣٢ عن امتلاكها لوثائق تتضمن خططًا لمهاجمة الاتحاد السوفياتي واحتلال أراضيه. كما نُشرت مقتطفات من البرقيات اليابانية التي تكشف عن نداء كاساهارا إلى "حرب سريعة" ودعوة هيروتا لاحتلال سيبيريا.

إن تصميم موسكو على نشر برهان مسرحي عن التهديد الياباني ناجم، على الأقل في جانب منه، عن كونها تعرف أن اليابانيين سبق وأُبلغوا أن كوداتهم الدبلوماسية وشيفراتهم قد تم اختراقها تمامًا. وفي عام ١٩٣١، نشر "محطم الكودا" الأميركي "هربرت ياردلاي Yardlay" مذكرات مثيرة كاشفًا أن الغرفة السوداء الأميركية سبق لها أن حلت رموز المراسلات الدبلوماسية اليابانية.

في ربيع العام ١٩٣٢، تم تعيين كازاهارا على رأس الشعبة الروسية في الفرع الثاني من قيادة الأركان اليابانية، كازاهارا الذي كانت دعوته إلى "حرب خاطفة" قد نبّهت موسكو كثيرًا قبل ذلك بعام. أما خلفه بمهمات الملحق العسكري في العاصمة السوفياتية "توراشيروا كاواب"، فكان يدعم كذلك زمرة كودو ـ ها، وعرض على طوكيو أن الحرب أصبحت "محتومة". ورد كازاهارا بأنه تم إنجاز الاستعدادات العسكرية: "لقد أصبحت الحرب ضد روسيا ضرورة لليابان وذلك بهدف منغوليا". وخلال السنوات التالية، أصبحت أولوية الأولويات لدى خبراء الرموز السوفيات وكذلك لدى شبكة تجسس سورج هي تقييم خطر هجوم ياباني، لا يجب أن يحصل أبدًا.

وربما كان أكبر نجاح حققته الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD في مجال اعتراض وفك الرموز في أواسط الثلاثينات هو اعتراض المحادثات الطويلة الجارية في برلين بين "ريبنتروب" والملحق العسكري الياباني، الذي أصبح في ما بعد سفيرًا، الجنرال "هيروتسي أوشيما"... هذه المحادثات التي توصلت إلى اتفاق معاد للكومنترن بين ألمانيا واليابان والمعلن عنه رسميًا في ٢٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٣٦. أمّا السفارة الألمانية في طوكيو التي كان يشاركها سورج بأكثرية أسرارها، فكانت على صلة بعيدة وواهية بتطور المحادثات. وبفضل اعتراض وفك الرموز، كانت موسكو على علم بمجريات الأمور أكثر منها... وخلال صيف العام ١٩٣٦، دخل عميلٌ من برلين مرتبط بوالتر كريفيتسكي، مندوب الـ NKVD في البلاد المنخفضة، على الملفات الخاصة بالمحادثات الألمانية اليابانية وكذلك على كودا السفارة اليابانية. وقد اغتبط كريفتيتسكي إذ إنّه "وعلى هذا الأساس، راحت تسقط كل المراسلات بين الجنرال أوشيما وطوكيو بانتظام بين أيدينا"... فالبرقيات بين طوكيو وسفارتها في موسكو، التي تحلّها الوحدة المختلطة لاعتراض وفك الرموز ـ NKVD المديرية الرابعة ـ كانت، ولا ريب، مصدر استعلام إضافي حول تقدم المحادثات.

يلحظ نص الاتفاق المضاد للكومنترن المنشور ببساطة تبادل معلومات حول نشاطات الكومنترن وتعاونًا بخصوص الإجراءات الوقائية. ويضيف بروتوكول سري أنه عندما يصبح أحد الموقعين "ضحية هجوم سوفياتي غير معلن أو تهديدٍ بالهجوم"، فإن الفريقين يتشاوران مباشرة حول ما يجب عمله، ويمتنع أي منهما عن القيام بما من شأنه "تسهيل الموقف السوفياتي" ـ صياغة ملتوية كان من السهل على الكرملين التنبؤ من خلالها بأسوأ النوايا. وبعد ثلاثة أيام فقط من إعلان الاتفاق، أعلن ليتفينوف، مفوض الشؤون الخارجية أمام مؤتمر للسوفيات: "وكذلك بالنسبة للاتفاق الياباني

الألماني...، ليس المقصود سوى تغطية اتفاق سري آخر متزامن معه نوقش وربما وقّع، إنما لم يجر الإعلان عنه وقد وضع على هذا الأساس. وأعلن، وبكل جدية، أنه ومن أجل إيضاح هذا الملف بالذات... والذي لم تذكر فيه حتى كلمة شيوعي، تم تخصيص الخمسة عشر شهرًا من المحادثات بين الملحق العسكري الياباني والدبلوماسي الألماني فوق العادة"..

لم يكشف ليتفينوف مصدر معلوماته حول البروتوكول السري، غير أن خطابه تضمن تلميحًا طريفًا لحل الرموز إذ قال: "وليس غريبًا أن الكثيرين هم على يقين من أن الاتفاق الياباني الألماني حُرِّر بكودا خاصة حيث تعني الشيوعية شيئًا مختلفًا تمامًا عن المعنى الذي يعطيه لها القاموس، وأن العملاء يحلّون هذه الكودا بطرق مختلفة". ومقابل المساعدة التي قدمها للسوفيات في مجال اعتراض وفك الرموز فقد رُشِّح كريفيتسكي لنيل وسام لينين. ولم يكن قد تلقى بعد وسامه عندما تغيب عن موعده مع الخريف القادم...

إن نجاح الوحدة المختلطة لاعتراض وفك الرموز التابعة للـ OGPU / المديرية الرابعة في اكتشاف الكودات الدبلوماسية والشيفرات البريطانية خلال الثلاثينات، مدين بالكثير للمعونة المقدّمة من الجاسوسية. إن أول اختراق لوزارة الخارجية البريطانية Foreign office من قبل الهيئة الشعبية للعمل الخارجي نجم عما يسمى في لغة الاستخبارات بالمباشر Walk-in. ففي عام ١٩٢٩، توجه موظف في شيفرة إدارة الاتصالات التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، هو "إرنست هولواي أولدهايم" الذي كان يرافق حينها بعثة تجارية بريطانية في باريس، إلى السفارة السوفياتية وقدم نفسه باسم "سكوت"، وطلب مقابلة الملحق العسكري. وقد استُقبل في الواقع من قبل ضابط في الـ OGPU، هو "فلاديمير فوينوفيتش" الذي قدم نفسه على أنه "الميجر فلاديمير"،

أعلن أولدهايم أنه يعمل لحساب وزارة الخارجية البريطانية وأن بحوزته شيفرة دبلوماسية بريطانية وأنه يطلب مقابلها ألفي دولار. أخذ فوينوفيتش الشيفرة ودخل غرفة مجاورة حيث صوّرها... متخوفًا من إثارة ممكنة، عاد إلى الغرفة حيث كان أولدهايم ينتظر، متصنعًا النقمة، رمى له الشيفرة في وجهه، ووصفه بالنصّاب وأمره بمغادرة السفارة...

وسرعان ما لاحظ محللو فك الرموز في الوحدة المختلطة أن شيفرة أولدهايم كانت صادقة. وقد لام المركز في موسكو فوينوفيتش لعدم إعطائه المبلغ لِسكوت الذي كان قد دوَّن عنوانًا مغلوطًا ولم يتمكن أحد من أن يعثر ثانية على أثر له. واقتضى الأمر أن يقوم هانس غالّيني، العميل غير الشرعي من الـ OGPU في هولندا، والمعروف من قبل عناصره بـ"هانس"، ببحث جاد ودؤوب للتعرف على أولدهايم في لندن العام ١٩٣٠. فقد التقى به غالّيني في أحد الأمسيات في شارع كرومويل رود Road، بينما كان عائدًا من عمله، توجه إليه باسمه وتناول معه حديثًا مختصرًا معدًا سلفًا: "آسف أننا لم نلتق في باريس. أنا على علم بالخطأ الكبير الذي ارتكبه الميجر فلاديمير. فقد تم استبعاده حينها عن مهامه وعوقب. وقد قَدِمْتُ لأرد لك ما هو حق لك". وأوْدَع غالّيني في الحال مغلفًا في يد أولدهايم، واجتاز الشارع مختفيًا وسط حشد من اللندنيين العائدين إلى بيوتهم. وعند ملاحظة المارة لتأثر أولدهايم، الذي بدا مزعوجًا، مترنحًا، سارعوا لعرض مساعدتهم عليه. وتمتم أولدهايم بكلمات شكر مرتبكة وتمالك ثم تابع طريقه. عند وصوله إلى بيته فتح المغلّف فاكتشف بأنه يضم ألفي دولار وكذلك تعليمات عن موعد لاحق مع غالّيني الذي كان متيقنًا تقريبًا أنَّ أولدهايم سيتوجه إلى هذا اللقاء بنية قطع الصلة مع الـ OGPU. غير أن غالّيني أقنعه بأن يقبل المال وأن يقدم معلومات أخرى حول شيفرة وزارة الخارجية البريطانية، وحول الإجراءات

الأمنية وحول زملائه في دائرة الاتصالات. ومع أن العميل السوفياتي جدَّ في تشجيع أولدهايم مصطحبًا إياه وزوجته إلى مطاعم كبرى، فإن التوتر الناجم عن حياته المزدوجة أصبح تدريجيًّا عنيفًا جدًّا. وفي أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٣٣، وجد أولدهايم فاقد الوعي مطروحًا في أرض مطبخه داخل منزله الكائن في البومبروك ثماردن. وتم نقله إلى المستشفى. غير أن الموت عاجله قبيل وصوله. وأثبت التحقيق أنه انتحر، "اختناقًا بالغاز" كما وأشار إلى "اختلالٍ عقلي". حينها عاد غالّيني إلى اليابسة.

إستخدمت المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU المعلومات التي قدمها أولدهايم حول ملاك دائرة الاتصالات كأساس لعملية تجنيد جديدة. فتم إرسال "عنصرين غير شرعيين" إلى جنيف، حيث يعمل هناك عدة زملاء لأولدهايم في الشيفرة ضمن البعثة البريطانية وفي هيئة الأمم. وقد أبدى أحد هذين العنصرين، وهو بحار روسي سابق عاش في الولايات المتحدة، من الغباوة مما جعل البعثة اللندنية ترتاب من كونه جاسوسًا سوفياتيًا. وأما الآخر فهو هنري ـ كريستيان (هان) بيّك، فنان هولندي مرح وقد نجح إلى حد بعيد إذ كان يقاتل عن إيمان من أجل الكومنترن. وقد تعامل على التوالي مع هانس غالّيني (الذي تعامل مع أولدهايم)، ثم مع اينباك بورتسكي الذي تمت تصفيته عام ١٩٣٧، ثم مع "تيودور مالي". وتحت إدارتهم، حصّل بيّك، مستخدمًا سحره، نتائج رائعة جدًا كونه شخصية شعبية معروفة للغاية في أوساط واسعة من الضباط والصحافيين البريطانيين. فقد كان يدعو إلى بيته في هاي Haye عدة موظفين في الشيفرة، يغمرهم بكرمه ويمنحهم المال...

أما الرجل الذي حوفظ عليه كالسابق، والذي أفسح مجالاً أفضل لتجنيد ما، فكان الكابتن جون هربرت كنغ، الذي التحق بدائرة الاتصالات "كعميل موقت" عام ١٩٣٤

(وهذا المركز لا يعطيه الحق بأي معاش)... وبما أن زوجته هجرته، فقد كانت له عشيقة أميركية، وكان صعبًا عليه أن يعتاش بمعاشه المتواضع. وقد تعهده بيْك بالكثير من الصبر دون الفطنة. وفي يوم من الأيام، اصطحب بيْك وزوجته كنغ وعشيقته إلى إسبانيا وساعدهم في قضاء عطلة باذخة في أفضل الفنادق. وفي ما بعد، اضطرت السيِّدة بيْك لأن تصف هذه العطلة "بالعذاب الحقيقي"، أما كنغ وعشيقته فوجداها "مثيرة للضجر بشكل مخيف"... لم يَقُمْ هان بيْك بأية محاولة لتجنيد كنغ، منتظرًا أن يعود إلى دائرة الاتصال في وزارة الخارجية البريطانية عام ١٩٣٥. وقد زاره حينها في لندن، وحتى هناك، أخفى صلاته بالهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. وروى لكنغ أن مصرفيًا هولنديًا يتمنى بحرارة أن تهيأ له معلومات من الداخل حول العلاقات الدولية وأنه مستعد ليدفع لهما مبالغ طائلة. فوافق كنغ.

لكي يجهّز نفسه بخلفية شرعية في إنكلترا، اقترح بيْك على أحد العاملين بتجهيز المحلات الإنكليزية، وهو "كونراد بارلانتي"، وكان قد التقى به بواسطة العاملين في الشيفرة، أن يشترك معه في عمل في أعمال الديكور، على أن يقدم هو رأس المال. أعطى بارلانتي موافقته، واتخذ الرجلان منزلاً لهما في بيكانغهام غات. استحوذ بيْك على طابق كان بالأحرى غرفة مقفلة حيث كان يصور الأوراق المقدمة من كنغ.... وتشير الغرفة التي رآها غوريفسكي إلى أن بعض الملفات كانت تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية حتى أنها قدّمت إلى ستالين بذاته. ومن بين هذه الملفات، كان هناك برقيات من السفارة البريطانية في برلين تعرض أحاديث مع هتلر وبعض القادة النازيين الآخرين[1].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص١٨٦ - ١٩٦.

جهاز سمرش Smersh

إن التأثير الذي مارسه "بريا" على دوائر الأمن خلال الحرب شغل بال ستالين. ومع بداية عام ١٩٤٦، أصبح بريا عضوًا أصيلاً في المكتب السياسي للجنة المركزية ونائب رئيس مجلس الوزراء. وفي الوقت ذاته حلّ محلّه على رأس الـ NKVD مساعده القديم سيرجي كروغلوف الضخم، شبيه الثور، والذي كان قد اكتسب لقبًا من ألقاب النبالة البريطانية لقاء محافظته على الأمن الذي أشاعه خلال اجتماعات الثلاثة الكبار.

وفي آذار ــ مارس ١٩٤٦، وبعد أن كانتا مفوضيتين بسيطتين، أصبحت الـNKVD وNKGB وزارتين، الأولى وزارة الداخلية (NVD) والثانية وزارة أمن الدولة (MGB). وبعد وقت قصير، تم استبدال مركولوف، رجل بريا، على رأس MGB بـ"فكتور سميونو فيتشر أباكوموف" والذي، مثل كروغلوف، لم يكن ينتمي لمافيا بريا القوقازية. وإذا كان ستالين يأمل بأن يحدّ أباكوموف من نفوذ بريا على أمن الدولة، فإنه أخطأ هذه المرة. ويرى خروتشوف بأن أباكوموف أصبح بسرعة "رجل بريا، والذي ينسج أية علاقة، حتى مع ستالين، دون استشارته سلفًا".

وأثناء إدارته للـ MGB، كان أباكوموف يتصرف كرجل فظٍ وفاسد، بينما كان يظهر كل الود لزملائه، متخوفًا من الاستسلام للقلق بسبب ما يوحيه

ماضيه "كعضو في وكالة تشيكا"، بادر شخصيًا لإخراج مدخرات الـ MGB الأكثر قدسية، من مكان عرضها في غرفة طعام الضباط حيث دأب على قضاء سهراته، وحيث كان يلعب البليار مع الأصدقاء، ويلتقي عشيقاته الكثيرات في غرفة خاصة زوّدها بالمشروبات المستوردة وبمختلف أنواع السجائر الفرنسية. وكان على ضباط الـMGB في الغرب كسب ودّه ومراعاته، لذلك كانوا يشترون له الهدايا القيّمة بأسعار غالية. وفي ما بعد روى المنشق "بيوتر دريابين Deriabine" أنه حمل من فيينا إلى رئيسه عربة طفل وفستانًا بقيمة عشر آلاف روبل. وقد كان الفسق والفساد من بين الحجج الرسمية الأخرى التي أدّت إلى توقيفه عام ١٩٥١ وإعدامه عام ١٩٥٤.

يدين أباكوموف بمركزه كوزير لأمن الدولة إلى نجاحاته خلال الحرب على رأس السمرش Smersh، والتي تكونت في نيسان - إبريل عام ١٩٤٣ من إعادة تنظيم دوائر الـNKVD الخاصة المسؤولة عن الجاسوسية المضادة ضمن القوات المسلحة. وقد ترأس ستالين بالذات اجتماع كبار ضباط الاستخبارات والذي تم خلاله إنشاء السمرش. وحسب تقرير سوفياتي رسمي، فقد كان الاسم المقترح في الأساس سمرنش Smernesh، وهو اختصار للشعار التالي المستعمل زمن الحرب: "Smert Nemets Kinm Shpiom" أي: "الموت للجواسيس الألمان". غير أن ستالين لم يوافق على هذا الشعار، وقال: "لماذا لا يجري الحديث سوى عن الجواسيس الألمان؟ ألا تعمل دوائر جاسوسية أخرى ضد بلادنا؟ ولنسميها "Smert Shpionam" أي: "الموت للجواسيس"، أو بالاختصار Smersh". وهكذا، قلّما اهتمت سمرش بكشف الجواسيس الأجانب، بينما تعاظمت مراقبتها لضعف معنويات القوى المسلحة و"تخاذلها" وذلك بتشغيل شبكة هائلة من المخبرين. وقد أظهر ستالين الأهمية التي يوليها لسمرش وذلك بفصلها عن

الـNKVD وبوضعها تحت إشرافه المباشر بصفته رئيس لجنة الدولـة للدفـاع ومفـوّض للدفاع زمن الحرب[1].

عندما استعاد الجيـش الأحمـر الأراضـي السـوفياتية مـن القـوات البريـة الألمانيـة، لاحقت السمرش كـل الأشـخاص المشـتبه بـأنهم تعـاملوا مـع العـدو وصفّـت الحركـات القومية. وبعد انتهاء الحرب، التزمت السمرش كذلك بغربلـة أكـثر مـن خمسـة ملاييـن سوفياتي كان قد تم ترحيلهم من أراضي العدو. ومهتمتَيـن بالقيـام بالتزاماتهمـا المبرمـة حيال حليفهما، تعاونت الحكومتان البريطانية والأميركيـة علـى هـذا الـترحيل الـبربري أحيانًا... وهناك العديد من المواطنيـن السـوفيات مـن بيـن الملاييـن الذيـن أعيـدوا إلـى مواطنهم، خضعوا لأعمال الاضطهاد الستالينية بعد تعرضـهم لمثيلاتها النازية. وحسـب التلميح الذي يتداوله التاريخ الرسمي السوفياتي، نظرت السمرش بريبـة إلـى أكـثر مـن مليون سجين حرب روسي كانوا قد نجوا من معسكرات الاعتقال الألمانية، وقد اعتُبر الجميـع تقريبًـا فـارين مـن الجنديـة. فـي حزيـران ـ يونيـو عـام ١٩٤٥، أعلـم السـفير الأميركي في موسكو، "أفريل هاريمان"، وزارة الخارجية بـ"أن السفارة على علم بحالـة واحدة فقط لسجين أعيد إلى الوطن وتمكن من ممارسة حياته العائليـة... وقـد اخـترقت قطارات مليئة بالعائدين من موسكو وتابعت طريقها نحو الشرق؛ وقد أخفي أمر هـؤلاء العائدين خلال توقف القطارات في مستودعات العاصمة".

وكانت السمرش قد مارست التعذيب على بعضهم بعد استجوابهم. وقد انتهت حيـاة غالبيتهم في معسكرات قريبة من الدائرة القطبية. أما أعضاء جيش التحرير الروسـي

---

١ - Stephan Robert W., *Death to Spies: The Story of Smersh,* American University, (Washington DC,1984) PP. 61-64.

بقيادة الجنرال "أندريه فلاسوف فلقوا مصيرًا مأساويًا خاصًا، وكان الأميركيون قد قاموا بإعادتهم إلى الوطن. وكان فلاسوف، أحد أبطال معركة موسكو، قد سجن عند الألمان عام ١٩٤٢، وهو الذي أعلن في ما بعد أن النظام السوفياتي هو تحريف جائر لثورة أكتوبر. أما جيشه المؤلف من المتطوعين والذين كان قد تم تجنيدهم من بين سجناء الحرب الروسية، فقد انهزم في ما بعد إلى جانب الألمان على الجبهة الشرقية في آذار ـ مارس عام ١٩٤٥. وقد اضطر الجنود الأميركيون الذين أعادوا فرق فلاسوف لاستخدام الغاز المسيل للدموع قبل تسليمهم للروس؛ ومع ذلك فقد تمكن أحد عشر من بينهم من شنق أنفسهم. وقد كتب رجل الدولة الهنغاري "نيقولاي نيارادي"، والذي كان في موسكو عند إعادة فلاسوف قائلاً: "لكي يكون العقاب أمثولة، فإن الـMVD نكّلت به حتى الموت وبالطريقة الأشد شراسة، وسعت لأن تعلم كل روسيا بكيفية موته وكم دام ذلك من الوقت. أما ضباط وفرق فلاسوف فتلقوا المصير الرهيب ذاته".

تم إلغاء السمرش رسميًا في آذار ـ مارس ١٩٤٦، وأنيطت مهماتها بالمديرية الثالثة التابعة للـMGB مع نهاية الحرب[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٣٧٢ ـ ٣٧٤.

إنشاء الـ KGB

إذن، عندما انتصرت الثورة البلشيفيّة في تشرين الأول - أكتوبر ١٩١٧، وتمّت الإطاحة بواسطة الإنقلاب البلشيفي بالحكومة الديمقراطيّة البرجوازيّة التي كان سبق لها أن أطاحت بدورها، قبل شهور، بالنظام القيصريّ، وبدأت المعارضة تشتدّ من قبل القوّات البيضاء المؤيّد للقيصريّة، والديمقراطيّين الذين أطاح بهم "اليمين"، والفوضويّين، والاشتراكيّين الثوريّين الذين هم في أقصى "اليسار"، تحوّلت صلاحيّات جهاز البوليس القيصريّ، الذي كان يعرف بإسم "تشيكا"، للعمل لصالح الثورة الشيوعيّة والتصدّي لخصومها، خصوصًا وأنّ الجهاز كان يمارس العمليّات الإرهابيّة ضدّ الخصوم السياسيّين، وهو من الأجهزة الملتزمة بالعمل والأنشطة السرّية.

وصدر قرار بتكوين "اللجنة الإستثنائيّة لعموم روسيا للكفاح ضدّ الثورة المضادة والتدريب" برئاسة "فليكس ديزرجنسكي"، الذي ساعد بشكل فعّال في إرساء وترسيخ سيطرة الحزب الشيوعيّ على كلّ الاتّحاد السوفياتيّ المترامي الأطراف، والمليء بالتناقضات العرقيّة والثقافيّة والإجتماعيّة، وذلك باستخدام أدوات القمع، والالتزام بالنضال الشرس حتّى النهاية، من خلال ممارسة عمليّات القمع الثوريّ ضدّ "عملاء الثورة المضادّة". وقد كان فليكس الحديديّ متعصّبًا ومخلصًا للحزب الشيوعيّ، وترك بصماته حيث أصبح عميل الاستخبارات الروسيّة مناضلاً ثوريًا في خدمة الحزب. ثم

ترأّس الجهاز السرّي في عصر "ستالين"، "لافرنتي بريا"، وكان صاحب شخصيّة قويّة، قام بممارسات عنيفة لتمكين قواعد النظام الستاليني ومكافحة أعداء التوجّه الشيوعيّ، وقد تمّ إعدام "لافرنتي بريا" رئيس جهاز "تشيكا" في عام ١٩٥٤ بعد إنتهاء حقبة حكم "جوزيف ستالين"، وبدأت عمليّة تصحيح مسار النظام الشيوعيّ وإدانة "حكم الفرد"، واتُّهم "بريا" بإرتكاب فظائع وأعمال قمعيّة تجاه الشعب السوفياتيّ.

إثر ذلك تمّ إنشاء جهاز "لجنة أمن الدولة السوفياتيّة - KGB" الذي ارتبط مباشرة بـ"رئاسة مجلس السوفيات الأعلى"، على أن يكون مدير جهاز الأمن عضوًا في المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ، وكثيرًا ما كان مدير الجهاز شخصيّة بعيدة عن الأضواء ووسائل الإعلام.

حدّدت اختصاصات KGB في:

- الحفاظ على الأمن الداخليّ للدولة السوفياتيّة
- إعتقال الجواسيس داخل الأراضي السوفياتيّة
- مكافحة التجسّس الغربيّ على الاتّحاد السوفياتي
- جمع المعلومات عن الدول "بواسطة مختلف العملاء"
- التجسّس العلميّ والاقتصاديّ لصالح الدولة السوفياتيّة
- زرع الجواسيس خارج الاتّحاد السوفياتي

وقامت دائرة العمل الإعلاميّ والدعائيّ في جهاز KGB بمهمّة مراقبة الصحافة والكتّاب والعلماء والمدرّسين والمثقّفين، وتوجيه الشعب السوفياتيّ وفقًا لعقيدة الحزب

الشيوعيّ، وبثّ الدعاية في المجتمعات الغربيّة، وإضعاف الثقة في الغرب الأوروبيّ والولايات المتّحدة الأميركيّة، والإيعاز بتنظيم التظاهرات الطلاّبيّة ضدّ الحروب، ودعم السلم العالميّ، وإعداد الموضوعات والمقالات الصحافيّة الناقدة للرأسماليّة والإمبرياليّة، ودعم حركات التحرّر الوطنيّ ضد الدول الاستعماريّة...

منذ عام ١٩٦٨، أصبح الـ KGB يسيطر على "المخابرات العسكريّة" المكلّفة المحافظة على أمن الجيش وتوجيه العسكريّين، ويتبعها "جهاز مخابرات حرس الحدود" و"مخابرات الشرطة الداخليّة"، بغرض إيجاد إدارة مركزيّة قويّة للأجهزة الأمنيّة والاستخباراتيّة، والتنسيق في ما بينها، ومنع التضارب في الصلاحيّات. وقد أسّس جهاز KGB العديد من المعاهد الأكاديميّة لتخريج الجواسيس، ومدينة كاملة لتدريبهم. وكان يتمّ التعامل بغطاء محكم من السريّة على خرّيجي هذه المعاهد التدريبيّة.

كان يقدّر عدد العاملين في هذا الجهاز بحوالي مائة ألف عنصر داخل جمهوريّات الاتّحاد السوفياتيّ، ومائة ألف موظّف وعميل آخر في الخارج، بالإضافة إلى ما كان يتمتّع به الـ KGB من نفوذ قويّ وفعّال على أجهزة أمن الدول الأوروبيّة الشيوعيّة، والمعلومات التي تصل إليه من بعض خلايا الأحزاب الشيوعية المنتشرة في كافّة دول العالم، وحصيلة المؤتمرات الدوليّة وأنشطة الاتّحادات والروابط والجمعيّات المحليّة والعالميّة التي تسيطر عليها الحركة الشيوعيّة العالميّة.

عندما أصبح الـ KGB مسؤولاً عن كافة العمليّات في الخارج، أسّس قسمًا يختصّ بعمليّات التخطيط والتضليل والخداع على مستوى استراتيجيّ، قام بأعمال عديدة منها: إنشاء منظّمة "مزوّرة" داخل روسيا، ادّعت أنّها تعمل لإسقاط حكومة البلاشفة، اجتذبت إليها دعم مجموعات كبيرة من المعارضين، ومعظمهم من المهاجرين إلى الخارج، كما اكتشفت تلك المنظّمة عناصر المخابرات الغربيّة، وخاصّة عناصر جهاز MI-6

البريطانيّ الذي كان يدعم النشاط السياسيّ والاستخباراتيّ المعادي للاتّحاد السوفياتيّ. وقد تمكّن جهاز المخابرات السوفياتيّ من اختطاف قيادات المعارضة في الخارج والتخلّص منهم... كما قام بعمليّة تضليل للبريطانيّين جعلهم يقرّرون عدم مباشرة "الهجوم" على الحكومة السوفياتيّة، موحيًا بأنّ القوى المعارضة في الداخل ستقوم بهذا العمل.

ومن الملاحظ أنّ الغرب كان يعتقد بأنّ الخلاف السوفياتيّ ــ الصينيّ مجرّد لعبة لتضليل الغرب... وقد كان يقود هذا "الإنطباع المضلِّل" مجموعة من أبرع العناصر الاستخباراتيّة. وقد استطاع بعض هؤلاء أن يحصلوا على أسماء العملاء الذين قامت المخابرات الأميركيّة ـ "مكتب الخدمات الاستراتيجيّة" بتجنيدهم، كما تمكّنوا من امتلاك الأرشيف السرّي للنازيّة في برلين.

عندما وصل "يوري أندروبوف" إلى قمّة السلطة برئاسة الاتّحاد السوفياتيّ، وهو الذي كان يعمل لمدّة طويلة رئيسًا لجهاز "لجنة أمن الدولة السوفياتيّة ـ KGB"، وكان على إلمام واسع بأن الاتّحاد السوفياتيّ أخذ يتقهقر أكثر فأكثر، وأن الـ KGB أصبح جهازًا مكروهًا في نظر الشعب لما ارتكبه من عمليّات عنف واضطهاد وإرهاب للمواطنين، وأنّ هناك استياء جماعيّ متصاعد من ممارسة المسؤولين في النظام للفساد، وأنّ التوتر بدأ يتصاعد... بدأ يعمل بكلّ الوسائل على منع انفجار النظام، في محاولة لإحداث تغيير ديمقراطيٍّ بدلاً من الأعمال الإصلاحيّة، في محاولة لمنع العناصر المعادية للاشتراكيّة والشيوعيّة من نسف قواعد الحكم. وبدأ في عهد أندروبوف عصر جديد في الانفتاح، واصله الرئيس "ميخائيل غورباتشيف" الذي بدأ يروّج لـ"البرسترويكا"... إلى أن تمّ الانقلاب عليه في آب ـ أغسطس ١٩٩١، بحجّة أنّه يعاني من مرض تسبّب في عدم قدرته على ممارسة مهامّه. إلاّ أنّ الانقلاب قد فشل

بسبب عدم تنفيذ مجموعات "القوات الخاصّة" التابعة لجهاز الـ KGB مهاجمة المعارضين للانقلاب من المدنيّين، عاصين الأوامر الصادرة لهم من قبل رئيس الجهاز المشارك في الانقلاب والذي تمّ اعتقاله.

بعد فشل انقلاب آب ـ أغسطس ١٩٩١، قاد غورباتشيف خطّة لتدمير "لجنة أمن الدولة السوفياتيّة KGB"، وتمّ تفتيت الجهاز، ليصبح مكوّنًا من سبعة مصادر للمعلومات، كلّ منها مستقلّ عن الآخر. كما تحوّلت إدارة الجهاز التي كانت في السابق تُعتبر من الشخصيات الهامّة في النظام، إلى حرس رئاسيّ مهمّته حماية رئيس الدولة. أمّا المصادر السبعة التي أصبحت تشكّل الجهاز فهي:

١ ـ جهاز الاستطلاع الخارجيّ

٢ ـ الإدارة الرئيسيّة للاستخبارات الخارجيّة

٣ ـ الحرس الرئاسيّ

٤ ـ الوكالة الفدراليّة للمعلومات والاتّصالات الحكوميّة

٥ ـ جهاز الأمن الفدراليّ

٦ ـ جهاز حرس الحدود

٧ ـ جهاز أمن وزارة الخارجيّة

وفي عام ١٩٩٥ صدر قانون لتنظيم عمل جهاز الأمن الفدراليّ، حيث أصبح باستطاعته ممارسة النشاط الاستخباراتيّ الخارجيّ من أجل سلامة الاتّحاد وتعزيز قدرته الاقتصاديّة والعسكريّة والعلميّة، ومتابعة القضايا التي بدأت داخل الحدود الروسيّة، على أن تكون تلك القضايا متعلّقة بمكافحة التجسّس وشبكات المافيا، وإقامة

علاقات مع الأجهزة الاستخباراتيّة الأجنبيّة، ووضع ضبّاط ارتباط في السفارات مثل ما يقوم به مكتب التحقيقات الفديرالي الأميركيّ، على ألاّ يقوم الجهاز بتجنيد عملاء في الخارج أو إقامة شبكات تجسّس.

وأصبح جهاز الاستطلاع الخارجيّ يمارس النشاط الاستخباراتيّ في الخارج بمجمله، ويواصل التعامل مع المصادر والعملاء السابقين لجهاز الـ KGB من العاملين في المجالات المختلفة وخصوصًا الصحافة والإعلام تحت غطاء وكالة "نوفوستي"، وأصبح يتمّ تكليف العملاء في الخارج بتوضيح المواقف الروسيّة في العديد من المجالات الحسّاسة، وممارسة النشاط التأثيريّ في المحيط الذي يعيشون فيه. وتقاسم كلّ من "جهازَي الاستطلاع الخارجيّ" و"الاستخبارات العسكريّة" الأدوار، فأصبح في استطاعة جهاز الاستطلاع الخارجيّ الاهتمام بالمسائل العسكريّة في مجالات البحث والصناعة والتكنولوجيا، إلاّ أنّ الاستخبارات العسكريّة لا تستطيع الاهتمام بالمسائل السياسيّة أو الاقتصاديّة إلا إذا كانت هذه المسائل مرتبطة بشكل مباشر بالمسائل العسكريّة[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٢١ ـ ٢٢٥.

بعدَ وفاة ستالين

بينما كانوا متحلقين حول تابوت ستالين، ووجوههم متجهمة ونظراتهم ثابتة، كان معظم أعضاء الحزب يخشون أن يستغل بيريا سلطاته كرئيس لأمن الدولة لكي يلعب دور الديكتاتور الراحل.

وكان الجميع واثقين من أنهم يخضعون للمراقبة التي يفرضها عليهم، لذلك لم يحاولوا القيام بأي عمل ضده، لعلمهم بأنه يملك ملفات خطيرة تدين الموظفين الكبار وأصحاب المقامات الرفيعة.

وبالفعل فإن بيريا لم يضيّع دقيقة واحدة في ضبط مجموعة العاملين في إمبراطورية الشرطة ـ كما فرض قبضته على أعمال التجسس في الخارج أكثر من الأمن الداخلي.

فقد وضع على رأس PDG، المركز العام الأول للتجسس، أحد رجاله الذين يثق بهم: "فاسيلي ستيبانوفيتش رياسنوي"، الذي كان يشغل منصب جنرال قسم في MVD، أي وزارة الداخلية السوفياتية، الذي لم تكن له أدنى خبرة عن الاستعلامات في الخارج والذي، وفق أقوال بيوتر دريابين: "لم يكن ليتجرأ على اتخاذ أي قرار دون الرجوع إلى بيريا".

وبناء على إلحاح هذا الأخير، فإن رياسنوي طلب معظم العاملين في المركز لأجل التشاور.

وبطبيعة الحال، فقد انتقد هذا القرار بعد سقوطهم: فاستدعاء الوزراء والعاملين في نفس الوقت كان يعني اختيارهم للمخابرات السرية... والتجسس في الغرب.

أضف إلى ذلك أن بيريا كان قد أمر بإعادة بناء شاملة لجهاز MVD الضخم في ألمانيا الشرقية.

أما درابين، الذي كان يعمل آنذاك في الفرع النمساوي ـ الألماني التابع للمركز العام للتجسس PDG، حسب أن حوالي ٨٠٠ عميلاً من MVD اضطروا لمغادرة RDA.

وفي ١٧ حزيران ـ يونيو ١٩٣٥، حدثت أول محاولة جديدة واجهتها السلطة الشيوعية في داخل الكتلة السوفياتية: ثورة العمال في برلين الشرقية. وانطلقت كتيبتان مسلحتان سوفياتيتان لصد الثورة، حيث قتل واحد وعشرون متظاهرًا من العمال المتمردين. ولم تتمكن موسكو، من وأد الثورة التي اندلعت في المركز وفي الرئاسة، وكان السبب الفوضى التي خلقتها قرارات بيريا، غير المناسبة ـ لإعادة تنظيم MVD في ألمانيا الشرقية.

وبناء على شهادة دريابين، فإن الفرع النمسازي ـ الألماني للمركز كان قد احتجز فاديكين، الذي اعتبره بيريا في كارلسشورست، ضابطًا عاجزًا وغير مؤهل إطلاقًا.

ما كادت أنباء الاختطاف تفد إليه حتى طار بيريا إلى برلين لأجل الاطلاع على الحالة وفحص ملابساتها. جدير بالذكر أنه في غضون جولته في ألمانيا لم يتوقف عن مراقبة أعمال وحركات خصومه في موسكو مراقبة دقيقة.

وعندما علم بأن المجلس الرئاسي قد دُعي إلى الاجتماع في ساعة غير عادية... اتصل هاتفيًا بالسكرتاريا طالبًا تفسيرًا لذلك. وأكدوا له أن لا شيء يستدعي رجوعه؛

غير أنه عاد حالاً إلى موسكو حيث رسم لوحة دقيقة ـ ساخرة ـ للحالة المتردية في RDA.

كان غروميكو، وزير الشؤون الخارجية، في ما بعد، حاضرًا تلك الجلسة كمراقب.. فقال بأن بيريا تكلم "بلهجة" تعطفية وابتسامة ساخرة: "RDA؟ ما هي؟ ما قيمتها؟ RDA (جمهورية ألمانيا الديمقراطية) ليست دولة حقيقية، وهي لا تستطيع الصمود والوقوف على قدميها لولا وجود القوات السوفياتية، حتى لو أسميناها "جمهورية ألمانيا الديمقراطية...".

وهذا كان فوق طاقة احتمال بقية الأعضاء في البريزديوم. وقال مولوتوف مندهشًا: "إنني أرفض بشدة اتخاذ موقف مثل هذا نحو بلد صديق". وصادق المتخللون الآخرون مستحسنين موقفه.

وحكى غروميكو في ما بعد فقال: "لقد صدمنا جميعًا لتلك الفظاظة السياسة". وتجاهل بيريا غروميكو... ولكن العدالة المستوطنة كانت في انتظار بيريا بعد بضعة أيام. وكانت المؤامرة للإطاحة به بزعامة خروتشيف ومساندة حليفيه نيقولاي بولغانين، وزير الدفاع ونائبه الماريشال جوكوف، اللذين وضعا القوات المسلحة في الجيش تحت تصرفه.

لكن نيكيتا خروتشيف كان ينوي ربح المعركة ضد مالينكوف، خليفة ستالين في منصب السكرتير العام ورئيس الحكومة. وما لبث أن أبعده في أيار ـ مايو، أو حزيران ـ يونيو. تجدر الإشارة إلى أن أحد مساعدي بيريا، سيرجي كروغلوف قد دعم خروتشيف.. وقبل حينذاك بأن سيرجي قد حصل على لقب فارس "شيفاليه" الذي منحه إياه البريطانيون، لأجل الخدمات التي أداها خلال مؤتمرات ولقاءات الثلاثة الكبار أثناء الحرب.

وصدر الأمر بعقد اجتماع رئاسي استثنائي في ٢٦ حزيران – يونيو، ووصل خروتشيف إلى الاجتماع مسلحًا بمسدس..

وبناء على شهادته المتواضعة قال خروتشيف، "جلس بيريا، ثم مد ذراعيه متسائلاً: حسنًا، ما هو أمر اليوم؟ ولم هذا الاجتماع غير المرتقب؟"... وركلت مالينكوف بقدمي.. ثم همست له: "افتتح الجلسة وامنحني فرصة الكلام".

"وشحب مالينكوف... أدركت بأنه لن يستطيع فتح فمه. لذلك، وقفت وقلت: ثمة موضوع يعتبر أمر اليوم: النشاط الذي يقوم به العميل الامبريالي بيريا، ضد الحزب. وتم الاقتراح بإقالته من الرئاسة ومن اللجنة المركزية، وطرده من الحزب ومحاكمته محاكمة عسكرية. فمن يوافق؟"

واتهمه مولوتوف، وبولغانين وآخرون وفضحوه بدورهم، وقبل أن يتم التصويت النهائي، ضغط مالينكوف على زر سري؛ وفجأة برز جوكوف مصحوبًا بمجموعة من الضباط المسلحين الذين ألقوا القبض على بيريا وأخذوه معهم.

وفي حقيبته الخاصة، وجدوا ورقة كتب عليها بالأحمر: "خطر"، لكي يطلب النجدة. وأدخل جوكوف إلى موسكو فرقة عسكرية مع مركباتها الحربية، وفرقة أخرى مجهزة ومدججة بالبنادق قادرة، إذا دعت الضرورة، إلى تجريد أفرادها من السلاح... وذلك تخوفًا من محاولة فرق MVD تحرير رئيسهم. والـMVD هو الجهاز المعروف بالكلمة الروسية تشيكا، وأخيرًا KGB، وهو لجنة أمن الدولة التي أُنشئت عام ١٩٥٤.

وعلم الضابط في MVD رسميًا، بإلقاء القبض على رئيسهم بعد ذلك بعدة أيام. ولاحظ الكثيرون من بينهم إزالة صور بيريا فجأة من الأمكنة المخصصة لها، وكان ذلك يشير بوضوح إلى سقوط رئيسهم.

وفي بداية شهر تموز - يوليو، وصلت رسالة إلى فتى في الرابعة عشرة من عمره يدعى غورديفسكي، كان يقضي العطلة في أوكرانيا، بعث بها والده الكولونيل في إدارة التعليم في MVD جاء فيها: "وقع بالأمس حدث غير عادي، فقد اختفت جميع صور الرئيس عن الجدران".

وما كادت تنقضي عدة أيام على الرسالة الأولى حتى وصلت الثانية. وفي طيّها معلومات جديدة: "لقد ألقي القبض على الرئيس، وهو موجود حاليًا في أحد زنزانات السجن".

وتم الإعلان عن اعتقال بيريا في ١٠ تموز - يوليو وظهر خروتشيف، المحرض الأول على إسقاط بيريا، كالشخصية المسيطرة القادرة على الإدارة.

وهكذا، أصبح السكرتير العام للحزب فأخذ مركز ومكان مالينكوف فيه..

وفي ٢٤ كانون الأول - ديسمبر، أعلن الكرملين أن بيريا وستة من المتآمرين، من ضمنهم ميركولوف، الرئيس القديم في NKGB، كوميسارية الشعب في الداخل (دائرة الأمن السوفياتي من عام ١٩٤١، و ١٩٤٣ حتى عام ١٩٤٦، قبل إنشاء MGB)، وديكانوزوف، الرئيس القديم في INO (دائرة المخابرات الأجنبية في تشيكا، قبل إنشاء PDG: الدائرة الأولى العامة للتجسس في KGB) اعتبرتهما المحكمة العليا مذنبين لأنهما "كانا يسعيان لإعادة الرأسمالية وإعادة حكم البورجوازية".

أما أكبر الجرائم المريعة التي اقترفها بيريا، وهي مسؤوليته عن القتل الجماعي، فلم تذكرها محكمة القضاء الأعلى، حتى لا تكون شاهدًا على فظائع النظام كله.

وعندما حكم عليه بالإعدام، أشارت المحكمة إلى "الجرائم التي تشهد بفساده الأخلاقي".

وفي غضون محاكمتــه السرية، حكى البعض للقضاة بأن أحد رجال الحرس الخاص لدي بيريا، كان يحتفظ بورقة كتبت عليها أسماء وأرقام تليفونات أربع نساء من المئات اللاتي كانت حاشيته ترغمهن للمثول بين يديه في مقره في فزبونلي بيرفلوك، حيث كان يغتصبهن، في سنوات مجده؛ وكانت أحدى تلك النساء الأربع لا تتجاوز عامها السادس عشر.

أما إحدى أغرب الاتهامات التي ألحقت به فهي أنه كان عميلاً لحساب انكلترا. والبرهان الوحيد على تلك التهمة، ملف استُخْرِج من أرشيفه الشخصي، يشير إلى أنه قد عمل في خدمة دائرة مكافحة التجسس "مساواة" (الحزب الوطني القوقازي) في شارع باكو، في عام ١٩١٩، خلال الحرب الأهلية حينما كانت المنطقة تحت سيطرة البريطانيين ومراقبتهم.

واعترف أحد المحققين الذين جهزوا بنود الاتهام، في ما بعد، بأنه لم يلحظ في الملفّ شيئًا يشير إلى "المهمات التي أوكلت إليه أو كيف استطاع تنفيذها".

لكن الحكم الرسمي الصادر ضده ذكر أن بيريا، منذ العام ١٩١٩ "قد تابع ووسع دائرة علاقاته السرية مع التجسس الغربي حتى اللحظة التي ألقي عليه القبض فيها".

وهكذا، كان بيريا الرئيس الثالث في KGB بعد إياغودا، وإيجوف ـ، اللذين حكم عليهما في الثلاثينات ـ الذي اتهم، بالإضافة إلى جرائم أخرى، باقتراف جريمة التعامل مع الإنكليز كجاسوس.

بعد اعتقاله في ٢٦ حزيران ـ يونيو، وضعوا مكانه على رأس MVD، سيرجي كروغلوف، أحد مساعديه، الذي وقف في صف المتآمرين عليه. وظلت MGB، أي

الوزارة السوفياتية لأمن الدولة (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)، داخل MVD (وزارة الداخلية السوفياتية).

أما رياسنوي، الذي عينه بيريا رئيسًا في PDG (أول دائرة عامة للتجسس في KGB)، فقد أقيل من منصبه ثم اختفى... ولكنهم لم يرسلوه، كما يبدو، لقضاء بقية أيامه في الغولاغ، أي المعتقلات السوفياتية.

وحل محله الديبلوماسي الكسندر سيبينوفيتش بانيوشكين الذي يعود الفضل في تعيينه إلى مولوتوف. وبالفعل، قام مولوتوف بجميع المهمات في وزارة الخارجية بعد موت ستالين، وكان يأمل في تجديد تأثير وزارته على عمليات التجسس في الخارج كما كانت عليه الحال حين إنشاء الـ KI (لجنة الاستعلامات، وهي وكالة سوفياتية للاستعلامات الخارجية تضم الدوائر الخارجية MGB و GPU) ومديرية أمن الدولة السوفياتية التي عرفت باسم NKVD عام ١٩٢٢.

وكان بانيوشكين قد شغل منصب سفير في واشنطن منذ العام ١٩٥٢، كما كان سفيرًا في بكين لفترات قصيرة قبل وبعد خدمته في العاصمة الأميركية.

وعندما أصبح رئيسًا للتمثيل الديبلوماسي في واشنطن، فقد أوكلت إليه في نفس الوقت عمليات الاستخبارات لمدة عام كامل بعد استدعاء جيورجي سوكولوف، في عام ١٩٤٩.

قال أحد الهاربين السوفيات من الخدمة بأن بانيوشكين كان في عام ١٩٥٣ طويل القامة، نحيلاً، منحني الظهر، يرتدي بذلة رمادية، ويشبه بشحوب وجهه "عمال مناجم الفحم ومناجم الرصاص"، ولكنه يبدو بسيطًا متواضعًا غير مغرور.

وأُدخل إلى صالة الضباط حيث مثل أمام المسؤولين في PDG (أول دائرة إرشاد عامة للتجسس في KGB)، واستقبله دريابين بوصفه سكرتير الحزب، منذ ولوجه

القاعة ثم قاده إلى منصبه حيث جلس كروغلوف، ومساعده إيفان سيروف، وسكرتارون آخرون في الحزب.

وأعلن كروغلوف ترشيح بانيوشكين بعد أن ذكر باختصار منصبه ودعا الحضور إلى طرح الأسئلة عليه. وارتبك المستمعون، وظلوا صامتين أمام طريقة التقديم غير الرسمية، وعقد الاجتماع، بيد أنه كان سريًا مغلقًا.

ولم يشفع ماضي بانيوشكين الديبلوماسي بتليين طرق العمليات في MVD في الخارج. وبالفعل، فإنه منذ توليه المركز، أشرف شخصيًا على "عملية الران" التي كانت محاولة اغتيال زعيم أوكراني مهاجر في ألمانيا الغربية.

وقبل ذلك الوقت بجيل واحد، فإن مونتاج "تراست" قد تبعه اختطاف وقتل اثنين من الرؤساء المهمين من المهاجرين البيض، الجنرال كوتيبيوف، والجنرال ميلر، اللذين كانا يرفضان بعناد شديد الدخول إلى الاتحاد السوفياتي.

و بعد نجاح العمليات على طول الحدود السوفياتية قي بداية الحرب الباردة، كان المهاجرون من ذوي النفوذ والسلطة ـ رؤساء الاتحاد الوطني للعمل NTS، الموجود في ألمانيا الفيدرالية ـ قد قاموا بعدة مشاريع ومحاولات اغتيال.

والمعروف أن الاتحاد الشعبي للعمل NTS، كان عبارة عن منظمة مؤلفة من المهاجرين الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الأوكرانيين. المعروفة تحت الاسم السوفياتي: (نارودني ترودوفوي سويوز).

غني عن القول أن تصفية أول ضحية: جيورجي سيرغيفيتش أوكولوفيتش وافق عليها البريزديوم الرئاسي نفسه، كما سبق ووافق على جميع الاغتيالات التي حدثت في الخارج.

وقد أشرف بانيوشكين شخصيًا على تدريب رئيس فريق MVD في (وزارة الداخلية السوفياتية) المسؤول عن تلك العملية نيقولاي كوخلوف.

علاوة على ذلك فقد تم تدريب كوخلوف على ايدي اساتذة اخصائيين من بينهم ميخائيل روباك، بطل الجودو، والليوتنان ـ كولونيل غودليفسكي، الرابح في خمس مباريات لإطلاق النار بالمسدس.

وقد اختاروا سلاحًا للتنفيذ، مسدسًا موجهًا إليكترونيًا، مجهزًا بكاتم للصوت ومخبأ في علبة سجائر؛ وكان يطلق رصاصات مصنوعة من السيانور، في مختبر سري خاص بدوائر MGB (للتجسس الخارجي) وMVD (وزارة الداخليّة السوفياتية).

جدير بالذكر أن كوخلوف كان يبدو ناعمًا ورقيقًا بل أكثر نعومة من أي من مرتكبي جرائم القتل في عهد ستالين. وفي خلال إعداده، كان عليه أن يقرأ عدة نشرات مطبوعة عن "الاتحاد الشعبي للعمل NTS"، (أي المنظمة الخاصة بالمهاجرين الاشتراكيين الديمقراطيين الأوكرانيين) الذي كان عليه الإطاحة به...

وفي ١٨ شباط ـ فبراير ١٩٥٤، ذهب إلى شقة أوكولوفيتش في فرنكفورت وصارحه بالقول: "جيورجي سيرغيفيتش، إنني آتٍ من موسكو لأراك، لقد قررت اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي إخراجك من الحزب، وقد أُوكلَتْ مهمة إبعادك إلى فريقي".

ثم أخبر أوكولوفيتش، الذي أخذ يرتجف خوفًا، أنه قرر عدم قتله؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ وضع نفسه تحت حماية CIA.

في ٢٠ نيسان ـ إبريل، دعا إلى مؤتمر صحافي أثار فيه الدهشة عندما ذكر أمام الصحافيين خطة القتل، بعد أن عرض أمامهم سلاح الجريمة.

منذ بداية الحرب لم يحدث أن أحدًا من الضباط المهمين تجرأ على إحداث خلل ما في المخابرات، أو تركها. لكن ذلك لم يمنع حدوث ما كـان يُخشى منـه، ففـي الشـهور الأولى من عام ١٩٥٤، غـادر مركـز المخـابرات أربعـة أشـخاص، وتسـبب خروجهم باضطرابات شديدة: في كانون الثاني ـ ينـاير ترك إيوري راستفوروف مقـر طوكيو ليرتمي فـي أحضـان المخـابرات الأميركيـة CIA؛ وفـي شـباط ـ فبراير غـادر بيوتـر دريابين مكانه في فيينا طالبًا حماية من CIA؛ كما هـاجر فلاديمير وإيفدوكيا بيتروف إلى كانبيرا في نيسان - إبريل.

بالإضافة إلى كل ما تقدم، فإنّ الأمن السوفياتي قد أعاد بناء دوائره بناءً جديدًا فـي آذار - مارس ١٩٥٤، أي بعد الحرب، حيث انفصلت دائرة MGB (الوزارة السوفياتية لأمن الدولة) عن دائرة MVD (وزارة الداخلية السوفياتية) ليتحول بعد ذلـك إلـى لجنـة بسيطة لأمن الدولة (Komitet Gosurdarstvennoi Bezopasnosti; KGB) ـ مـع العلـم بأنـه كـانت لـه وزارة كاملـة منفصلـة ـ ومتعلقـة بمجلـس الـوزراء لكـي تتـم المراقبـة السياسية.

أما أول رئيس في KGB فكان المسـاعد السـابق لـدى كروغلـوف، الجنرال إيفـان الكسندروفيتش سيروف، الذي كان معروفًا بسمعته اليسارية المتطرفة، وسلوكه القاسـي وكان في التاسعة والأربعين من عمره.

جدير بالذكر أن هذا الجنرال كان وراء الطـرد الجمـاعي لشـعوب القوقـاز والـذي حطم المعارضة في دول البلطيق وفي أوروبا الشرقية.

كما تجدر الإشارة إلى أن خروتشيف، الذي كان المسؤول عن تعيينه قال عنه فـي ما بعد: "كانت معرفتي به سطحية، ولم يكن ذلك حالي مع سيروف، وكنـت أثـق بـه...

فلو كانت لديه أشياء تدعو إلى الشك كماهي الحال مع جميع الشراكسة، فهذا يعود إلى أنه كان ضحية السياسة العامة لستالين.

لاريب في أن تجربته الطويلة في سحق كل انشقاق قد ساعدته كثيرًا في مواجهة أكبر أزمة واجهته خلال السنوات الخمس التي قضاها في إدارة الـ KGB: التمرد الذي حدث في هنغاريا عام ١٩٥٦. وبعد وأد تلك الثورة، برز جيل جديد من المسؤولين في KGB، منهم في عام ١٩٥٤، إيوري فلاديميروفيتش أندروبوف الذي أصبح في ما بعد رئيسًا لتلك المؤسسة، وهو رجل نحيل، مهذب، أنيق الهندام، يرتدي بذلات مفصلة على قياس جسمه تفصيلاً دقيقًا، متقنًا، تولى مركز سفير في بودابست عندما كان في الأربعين من عمره...

وفي عام ١٩٥٥، تبعه فلاديمير الكسندروفيتش كريوتشكوف، إلى نفس العاصمة حيث تولى العمل تحت أوامر السفير وشغل منصب السكرتير الثالث في السفارة وهو في عامة الواحد والثلاثين، ثم أصبح بعد ذلك رئيسًا لدائرة KGB أيضًا.

لا شك في أن الدور الذي لعبه كريوتشوف في ثورة ١٩٥٦، أصبح يسبب له المضايقات... حتى عام ١٩٨٤، لذلك فقد جرى التعتيم على تاريخ حياته الرسمية كنائب في مجلس "السوفيات الأعلى" في تلك المرحلة غير المجيدة في مجرى حياته المهنية... ولكنه حينما أصبح رئيسًا لـ KGB في عام ١٩٨٨، قال إنه جابه "وجهًا لوجه"، "التطورات" التي حدثت في هنغاريا عام ١٩٥٦: "ومع ذلك، فلو أنني ألقيت نظرة على الماضي، فإنني أرى أشياء عديدة بمنظار مختلف، وهذا شيء طبيعي".

وأصبح يتظاهر، لاحقًا، بأنه يتذوق الأدب الهنغاري ويتعلق به، آسفًا لعدم وجود الوقت الكافي لديه لكي يغوص ويتعمق فيه أكثر....

قضى ألكسندر سيمينوفيتش بانيوشكين ثلاث سنوات على رأس دائرة أمن الدولة، غير أن صحته لم تكن على ما يرام، وقد استغرب أحد ضباطه "مشيته المحدودبة، وكأن ليست لديه المقدرة على الوقوف مستقيمًا".

وكان في مكتبه الواسع، مقعدان عميقان، أحدهما خلف طاولة عمله، والثاني قرب النافذة. وبعد أن اختار المقعد الذي أراد الجلوس فيه، "رمى نفسه في المقعد بيأس، وبالرغم من طول قامته، تقوقع فيه".

واختفت صورته من الصالة، صالة الذكرى!.

وفي العام ١٩٥٦، حل مكانه مساعده القديم، ألكسندر ميخائيلوفيتش ساخاروفسكي، الذي كان أكثر ديناميكية منه، واستطاع أن يتجاوز الرقم القياسي في المدة التي قضاها في إدارة PDG (أول دائرة رئيسة للتجسس في KGB، مجلس أمن الدولة) حيث خدم طوال خمسة عشر عامًا. وكان أول مسؤول أيضًا، في هذا المركز منذ عهد "فيتين" الذي كان له شرف الحصول على عرض صورته في صالة الذكريات.

جدير بالذكر أن ساخاروف كان إداريًا حاذقًا ونشيطًا، ولكنه لم يكن خبيرًا بقضايا الغرب. فقد التحق بخدمة NKVD (كوميساريا الشعب في الداخلية ـ التي اندمجت مع أمن الدولة في عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣، وفي الأعوام ١٩٣٤ ـ ١٩٤٣، قبل إنشاء MVD: الوزارة السوفياتية للداخلية) في العام ١٩٣٩ عندما كان في الثلاثين من عمره، وقد بنى سمعته غداة الحرب كمستشار في MGB ـ الوزارة السوفياتية لأمن الدولة (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ـ في أوروبا الشرقية، وبخاصة في رومانيا.

تطابقت تسمية ساخاروفسكي في المنصب مع ما اعتبرته PDG (أول دائرة رئيسية للتجسس في KGB) واحدة من أهم الضربات التي حدثت في الخارج؛ إذ

كانت الدائرة الرئيسية للتجسس تعتبر رجل الدولة الفنلندي في الحزب، إيرهو كاليفا كيكونين، أحد أكبر عملائها الذين يتمتعون بمركز مرموق.

وكان كيكونين في الواقع على اتصال منتظم بأحد ضباط الارتباط السوفيات. وسرت موجة من التعظيم والتمجيد والإطراء في المركز، عام ١٩٥٦ حينما أصبح كيكونين رئيسًا لفنلندا؛ تلك المهمة التي تولاها لمدة خمس وعشرين سنة.

وبناء على أقوال أناتولي غوليتسين، الذي أحدث خللاً في مقر هلسنكي في عام ١٩٦١، فقد ألحقت الـ KGB في خدمتها عضوًا جديدًا، وكان رجلاً فنلنديًا سياسيًا يحتل مكانه رفيعة، وعرفته بالاسم الاصطلاحي "تيمو".

وطلبت موسكو من الاثنين المثول أمام المجلس المركزي حيث تعرضا للتعنيف واللوم. وأخيرًا تم القرار على أن يكون المقيم في KGB، المسؤول المباشر عن العلاقة مع "تيمو"، وأن يرجع إلى السفير لاستشارته في بعض الأمور.

وبعد مرور عشرين سنة، حدث صراع آخر، كان يتعلق بموضوع كيكونين هذه المرة، نجم بين الوزير المسؤول، فيكتور ميخائيلوفيتش فلاديميروف، والسفير فلاديمير سوبوليف.

تجدر الإشارة إلى أن غورديفسكي حينما التقى فلاديميروف أعجب بمظهره كجنتلمان بريطاني طبق الأصل. كان له شارب جميل، مشذب بطريقة فنية دقيقة، أما ملابسه وبذلاته فكانت تأتيه من انكلترا: وتصور غورديفسكي أنه أمام ضابط من الحرس استقال ليدير أملاك العائلة.

وفي سنوات السبعينات، كان يتولى إدارة دائرة RT في PDG (دائرة التجسس في KGB) وكان مسؤولاً أيضًا عن إلحاق الأجانب المقيمين في الاتحاد السوفياتي بإدارة التجسس كأعضاء جدد، والإشراف على العمليات التي تقام ضدهم.

وشغل في البدء مركزه في هلسنكي من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧١، ثم عاد إليه بوصفه وزيرًا ـ أو حاكمًا ـ في عام ١٩٧٧؛ ومن البديهي القول أن مراقبته على كيكونين كانت سببًا في ترقيته إلى رتبة جنرال في KGB[١].

***

في غضون صيف ١٩٥٨، تعرض سيروف الذي ضرب الرقم القياسي بطول مدة رئاسته لدائرة مجلس أمن الدولة KGB ، تعرض لهجومات شابين تركيين طموحين كان خروتشيف يصغي إليهما: ألكسندر نيقولافيتش شيلبين، السكرتير الأول للمجلس المركزي في الكومسومول، الذي جنّد عدة مئات من ألوف الشباب السوفيات، لأجل العمل في برنامج الأراضي البور الذي حدده السكرتير العام؛ ونيقولاي رومانوفيتش ميرونوف، رئيس دائرة مجلس أمن الدولة في لينيغراد.

واستطاع الاثنان التأثير كثيرًا على الرئيس السوفياتي بمشروعهما الذي خططا فيه لتجديد مجلس أمن الدولة؛ لقد أرادا منح أعضاء المجلس ليونة أكبر وتأثيرًا وفعالية أقوى.

وقد كافأهما خروتشيف بأن عهد إليهما بمراكز على مستوى عال في جهاز المجلس المركزي.

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٤٦٤ ـ ٤٧٢، ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

ونظرًا للسمعة التي لحقت بسيروف "كجزار"، فقد أثرت علاقاته على الصعيد الدبلوماسي بها، وأصبحت تشكل له مضايقات كثيرة.

وحينما ذهب إلى لندن للاطلاع على التدابير الأمنية واتخاذ الإجراءات الضرورية قبل زيارة خروتشيف وبولغانين التي كانت مقررة في ربيع عام ١٩٥٦، انطلقت صيحات الاستنكار في الصحافة، فاضطر للعودة بسرعة.

وجاءت الشائعات والأقاويل التي سرت عن الدور الذي لعبه في تحطيم الثورة الهنغارية، فيما بعد، تؤكد سمعته كرمز حي لانهيار الستالينية بالنسبة للرأي العام الغربي.

وكان واضحًا أن دائرة مجلس أمن الدولة لو أرادت أن تحصل على صورة أفضل وأكثر مناسبة لها، كان عليها تغيير زعيمها.

في خريف ١٩٥٨، ناقش مجلس الرئاسة الانتقادات التي كان قد واجهها شيليبين والتي كان قد دبّجها سيروف في تقرير أخير له عن عمل مجلس أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي وفي الخارج.

وقدر شيليبين الأعضاء العاملين في أمن الدولة وأثنى على كفاحهم ضد "أعداء الشعب"، وعلى اختراقهم أسرار القوى الامبريالية.

ولكن دورهم، كما شرح، قد أضحى سلبيًا جدًا، إذ لم يفعلوا شيئًا للقتال ضد الغرب استراتيجيًا أو إيديولوجيًا.

وساند الرئيس شيليبين ووقف في صفه.

وعين هذا الأخير، رئيسًا لدائرة مجلس أمن الدولة، في شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٥٨؛ أما سيروف، فلم يطرد، ولكنه اعترافًا بخدماته السابقة، نقل من

مركزه، إلى مركز أقل شأنًا من السابق، حيث استلم رئاسة "الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية GRU".

وكان شيلبين مثل بيريا الذي سبقه، وأندروبوف الذي خلفه فيما بعد، يأمل في تحقيق أهداف وطموحات أعلى مستوى من رئاسة الـ KGB.

زد على ذلك أنه عندما كان لا يزال طالبًا في العشرين من عمره، سئل ذات مرة ماذا يريد أن يصبح في المستقبل.

وبناء على أقوال المؤرخ السوفياتي روي ميدفِف، أجاب فورًا: "رئيس!".

وكان شيلبين يعتبر مجلس أمن الدولة جسر عبور للوصول إلى مركز لائق به يقوده إلى منصب السكرتير العام للحزب.

وغادر مركزه كرئيس لمجلس أمن الدولة، في شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٦١، بيد أنه ظل يشرف عليه كرئيس لمجلس المراقبة القوي في الحزب وفي الدولة.

وأصبح فلاديمير إيفيموفيتش سميتشسني الرئيس الجديد لمجلس أمن الدولة، وكان في السابعة والثلاثين من عمره ومحسوبًا على شيليبين، إذ كان يعمل تحت إشرافه.

تميزت بداية حكم شيلبين بتغيير مفاجئ في طريقة القيادة. وقد لاحظ أحد ضباط الاستعلامات الغربية، المسؤول عن تحليل الرسائل الهاتفية المسجلة لدائرة مجلس أمن الدولة، أن فعل "نفرض" الذي كان يستعمل حتى ذلك الوقت لنقل أوامر الرئيس قد ألغي ليحل محله فعل "نطلب": واكتشف هذا الضابط نفسه، بعد فترة قصيرة، أن شيلبين قد حل مكان سيروف.

وصارت مجموعة الجيل الجديد من الجامعيين، وأصحاب الشهادات الجامعية، الذين كان بعضهم تحت حماية شيلبين في الكومسومول؛ تُستبعَدُ من القيادة الشائخة.

وهذا التغيير في الموظفين كان صاعقًا في الدائرة الثانية (لمكافحة ـ التجسس) التي، كانت تبدو تعيسة إلى جانب الدائرة الأولى.

تجدر الإشارة إلى أنه خلال المرحلة التي كان يوري نوسنكو يعمل فيها في الإدارة الأولى من الدائرة الثانية، من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٥٥، اثنان فقط من ستين ضابطًا كانوا يملكون دبلومًا جامعيًا؛ كما أن بعضهم لم يكونوا قد أتموا دراساتهم الثانوية، وقليلاً منهم كانوا يتكلمون اللغة الإنكليزية.

وعندما عاد نوسنكو نفسه، إلىنفس الإدارة في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٠، كان حوالي ٨٠٪ من الموظفين يحملون درجة جامعية و٧٠٪ كانوا يتكلمون الإنكليزية: وفي نفس الوقت الذي حقن فيه الجهاز القديم بذلك الدم الجديد، حاولوا أن يخلقوا صورة جديدة له.

"وألغيت اغتصابات الشرعية الاشتراكية تمامًا"، كما أكد ذلك شيلبين عام ١٩٦١... و"أصبح بإمكان التشيكيين النظر في عيون الشعب والحزب، وهم مرتاحو الضمير".

وبعد انقضاء عشرين سنة على إهمال دزرجنسكي، في عهد ستالين، أُعيد إليه الاعتبار والتعلق بعبادة شخصه.

وبات "فليكس الحديدي" نموذجًا لقائد "التشيكا"، ذي الدم البارد، والقلب الحار الذي يحمي الشعب السوفياتي من هجمات وضربات محرضي الحرب الامبرياليين.

ودهش شيلبين للنجاحات العديدة التي حققها وسجلها الاختصاصيون بالتنصت في الدائرة الثامنة العامة، بعد أن تفحص العمليات المنفذة في الخارج، في غضون شتاء عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩.

أصبحت تلك النجاحات ممكنة من خلال التسلل إلى داخل السفارات الأجنبية الموجودة في الكتلة السوفياتية وبواسطة تعيين موظفي الشيفرة والديبلوماسيين الأجانب في موسكو وفي خارج الاتحاد السوفياتي، كأعضاء جدد.

وفكر شيلبين أن العمليات التي قامت بها الدائرتان الأولى والثانية، لأجل مساندة وترويض الدائرة الثامنة قد أسيء تنسيقها. لذلك فقد أنشأ "فرعًا خاصًا" داخل الدائرة الأولى العامة، ووضعه تحت إشراف الكسندر ساخاروفسكي، مدير الدائرة، وتحت مراقبته المباشرة، وذلك حرصًا منه على حسن التنسيق وتحسين العلاقات بين الدوائر الثلاث.

وكان الهدف الرئيسي لهذا "الفرع الخاص"، "العدو الرئيسي" أي الولايات المتحدة، بلا أدنى شك[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٥١٤ ـ ٥١٧.

أندروبوف رئيسًا للـ KGB

توصّل خروتشوف عام ١٩٦٤ إلى تجاهل معظم أعضاء مجلس السوفيات الأعلى. وكانت أزمة الصواريخ الكوبيّة بالنسبة للسوفيات إذلالاً لهم. وبعد الحصار السيّء عام ١٩٦٣، اضطرّت السلطة إلى الاغتراف من المدّخرات الثمينة من الذهب والعملة الأجنبية كي تشتري الحبوب من الغرب. وللمرة الأولى تقريبًا، وقع الميزان التجاري السوفياتي تحت العجز، ومذاك أصبحت مراقبة تقلّبات الأسواق العالمية للحبوب إحدى مهام الـ K.G.B...

لكنّ الاستياء كان ناجمًا بشكل خاصّ عن التبدّلات المستمرة في الحزب وفي جهاز الدولة، هذه التبدلات التي كانت تُربك رفاق خروتشيف وملايين الأباراتشيك Apparatchiks. وكان كلّ من شيليبين ومحميّه سيميتشاستني يؤيّد بفعاليّة أعداء خروتشيف في المجلس الأعلى للسوفيات. وقد استطاعوا التجسّس على مخابراته التلفونية الخاصة...

اشتكى سيرغي، ابن خروتشيف، من هذا الوضع بقوله: "حتى الآن، كنت أعتقد أنّ الـ K.G.B وكلّ الأجهزة الخاصة إنّما وُجدت لتساعدنا. وها هو الجهاز فجأة يتوقف عن كونه المدافع الكبير ليصبح المحقّق الكبير الذي لا يجهل شيئًا من أعمالنا وحركاتنا".

بمساعدة الـ K.G.B، دبّر المتآمرون مفاجأة للزعيم. ففي خريف ١٩٦٤، نظروا مبتسمين إلى رحيله في عطلة إلى البحر الأسوَد. وفي ١٣ تشرين الأول ـ أكتوبر،

استُدعي فجأة إلى اجتماع طارئ لمجلس السوفيات الأعلى في موسكو. وعوضًا عن لجنة الاستقبال المعتادة، لم يجد في المطار سوى سيميتشاستني وضابط كبير في الـ K.G.B. حسب سيرغي، كان وجه سيميتشاستني متوترًا. انحنى نحو خروتشيف وهمس بصوت منخفض: "جميعهم مجتمعون في الكرملين وينتظرونك".

ـ "هيّا بنا"، قال الآخر[1].

وقد أكّد سيميتشاستني في ما بعد على أنّ العديد من زملاء خروتشيف اقترحوا توقيفه، لكنّ المجلس الأعلى رفض الفكرة. وقرروا مواجهته بدلائل حول الدور الذي لعبه في أوكرانيا أثناء تطهيرات ستالين. وقد قال أحد المتآمرين، وهو يوري أندروبوف، لأحد أعضاء اللجنة المركزية: "لو عاند خروتشيف لأطلعناه على مستندات تتعلق ببعض التوقيفات بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧ وتحمل توقيعه"... لكنّ الأمين العامّ استسلم سريعًا إلى القدر. ولأنّه رحل دون ضجة فقد ساعد بذلك على أن تكون خلافته الأهدأ منذ الثورة، وقد سُمح له بالاحتفاظ بشقته وبالداتشا وبسيارته، ومُنح معاشًا شهريًا يعادل ٥٠٠ روبل.

علّلت الصحافة السوفياتية "استقالته" بالسنّ والحالة الصحيحة السيئة. بعد ذلك، اعتُبر رسميًا غير موجود. ولم يُذكر في الصحافة إلاّ عام ١٩٧٠ حين أعلنت البرافدا باختصار موت نيكيتا سير غيفيتش خروتشيف كمتقاعد بسيط.

وقد كوفئ شيليبين وسيميتشاستني بترقية سريعة بسبب الدور الذي لعباه في سقوط خروتشيف. فقد دخل الأوّل إلى مجلس السوفيات الأعلى دون الخضوع إلى فترة

---

١ ـ نُشرت مذكرات سيرغي نيكيتوفيتش خروتشوف حول سقوط والده بشكل متسلسل في "أوغونيوك Ogoniok" عام ١٩٨٨.

تدريب كتائب (دون حقّ التصويت). واختير الثاني عضوًا في اللجنة المركزية. لكنّ المنتصر الحقيقيّ كان ليونيد إيليتش بريجينيف الذي خَلَفَ خروتشيف في منصب السكرتير الأوّل. في البدء، اعتبر معظم أعضاء مجلس السوفيات الأعلى أنّ هذا التعيين موقت. ومن بين جميع القادة السوفيات، باستثناء ستالين، كان هو من احتفظ بمنصبه أطول مدّة.

مع غورباتشيف، يُعتبر عهد بريجنيف عهد ركود، لكن، في ذلك الوقت، ارتاحت الأكثرية المحافظة في الحزب لهذا الثبات الذي أعقب التجارب غير المتوقعة والتقلّب خلال السنوات العشر من حكم خروتشيف. وكان السكرتير العامّ قد جدّد ما بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦١ أكثر من ثلثي أمناء السرّ المحليين في الحزب ونصف اللجنة المركزية.

مبدأ بريجنيف الأساسيّ هو: "ثبات الكوادر"، أي سلامة العمل لموظفي الحزب. وقد أعقب الثبات في الستينات حكم الشيوخ في السبعينات. ومنذ عام ١٩٦٦ ـ حين عاد لمجلس السوفيات الأعلى اسم البوليتبورو Politburo ـ حتى موت بريجنيف سنة ١٩٨٢، ارتفع العمر الوسطيّ لإعفائه من ستة وخمسين حتى ثمانية وستين عامًا. حتى أولئك الذين يخسرون مراكزهم في الدرجة العليا في الحزب يحصلون على منصب في النومونكلاتورا Nomenklatura ويحتفظون بالداتشا والسيارات وامتيازات أخرى...

سقوط خروتشيف أدّى إلى ردّ اعتبار جزئي لستالين وإلى توقّف عنيف للحركة المضادة للستالينيّة. وبدعم فعّال من شيليبين، هاجم سيميتشاستني المنشقّين، فاتّهمهم بالقيام بدور "تخريبي إيديولوجي" بإيحاء من الغرب. وكان سيميتشاستني قد نال شهرة بين المفكرين السوفيات لتعابيره في الحكم على بوريس باسترناك، بعد صدور كتاب "دكتور جيفاكو" في الغرب سنة ١٩٥٨، إذ قال: "حتى الخنزير لا يتغوّط في معلفه".

في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٥، وبأمر من سيميتشاستني، أوقف الكاتبان أندريه سينيافسكي وإيولي دانيال لأنّهما كتبا نصوصًا "هدّامة" نُشرت في الغرب، كما حملا تابوت باسترناك أثناء دفنه عام ١٩٦٠. وخلال دعوى عامة لم تُنشر لاضطرابها، حُكِمَ بالسجن على سينيافسكي سبع سنوات مع الأشغال الشاقة، وعلى دانيال خمس سنوات لقيامهما بالدعاية المضادة للسوفيات. وقد أعلن سيميتشاستني أنّ هدفه إيقاف ألف مفكّر "لتثبيط همّة الآخرين". وقد أعرب سولجنتسين عن قلقه، المبالغ فيه طبعًا، رغم أنه يعكس المناخ في تلك الفترة: "لكن، بتقريب عقلانيّ، يمكن أن نقول إنّ عودة عنيفة إلى الستالينية كانت تتهيّأ تحت عصا شيليبين "شوريك ـ الرجل الحديديّ الصغير". لكنّ أيام شيليبين وسيميتشاستني كانت معدودة. فقد كان بريجنيف ومعظم أعضاء مجلس السوفيات الأعلى قلقين من طموح شيليبين الواضح ومن اتّساع قدراته في منصب سكرتير اللجنة المركزية والمسؤول عن "عناصر المراقبة" لاسيّما وأنّ محميّه سيميتشاستني كان يدير الـ K.G.B، وكانت ابنة ستالين، سفيتلانا الليلوييفا، السبب المباشر غير المنتظر لسقوط هذا الأخير. فبعد أن سُمح لها بالخروج من الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٦ احضور جنازة زوجها الثالث، وهو شيوعيّ هنديّ، رفضت أن تعود. وبالإضافة إلى الحكم على سيميتشاستني من قِبَل الإدارة السوفياتية لأنه سمح برحيلها، فقد ارتكب خطأ آخر بإصداره أمرًا بخطفها. فشلت العملية: لم تعد سفيتلانا إلى الاتحاد السوفياتي، لا بل انكشف واضحًا دور فاسيلي فيديروفيتش سانكو، رجل الـ K.G.B المُرسل إلى نيويورك لإحضارها؛ إنه هو نفسه الذي حاول، منذ ثلاثة عشر عامًا، ودون نجاح، إعادة ايفدوكيا بتروفا إلى الاتحاد السوفياتي بعد هروب زوجها إلى أوستراليا. وحين طُرحت، في آذار ـ مارس ١٩٦٧، فكرة استبدال سيميتشاستني لأوّل مرة، تمكّن شيليبين من الدفاع عنه. في أيار ـ مايو، أثير الموضوع من جديد في حين

كان شيليبين في المستشفى يقوم بجراحة للزائدة الدوديّة. هذه المرة، تـدارك بريجنيف كلّ شيء. وحَسَب سولوكوف فإنّه دُعي إلىاجتماع لمجلس السوفيات الأعلى حيث أُعلم بقرار "تحرير سيميتشاستني من مهامه" (عبارة تقليدية للتعبير عن الإبعاد)، ولم يجرِ أيّ مناقشة، وقد اكتفى بريجنيف بالتوجه إلى الأعضاء الآخرين في المجلس مرددًا: "ما من حاجة للنقاش، ما من حاجة للنقاش".

ووفقًا لسياسة بريجنيف التي تقضي بإعطاء الشخصيات المهمّة من النومونكلاتورا Nomenklatura شيئًا من التعزية عند تسريحها، فقد أُرسل سميتشاستين إلى أوكرانيا وأصبح نائب الوزير الأوّل عن الرياضة.

بعد خروجه من المستشفى في حزيران ـ يونيو، كان شيليبين قد فَقَدَ مركزه القويّ كسكرتير للجنة المركزية والمسؤول عن عناصر المراقبة (ومن بينها الـ K.G.B) وتقهقر إلى منصب رئيس اللجنة المركزية لنقابات الاتحاد السوفياتي...

بعد أن تسلّم مكاتبه الواسعة الجديدة، اكتشف أنّ سلَفه، فيكتور غريشكين، قد وضع في غرفة مجاورة "صالون تدليك مجهزًا بشكل خاص"... حسب ثورية جوريس ميدفيديف: "كان بريجنيف متساهلاً في هذا النوع من المسائل على أن يبقى المذنب مخلصًا له".

كان أندروبوف المستفيد الرئيسي من إبعاد شيليبين وسيميتشاستني إذ أصبح رئيسًا للـ K.G.B. وعيّن محميّين لبريجنيف هما سيميون كونستانتينوفيتش تسفيغون وفيكتور ميخائيلوفيتش تشيبريكوف (الرئيس المستقبليّ)، عُيّنا نائبا رئيس. وقد أسرّ بريجنيف لسولوكوف أنّ السبب الرئيسي لتعيين أندروبوف هو "تقريب الـ K.G.B من اللجنة المركزية"؛ فمنذ رحيله من بودابست عام ١٩٥٧، أدار أندروبوف القسم المسؤول عن العلاقات بين الأحزاب العمّالية والشيوعية في البلدان الاشتراكية. هذه التسمية جعلت

منه المسؤول الحزبيّ الرسميّ الأوّل الذي يدير الـ K.G.B، والرئيس الأوّل، منذ بريـا، لهذا الجهاز مع كونه في نفس الوقت عضوًا في المجلس الأعلى للسوفيات كعضو نائب في البدء (لا يصـوّت) ثـم، بعـد ١٩٧٣، كمُثبَّـت. وقـد قيـل إنّ تعييـن أندروبـوف جـاء "نتيجة لتطوّر يجري منذ موت ستالين وهـو تقـارب الحـزب والـ K.G.B حتـى صـارا يعملان وكأنّهما فرعان لمؤسسة واحدة".

كان بريجنيف يتمنى أن تسيطر إدارة الحزب علىالـ K.G.B، وهذا ما حصل، لكن "ليس دون امتصاص الحزب، فـي الوقـت عينـه، وبشـكل كبير، رؤيـة عـالم التنظيـم". ومن بين كلّ مديري الـ K.G.B، كان أندروبوف أكثر من حـافظ علـى منصبـه لأطـول فترة وعرف أكبر النجاحات السياسية. وكتتويج لخمسة عشرة عامًا من الرئاسة، خَلَـفَ بريجنيف عام ١٩٨٢ في منصب أمين عامّ الحزب[١].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٥٥٣ ـ ٥٥٦.

في مقرّ إيازينيفو

في ٢٠ حزيران - يونيو ١٩٧٢، استقرّ المجلس الإداري السوفياتي الأوّل العامّ في مقرّ عامّ جديد صمّمه مهندس معماريّ فنلنديّ، في إيازينيفو، في جنوب شرقي موسكو، على بُعد أقلّ من كيلومتر واحد من المحيط الخارجيّ.

كان المبنى مخصصًا في الأصل للمقر الأممي للجنة المركزية. خلال التشييد، رأت هذه الأخيرة أنّ الموقع بعيد للغاية عن المركز فأعطته للـ K.G.B.

يلتصق بالمبنى الرئيسي، وشكله مثل Y، قاعة محاضرات ومكتبة من جهة، وعيادة متنوّعة ومجموعة رياضية وحوض سباحة من جهة أخرى. حول المجلس الإداريّ الأوّل العامّ (جاسوسية) في الـ K.G.B، ينتصب سور مزدوج مع كلاب حراسة وحرّاس مسلّحين يقومون بدوريّة في المحيط. يتضمّن المُتنزه بحيرة اصطناعية تشرف عليها نضعيّة ضخمة للينين من الغرانيت، للاحتفال بالستين لولادة الـ K.G.B في ٢٠ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٧، شُيّد نصب في الحدائق لذكرى "ضابط المخابرات المجهول". تطلّ نوافذ المكاتب على منظر رائع من الهضاب المكسوة بالبتولة والمروج، وفي الصيف من حقول القمح والسلت.

كلّ يوم يأتي سيل ضخم من شاحنات الركاب بالمُستخدمين من مختلف أنحاء موسكو. يصلون إلى إيازينيفو على فترات منتظمة بين الساعة ٨ و٢٠ دقيقة والساعة ٨ و٥٠ دقيقة. وتصل في السيارة أقلية سعيدة (دائمًا حوالي ٥٪، حتى في وسط

الثمانينـات). ووُجدت سـيارات خاصـة مركونـة فـي المجلـس الإداريّ الأوّل العـامّ (جاسوسية) في الـ K.G.B أكثر ممّا في كلّ مكان آخر في الاتحاد السوفياتي.

يبدأ نهار العمل رسميًا في الساعة التاسعة. عند وصولهم، يتعرّض أعضاء الإدارة إلى ثلاثة تدقيقات: الأوّل عند الحواجز الخارجية، الثاني عند المدخـل الرئيسـي للسـور المحيط والثالث عند مدخل المبنـى نفسـه. هنـاك تدقيقـات إضافيـة بيـن مختلـف أقسـام المبنى. لم تكن صالحة في إيازينيفو بطاقة الهوية العادية للـ K.G.B مع الاسـم والرتبـة وصورة حاملها. يحصل كل ضابط في المجلس الإداريّ الأوّل العامّ (جاسوسية) في الـ K.G.B وهو الـ PDG، على إذن مرور جديـد بلاسـتيكي يحمـل صورتـه ورقـم هويتـه لكن دون اسم. وإذن المرور هذا مربّع مع ثقوب تعيّن أقسام المبنى التي يحقّ للضـابط دخولها. ويترك ضبـاط الــ PDG العـاملون فـي الخـارج هذا الإذن فـي مديريتهـم فـي المركز، من أجل الأمن. كان الزوّار غير الأعضاء في الـ PDG قليلين للغايـة ودائمًـا تقريبًا من درجة عالية جدًا.

حين يكون للضابط محادثات مع أعضاء في مجالس إدارية أخرى فـي الــ K.G.B أو مع أعضاء في الحزب أو في الحكومة، تجري اللقاءات عادة في مركز موسكو.

ينتهي نهار العمل في الساعة السادسـة. تنطلـق شـاحنات الركـاب بسـرعة كبـيرة، حوالـي السـاعة ٦ و١٥ دقيقـة مزيلـة كـلّ إشـارة عـن وجهتهـا منـذ أن يـأخذ الركـاب أماكنهم. حين ينطلقون، توقف الشرطة السير في المحيط الخارجيّ لكي يمرّوا.

ورغم العديد من الاحتياطات، فإنّ المشكلة التي يطرحها المطعم، فـي مـا يختـص بـالأمن، لـم تُحـلّ أبـدًا، علـى الأقـلّ فـي عهـد غورديفسـكي. دَهِشٌ مـن نوعيـة وتنـوّع المأكولات التي يقدمها، كان فريق المطعم، المُجنّد في القرى المجاورة، يضع ما أمكنـه في جيوبه. حين أعلنوا عـن إجـراء تفتيـش، رفـض أعضـاء المِـلاك العمـل فـاضطروا

للتراجع. ويستمرّ الـ PDG على الأرجح بملاحظة التناقض بين حمية القرى المجاورة القاسية وجيوب مِلاك مطعمه.

بعد حوالي العام من الانتقال إلى إيازينيفو، تقاعد ألكسندر ساخاروفسكي بعد تعمير لا سابق له (١٥ سنة) على رأس الـ PDG. خَلَفَه معاونه القديم فيدور كونستانتينوفيتش مورتين، وهو ضابط مهنيّ في الـ K.G.B عمره ٥٣ عامًا خرج من الصفّ كمحميّ ساخاروفسكي القانونيّ. بإستثناء عدة أسفار قصيرة لعب فيها دور المعكّر الإتفاقيّ في مراكز الـ K.G.B، لم يكن يملك أيّ خبرة ... في المجموعة الجديدة في إيازينيفو، بدأ رغم ذلك نهجًا جديًا. هكذا كان يصل كلّ يوم، كما كلّ المسؤولين الكبار الآخرين، في ليموزين سوداء مع سائق ـ فولغا أو زيل ـ ويدخل المقرّ العامّ من مدخل خاصّ. كما يملك أيضًا مصعدًا خاصًا. ويملك مورتين في الطابق الثاني شقة فخمة واسعة مع غرفة نوم وحمام متلاصقين.

رغم أنّه كان معاونًا عاملاً وفعّالاً بالنسبة لساخاروفسكي، فقد انتشرت شائعات في المركز تقول إنّ أندروبوف يعتبره خفيفًا بعض الشيء في وقت يجهد هو لبناء قاعدته السياسية الخاصة.

عام ١٩٨٤، عُيّن مورتين مسؤولاً عن المجلس الإداريّ العامّ للتعاون العلمي والتقني في مجلس الدولة السوفياتي للعلم والتكنولوجيا (GKNT)، وهو منصب جوهريّ في مجال الاستعلامات العلمية والتكنولوجية يشغله عادة ضابط في الـ K.G.B.

كان خليفة مورتين في إيازينيفو أحد المحميين الشخصيين الأكثر صلابة لأندروبوف، وهو فلاديمير ألكسندروفيتش كريوتشكوف، عمره ٥٠ عامًا، وقد بقي مسؤولاً عن الـ PGD مثل ساخاروفسكي تقريبًا. وبعد ١٤ سنة في إيازينيفو، سيصبح

رئيس الـ K.G.B عام ١٩٨٨، وتُظهر الصور الرسمية لكريوتشكوف، مع ملتقى الشفاه المتدلية، تتريًّا قاسيًا وعابسًا لا يخفي مظهره أبدًا طبيعته العميقة القاسية أيضًا والقليلة الابتسام.

طوال مهمته على رأس الـ PDG، بذل طاقة ضخمة موجّهة بكاملها نحو هدف وحيد وممزوجة مع الثقة بالنفس، الجدارة الإدارية والفطنة السياسية. كان مُكِدًّا لا يملك أقل حِسّ بالمرح. ويذكر غورديفسكي أنه لم يكن يبتعد أبدًا، خلال اجتماعات الـ PDG، عن نصوصه المكتوبة، ولا يحاول في أيّ وقت تحرير جملة طريفة، ولا يُظهر أبدًا أيّ محاولة للمرح.

عام ١٩٨٩، سأله صحافي: "هل تعرف ما تعنيه كلمة "تسلية"؟ "فأجاب: "أخشى أن لا"

كان كريتشكوف يحبّ التمسك برسائل ديونه البروليتارية مذكّرًا أنه بدأ الحياة كعامل مصنع حصل على الدبلوم من معهد الحقوق في الاتحاد السوفياتي باتباعه دروسًا بالمراسلة، وكان لعدة سنوات قاضيًا محققًا ونائبًا عامًا. بعدها حلّ ما سمّاه هو بنفسه "تبدّل حياته": بعد إعداد في المدرسة العليا الدبلوماسية في وزارة الشؤون الخارجية، ذهب لمدة خمس سنوات (١٩٥٤ ـ ١٩٥٩) إلى السفارة السوفياتية في بودابست حيث أصبح محميّ السفير يوري أندروبوف. من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٧، اشتغل، تحت سلطة أندروبوف في البداية، في مديرية اللجنة المركزية للعلاقات مع الدول الاشتراكية، متعاملاً مع معاهدة وارسو والبلدان الأخرى التي تقودها أحزاب شيوعية. وسيقول فيما بعد عن هذه الفترة من حياته: "من الدارج اليوم اغتياب جهاز الحزب. رغم ذلك أودّ القول إني تعلّمت فيه الكثير والتقيت أشخاصًا رائعين، مع الاستثناءات المزعجة الموجودة في كل مكان".

استخلص من هذه السنوات أستاذية مستهلكة في المؤامرات السياسية والشخصية في اللجنة المركزية.

حين عُيِّن أندروبوف رئيسًا للـ K.G.B عام ١٩٦٧، أصبح كريوتشاكوف مسؤولاً عن سكرتيريته وحارسًا للأسرار الأشد حساسية. حوالي ١٩٧١، انتقل إلى المجلس الإداريّ الأوّل العامّ كمعاون رئيس مسؤول عن الاستعلامات في أوروبا، وخَلَفَ موتين كمسؤول بعد ٣ سنوات.

بالإضافة إلى أنه مُكِدّ، كان كريتشوف أيضًا متعصّبًا للشكل الخارجي، وعنده عادة مزعجة هي استعمال مليّنات العضلات أو شدّ طابات التنس لتقوية قبضته، وذلك حيث يستقبل ضباطًا في الـ PDG. ويملك ملعبًا شخصيًا مع قاعدة تدليك في المقرّ العامّ الجديد للـ PDG. تَوجَدُ قرب الملعب سونته الخاصة حيث يتناقش أحيانًا مع جنرالات آخرين في الـ K.G.B. ورغم أنّ الضباط ذوي الرتب العالية لم يلتقوه أبدًا في السونا، فإنّ غورديفسكي تمكّن من لقائه ذات مساء إذ قاده عضو في سكرتيريته إلى هناك. كانت السونا الأكثر ترفًا التي رآها في حياته، مجهزة بأفضل ما يمكن للشعارات القوية أن تؤمّنه: خشب ثمين مستورد خصيصًا من فنلندا بدل الصنوبر الروسيّ المعتاد، وتجهيزات وإضاءة أنيقة مصنوعة خصيصًا في اسكندينافيا، يوجد أيضًا حاشدة رائعة للمناشف اللينة وللمآزر. قرب الملعب والسونا، نجد زاوية لوجبات الأكل، لكن دون كحول. في الواقع، كريوتشكوف لا يشرب أبدًا وقد أذهل موظفًا في الـ PDG اعتاد تقليديًا الكحول بمنعه السهرات المروية تحت طائلة الذهاب إلى الخارج في مهمة.

حين تولّى رئاسة الـ PDG، كان ضعفه الرئيسيّ الانعدام الكامل للخبرة في عمليات الاستعلامات وفي الحياة في الغرب. التقاه غورديفسكي للمرة الأولى عام ١٩٧٢ قبل استلامه منصبه كضابط في الخطّ PR (الاستعلامات السياسية في مراكز

الـ K.G.B) في كوبنهاغن بفترة قصيرة. سأله كريوتشكوف فورًا، وكان معاون مورتين آنذاك: "قل لي، كيف ستقيم اتصالات حتى تصير في الدانمارك"؟ تهيّأ غورديفسكي للإجابة بطريقة ساذجة (هذا على الأقلّ ما قاله لنفسه فيما بعد) إذ كان قادمًا لتوّه من المجلس الإداريّ "س" (لغير الشرعيين). لكنه لم يكد يبدأ بالكلام حتى قاطعه الآخر بمونولوج استمرّ حتى نهاية المقابلة. وقد اندهش ضيفه إذ كانت رؤية كريوتشكوف أكثر سذاجة أيضًا من رؤيته لا سيّما بالنسبة لجَهْله المجتمع الغربيّ. وجهات النظر هذه مستمدّة من سلسلة مُقَولبات إيديولوجية ونظريات في المؤامرة لم تبدأ بفقدان قوّتها إلاّ في نهاية الثمانينات. لم يكن يتقبّل بابتسامة الآراء المخالفة لآرائه. وقد أُبعد كِلا المحلّلَينْ الأكثر لمعانًا وشهرة للسياسة الإنكليزية والأميركية، أوليغ كالوغين وميخائيل ليوبينوف، عن المركز عام ١٩٨٠ لأنّهما اعترضا على نظريات رئيسهم حول المؤامرة.

على رأس الـ PDG، أعطى كريوتشكوف ثقة أكثر فأكثر للمتملّقين الذين يستغلّون ضعفه المتعاظم للمدائح الشخصية[١].

***

في أيار ـ مايو ١٩٨٢، ترك أندروبوف الـ K.G.B إلى سكرتاريا اللجنة المركزية لكي يعزّز موقعه كوريث لبريجنيف المشرف على الموت أكثر فأكثر. وأصبح من المؤكد سريعًا بما فيه الكفاية ليضع رجلاً مخلصًا له على رأس الـ K.G.B. فكان خليفته كرئيس بريجنيفي مخلص هو فيتالي فيدوروتشوك، عمره ٦٤ عامًا وكان رئيسًا للـ K.G.B في أوكرانيا منذ ١٩٧٠. لم يكن تعيينه مُحَبَّذًا في المركز حيث اعتُبر بشكل

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتية، ص٦١٢ ـ ٦١٥.

عامّ كسكين ثانٍ (كما سيحدث فعلاً) سوف يُستبدل حالما يصبح أندروبوف سكرتيرًا عامًا. رغم ذلك، كان فيدوروتشوك مطمئنًا لأوستينوف وللعسكريين، حتى عام ١٩٧٠، استمرّت حياته المهنية في الاستعلامات المضادة العسكرية؛ في نهاية الستينات، كان مسؤولاً عن المجلس الإداري الثالث في الـ K.G.B (للاستخبارات العسكرية المضادة).

في ١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر، مات السكرتير العامّ للحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجينيف، وكانت خلافته جاهزة مُسبقًا: انتُخب أندروبوف بـ "الإجماع" خلفًا له[١].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦٦٢، ٦٦٥.

المراجع والفهرس

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ – ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة،١٩٩٩)

Andrew Christopher, *Théophile Delcassé and the Making of the Entente Cordiale*, Macmillan (Londres,1968)

Andrew Christopher, *Secret Service: The Making of the Briitish Intelligence Community*, Heinemann (Londres,1985)

August Frantisek et Rees David, *Red Star Over Prague*, Sherwood Press (London,1984)

Carr E. H, *Foundations of a Planned Economy*, Macmillan (Londres,1978)

Cohen Srephen F., *Bukharin and the Bolshevik Revolution 1888-1938*, Oxford University Press (New York, 1980)

Cohn N., *Warrant for Genocide*, Eyre and Spottisswoode (London,1967)

Conquest Robert, *Inside Stalin's Secret Police: NKVD Politics 1936-1939*, Macmillan (Lonon,1985)

Conquest Robert, *The Great Terror: Stalin's Purge of the Thirties,* Macmillan (London,1968)

Dallin David J., *Soviet Espionage,* Conn., Yale University Press (New Haven, 1949)

Deacon Richard, *A History of the British Secret Service,* Frederick Muller (Londres, 1969)

Debo R.K., *Revolution and Survival The Foreign Policy of Soviet Russia1917 -1918*(Liverpool University Press, 1979)

Deutscher Isaac, *The Prophet Outcast: Trotsky 1921-1928,* Oxford University Press (Londres,1959)

Deutscher Isaac, *The Prophet Outcast: Trotsky 1929-1940,* Oxford University Press (Londres,1963)

Deutscher Isaac, *Stalin: A Political Biography,* Vintage Books (New York, 1962)

Don Levine Issac, *The Mind of an Assassin,* Weidenfeld and Nicholson (London,1959)

Dziak John J., *Chekisty,* Lexington Books (Lexington, Mass.,1987)

Dziak John J., *Chekisty, A History of the KGB,* Lexington Books, (Lexington, 1988)

Firault René, *Emprunts Russes et Investissements Français en Russie 1887-1914* (Paris,1913)

Fomine Fédor Timofiëevitch , *Zapiski Storogo Chekita,* 2ème éd., Politizdat (Moscou,1964)

Ginsburg Evgenia, *Into the Whirlwind* (London, 1967)

Grey Marina, *Le Général meurt à minuit,* Plon, (Paris,1981)

Grigorenko Piotr G., *Memoirs,* Harvill Press (Londres,1983)

Hasegawa Tsuyoshi, *The February Revolution: Petrogard, 1917,* University of Washington Press (Seattle, 1981)

Heller Mikhail et Nekrich Alexandre, *Utopia in Power.* Summit Books (New York, 1986)

Herzen Alexander, *My Past and thoughts,* trad. par Constance Garnet, Ed. Chatto and Windus (Londres,1968)

Hill G. A., *Go Spy the Land,* Cassell (Londres, 1932)

Hingley Ronald, *The Russian Secret Police,* Hutchinson (London,1970)

Ivanov-Razoumnik R. V., *The Memoirs of Ivanov-Razumnik,* Oxford University Press (London,1965)

Kahn David, *The Codebreakers,* Macmillan (New York, 1967)

Khokhlo Nikolaï, *In the Name of Consciemce,* F. Muller, (London,1960)

Kravchenko Viktor, *I Chose Freendom,* Schribner's (New York,1946)

Lecoeur Auguste, *Le Partisan*, Flammarion (Paris, 1963)

Leggett George, *The Cheka: Lenin's Political Police,* Oxford University Press (Oxford,1981)

Lewis Jonathan et Whitehead Phillip, *Stalin, A Time for Judgement,* Metheun (London,1990)

Lockhart Robert Bruce, *Memoris of a British Agent* ٢eme éd. (Londres, New York, Putnam, 1934)

Mandelstam Nadela, *Hope against Hope,* Collins (London,1971)

Mandelstam Nadela, *Hope Abandoned,* Collins (London,1974)

Massing Hede, *This Deception,* Ivy Books (New York,1987)

Mawdsley Evan, *The Russian Civil War,* Allen and Unwin (Londres,1987)

Medvedev Roy, *Let History Judge,* Macmillan (London,1972)

Orlov Alexandre, *The Secret History of Stalin's Crim,* Jarrolds (London,1954)

Owen Richard, *Crisis in the Kremlin,* Victor Gollancz (London, 1986)

Petrov Vladimir et Evdokia, *Empire of fear,* André Deutsch (London,1956)

Pipes Richard, *Russia under the Old Regime* (Harmondsworth, Penguin,1974)

Possony Stefan T, *Lenin: the Compulive Revolutionary,* rev. Brit. ed. Allen & Unwin (Londres, 1966)

Poznyak Zenon, *Kuropaty* (Moscow News,1988) No. 41.

Raffalovitch A.G., *L'Abominable Vénalité de la Presse* (Paris, 1921)

Razgon Lev, *The Executioner's Song,* (Moscow News,1988) No. 48

Reilly S. G., *The Adventures of Sidney Reilly, Britain's Master Spy and Marrot, E. Mathews* (Londres, 1931)

Riasanovsky N.V., *A History of Russia,* University Press (Oxford,1948)

Richard Storry, *A History of Modem Japan, Penguin Books* (Hardmondsworth,1960)

Rogger Hans, *Russia in the Age of Modernisation and Revolution 1881-1917,* Longman (Londres,1983)

Stephan Robert W., *Death to Spies: The Story of Smersh,* American University, (Washington DC,1984)

Thomas Hugh, *The Spanish Civil War,* Hamish Hamilton (London,1977)

Ulam Adam, *Expansion and Coexistence: Soviet Foreign Policy 1917-1973,* Holt Rinechart (New York,1974)

Ullman Richard H., *Anglo-Soviet Relations 1917-192*(Princeton University Press, 1961-1972)

Vassiliev A T., *The Ochrana,* Harrap (Londres,1930)

Vereeken George, *The GPU in the Trostskyit Movment,* New Park Publications (Londres,1976)

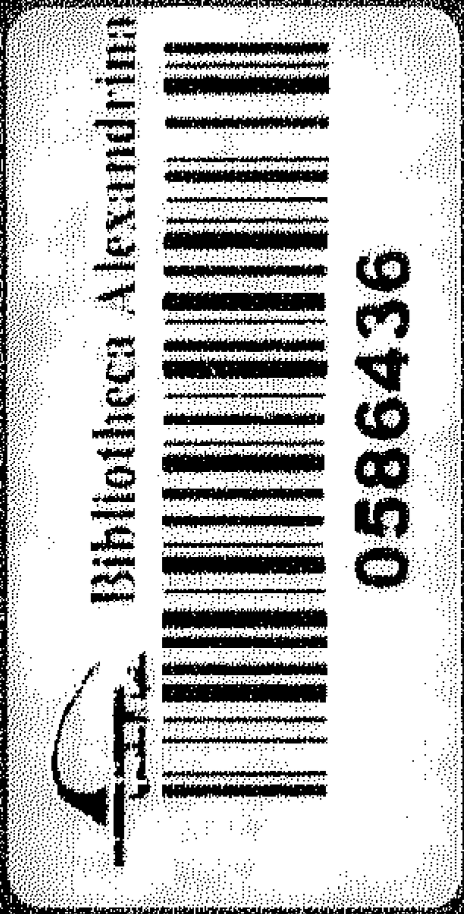
Volkov Fedor, *Les Secrets de Whitechall et de Downing Street*(Moscou,1986)

Williams Robert Chadwell, *The Other Bolsheviks,* Indiana University Press (Bloomington and Indianapolis,1986)

Wolfe Bertran D., *Three Who Made a Revolution,* Penguin (Harmondsworth, 1966)

Zakharovitch Sergeî Ostriakov, *Voyennye Chekisty* (Moscou,1979)

الفهرس


Bibliotheca Alexandrina
0586436